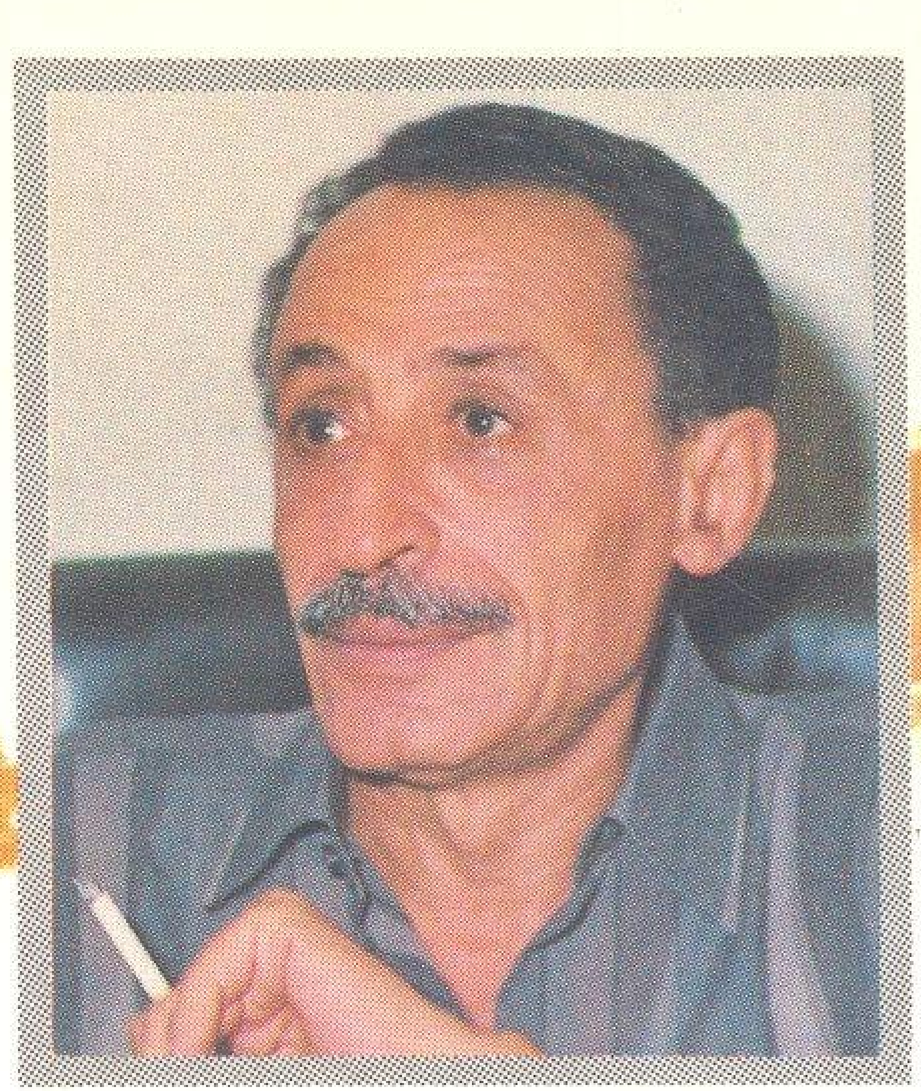
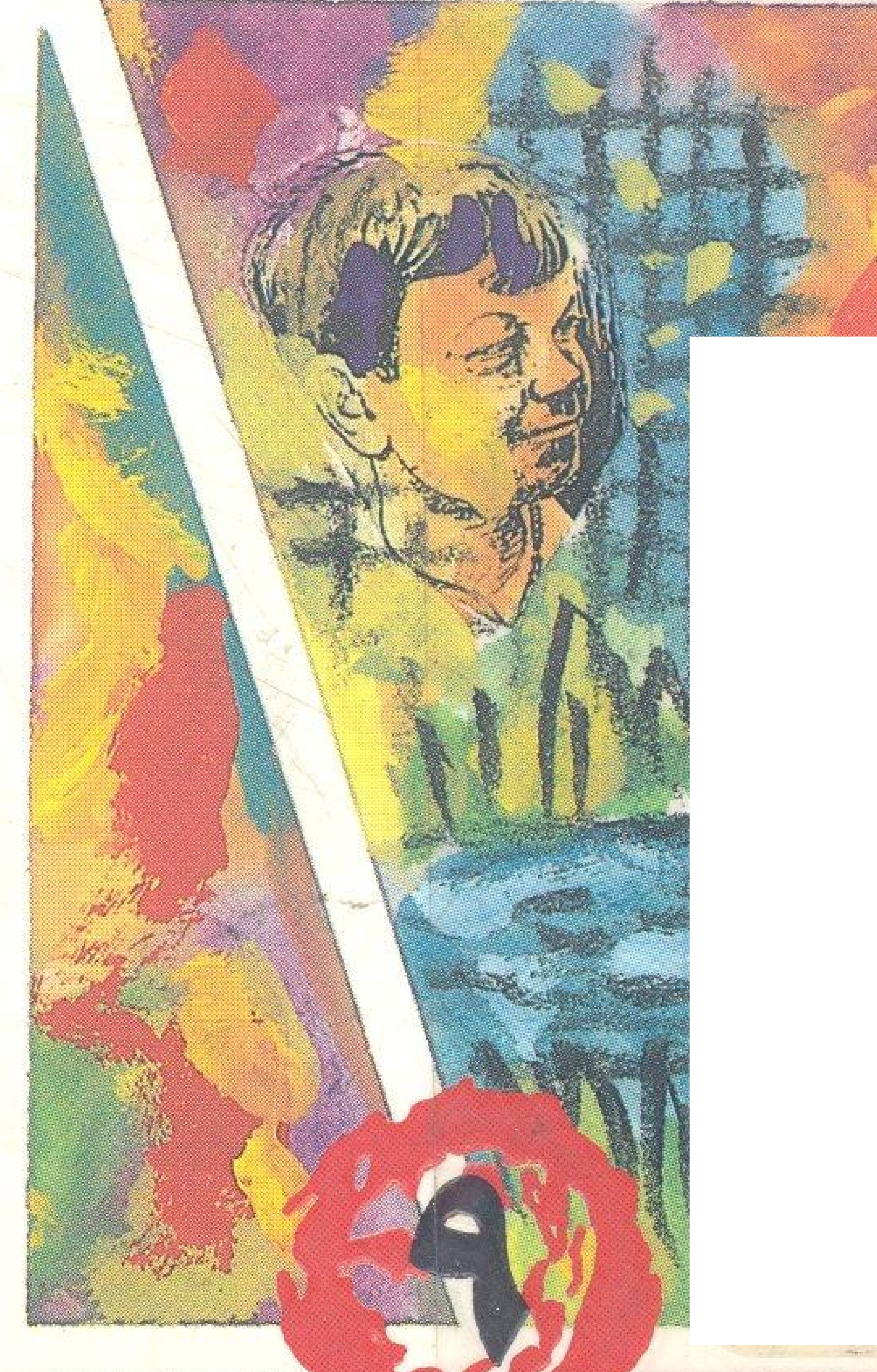
صالح مرسي

الأعمال الكاملة





السجين



٩



بإذن خاص من المؤلف، لمكتبة مدبولي الصغير،
للتوزيع خارج جمهورية مصر العربية)

٢/١/١٩٩١

الأعمال الكاملة



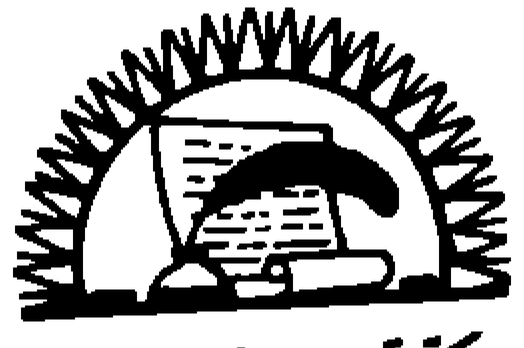
صالح مرسي



القاهرة

الطبعة الثالثة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



مكتبة مدبولي الصغير - ٤٥-البطل أحمد عبد العزيز - المهندسين - القاهرة

إهداء

إلى ولدي أحمد

بابا صالح

الفَصْــلُ الأوّل

لم يعد يعنيه الآن سوى أن ينال حريته ، كم انتـظر تلك السـاعـات طوال شهور الشتاء . . . يقولون له ابتعد عن شمس الصيف حتى لا تضر بك حرارتها ، وهم لا يعلمون كم يسعده لفح الشمس إذا كان طليقاً ، أو حتى نصف طليق يجلس في البلكـونة ويـرقب من بين قضبانهـا شارعهم الساكن، ويرى العيال وهم يعدون ويتصايحون خلف عربة الـرش عرايـا! .

يشرئب بعنقه ملتفتاً نحو اليسار ليرقب « بعضشى » وهـو يلعب عند الناصية بالكرة والأطواق وطوب الشـارع . . . أما هـو فلا يستـطيع ، ولن يستطيع أبداً !!! .

بالرغم من ذلك فالحمد لله . . . إنه ـ في هذه اللحظة بالذات ـ غير مجبر على شيء بعينه ، فهما يغطان في النوم منذ نصف ساعة ، وقبل أن يدخل أبوه إلى غرفة النوم ، وقبـل أن يكمل تجفيف كفيـه بعد أن غسلهمـا بعد الغداء ، قال له بوجهه الغاضب :

« النتيجة حاتظهر إمتى يا سيدنا الأفندي ؟ . . » .

لم يكن يدري فلم يرد ، وتمسحت نظراته ببلاط الصالة .

كم يحبه وكم يكرهه ، وكم يتمنى ألا تظهر النتيجة أبداً .

كم يحبه في بعض الأحيان أكثر من استغفر الله العظيم ذاته . . .

كم ليـال حلم فيها أنـه مات ، فـاستيقظ من النوم وظـل يبكي في الظلام وحده حتى مطلع النهار . . . الجسـد المُسَجّى والكفن الأبيض ، الصراخ والعويل ودموع أمه وأخواته وصوات الجيران ، النعش المحمول على الأكتـاف ، والصرخـة المحتبسة في حلقـه . . . الألم الطاغي عنـد المقـابر والشـواهد البيضـاء وأفواه النـاس تتحدث بـلا صوت ، وتخـرج الصرخة من حلقه كسكين يقطع لحمه : « بابا . . . بابا . . . » ثم السكون والظلام والدموع وأنفاس إخوته المترددة في انتظام ، يـرتجف جسده من البرد في عز الشتاء . ولا تكف يداه عن تدثير أخوته الراقدين بجواره فوق السرير الكبير ، وتجفيف العرق البارد المنهمر على جبينه ومن تحت إبطيه ويفيض به الحنان أحياناً فيقبلهم جميعاً وهم نيام ، ويحتضنهم ، وتـزداد دموعه انهماراً !! .

كم من ليلة استنـزف فيها البكـاء كل قـواه ، ويأبى النـوم على نفســه حتى يطمئن أن أباه ما زال حياً . . . سعلة يطلقها في الغرفة المجاورة ، أو حلم يدفعه للكلام والغمغمة ، وفي بعض الأحيان كان يظل صاحياً حتى يصحو أبوه . . . وقتها ، كان يندفع إليه بكل عذاب الليل الطويل ، فـلا يجد منه سوى العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحـاجبين. . . ثم :

« إيـه اللي مصحيك بدري كده يا سيدنا الأفندي ؟! »

ويصمت . . . ولا يستـطيع أن يقـول شيئـاً ، وهـل يقـول لأبيـه أنـه حلم بموته ؟! .

وفي بعض الأحيان كان يكرهه أكثر من الشيطان الرجيم نفسه ، وفي بعض الأحيان كان يدعو الله أن يأخذه ، وذات مرة كسر وراءه قلة دون أن يشعر به أحد . . . ألقى بها من البلكونة إلى الشارع حتى تنكسر ولا يعود

أبوه . . لكن القلة لم تنكسر !! . .

ينادي عليه « بعضشى » من آخر الشارع :

« **ويكا . . . يا ويكا . . .** » .

فيشهق ولا يستطيع الرد على نداء صديقه، ولو لبى النداء فسيسمع أبوه صوته ويستيقظ من نومه ، ولو إستيقظ في قيلولة الظهيرة هذه فالكارثة محققة . . . إنها ساعة القيالة التي تلعب فيها الشياطين بكل شيء ، حتى بعقل أبيه . . . مثلها مثل ساعة المغربية في رمضان عندما يضيق الخلق بالرجال ويتحول الأب إلى كف لو هوت فوق جبل لحطمته ! . .

« **ويكا !! . . . يا ويكا !** » .

لا . . . لن يردعلى « بعضشى » . . .

« **ويكا !! مش نازل بقى يا أخي ؟ . . .** » .

كم يحبه ويحب اللعب معه ، وكم يكره « حامدا » ويكره صوته الغليظ . . .

« **أصلك بتاع شوارع !** » .

طالما سمعها منهم واحتار . . .

هل خلقه الله حقاً ليكون صائعاً وضائعاً وابن شوارع مثل « بعضشي » ؟ .

هو يحب اللعب مع « بعضشى » رغم جلبابه القذر المفتوح الصدر حتى منتصف البطن ، ورغم شعره الهائش وقدميه الحافيتين وأنفه الذي يسيل باستمرار .

وهو لا يحب اللعب مع « حامد » رغم قميصه وبنطلونه ، ورغم أنه لا يسير في الشارع حافياً :

ماذا يحدث لو نجح « حامد » ورسب هو ؟! .

ترتعد ركبتاه رغم لسع الشمس الذي يكوي ساقيه النحيلتين ، ويتذكر أباه ، ثم يتذكر « حامدا » فيصيبه الغيظ . . .

سخنت رأسه فوضع فوقها كفه ، ثم راحت أصابعه تلعب في شعره الذهبي الطويل الذي يقول حامد أنه مثل شعور البنات . . . فلماذا خلقه الله أصفر الشعر ولم يخلق شعره أسود مثل بقية العيال ؟! . . . هل يكون لقيطاً وجدوه بجوار الجامع مثل ذلك الطفل الذي وجدوه في الأسبوع الماضي ؟ . . . وهل يكون ابناً لعسكري إنجليزي كما أكد الناس عندما حملوا الطفل إلى المركز ؟ . . . إن « تشارلي » لم يصدقه في البداية عندما أخبره أنه مصري ، أشار إلى شعره الأصفر وقال : « لكن شعرك أصفر !» . . . ولكم أوحشه « تشارلي » بالرغم مما حدث منه ، ولكم يكره السجّان ذا الشعر الأحمر ، ويمقت الكابتن ذا الشارب الغليظ . . . ومع الغصة التي خنقته لثوان . . . تمنى لو كسب هتلر الحرب !.

يجول ببصره في الشارع السابح في الصهد وتختال عيناه بشبح يعدو من ناحية السوق نحوه . . . فهل يكون هذا هو « حامد » ؟ .

« يا ابني أنا كل يوم الضهر . . . بابا بيقول نوم الضهر صحة . . . » .

كم حاول أن ينام بعد الغداء لكنه لم يستطيع . . وكم يكره النوم إذا غزاه الليل أيضاً . . .

« شوف أنا صحتي أحسن من صحتك إيزاي » .

وهو لا يحب « أبا حامد » أيضاً ، يشعر به وكأنه شيء مقرف ، ويقول عنه أبوه إنه بخيل لا يصرف مليماً ، وانه يحرم نفسه من كل شيء ويضع القرش فوق القرش حتى بنى بيتاً ، وأصبح عنده ملك ! .

أمه تملك بيتاً في وقف الإسكندرية . . . ورغم هذا . . . . . .

يتقدم الشبح بسرعة متوغلاً في شارعهم وهو يلح ، وإذا الشك تذيبه الحقيقة الواضحة ، فهذا « حامد » ينادي عليه بكل صوته الغليظ الخشن :

« أنا نجحت . . أنا نجحت يا بني . . النتيجة ظهرت وأنا نجحت ! » .

تحت البلكونة يتوقف « حامد » لاهثاً لكنه لا يكف عن الصياح . . .

« وأنا . . . أنا يا حامد ؟! » .

ينطقها قلبه الخالق باللهفة والخوف والقلق المدمر . . . يبول نقطتين على نفسه ويغص حلقه ثم يستطيع أن يتمالك وإن بردت أطرافه ، ويهوى فوق رأسه صوت « حامد » يملأ سكون الشارع ويوقظ ـ حتماً ـ أباه من النوم وأمه .

« بابا كان في المكتب وكلم البندر وعرف إني نجحت . . . ما تخلي أبوك يكلم البندر هو كمان . . . أنا نجحت ورايح اركب بسكليته ، تيجي معايا ؟! » .

يزداد خوفه مطعماً بالغيظ الشديد ، هو يعلم أن « حامدا » يسخر منه ، وهو لن يستطيع الخروج من البيت بدون إذن ولن يستطيع مشاركته

اللعب حتى يعرف النتيجة . . . هكذا « حامد » دائماً ، برأسه الكبير وأنفه الأفطس وملامحه الثقيلة وشعره القصير المدبب كالإبر . . . لماذا يبدو له دائماً وكأن وجهه كمربع يرسمه فكري أفندي على السبورة بالطباشير الأزرق ؟! .

جاءت إليه الحركة تسعى من داخل الغرفة فلابد أن أمه تغادر السرير ، يسيل عرقه ليغرق جسده ، وتتداخل الأشياء أمام عينيه ويترك « بعضشى » الطوق والكرة ويعدو متسائلاً :

« ويكا . . . ويكا . . . أنت نجحت ولا سقطت ؟! » .

ومن خلف أذنه الغارقة في لهب الشمس يأتيه صوت الباب وهو يُفتح ، ودبيب قدمي أمه الحافيتين فوق بلاط الصالة ، وصوتها اللاهث يتساءل في لهفة :

« إيه الحكاية يا ولد ؟! » .

جاءت الساعة فأين المفر ؟! .

« إيه الحكاية يا ابني ما ترد علي . . . انت يا ولد . . . ماترد يا ابني ! »

ويهتف « حامد » من الشارع :

« أصل أنا نجحت . . . بابا عرف النتيجة من البندر ! » .

كان ينتظر تلك اللحظة دون شك ، وما أن ظهرت أمه من خلفه حتى قال ما قال ثم انطلق يعدو مغادراً الشارع كله :

« ويكا . . . ما تقول بقى يا ويكا . . . نجحت ولا سقطت ؟! » .
انت يا ولد . . . ما تقوم يا ابني تشوف النتيجة ! » .

ماذا يفعل لو أنـه كان راسباً ؟! .

« ساكت كده ليه يا ولد . . . ما تفز تشوف انت عملت إيه ؟ » .

تصطدم عيناه ببطن أمه المنتفخ ، يجف لعابه ويلتهب حلقه وتتعالى في أذنيه أصوات صفير حاد ، ينزلق منديل أمه من فوق رأسها إلى الخلف وعنـدما مـالت عليه تـلاعب ثديـاها داخـل قميصها المهـدل ، تلح عليه بالسؤال فيقول بصوت يبدو له شديد البعد :

« ده عم أبـو فـرخـة هـو اللي ســأل في البنـدر وبيقــول النتيجـة ظهرت ! » .

تجذبه من كتفه فينهض مستسلماً وترتجف ركبتاه ، يداهمه إحساس جارف بأنه راسب لا محالة . . . كان ينجح دائماً دون أن يـدري كيف ، كان يلعب ويحب الشارع أكثـر من أي شيء آخر ، يغلقـون عليه الغـرفة بـالمفتاح ، ويمنعـه أبوه من النزول إلى الشارع ، ويستـذكر دروسـه في ساعات كان يشعر فيها أنه يختنق . . . ذله ومهانته يوم يصبح عليه ألا يفعل شيئاً سوى المذاكرة . . . كلمة كالسوط تطارده ليل نهار . . . وكان يذاكر في سـاعات ، ويلهـو بين السطور والصـور في سـاعـات أخـرى دون أن يفعـل شيئـاً سـوى استجلاب الملل . . . ورغم ذلـك كـان دائــاً ينجـح فكيف ؟! . .

غير أن هذه المـرة تختلف . . .إن اليوم هـو يوم الحسـاب ، ويوم الفصل ، بابان لا ثالث لهما . . . إما الجنة أو النار !! .

يسعـل أبـوه في الـداخـل فيبـول على نفسـه مـرة أخـرى لكنـه لا يغرقها . . .

« تعال هنا يا سيدنا الأفندي ! » .

يأتيه الصوت عبر الباب ، لا بد أنه الآن قد أشعل السيجارة وجلس في الفراش بلا طاقية . . . الجبهة العريضة اللامعة ، والعينان الحمراوان ، وثنية اللحم فيما بين الحاجبين . . . هذه علامة الشر ، ولأقل هفوة مهما كانت سيكون جزاؤه مهولا ، الصفع والضرب والركل والإهانة أمام إخوته والخادمة وسيسمع الجيران صراخه . . . مع الصيحة تدقدق أقدام إخوته مهرولة فوق أرض الغرفة ومعهم الخلدمة ، وتأخذ عيونهم في الاتساع محملقة فيه عبر الباب الموصل ما بين غرفة أبيه وغرفتهم وأفواههم فاغرة في انتظار ما سيحدث . . . يجذب أبوه نفساً من السيجارة ثم ينفث الدخان بصوت مرتفع . . . يحس بالإختناق وهو يسمع أمه تقول شيئاً ، يضيق صدره بما فيه فتتدفق دموعه بلا حساب ، يشتد غيظه لأنه يبكي فيزداد انهمار الدمع ، فيتقدم إلى الداخل بخطوات مترددة وتسبقه أمه دون أن تكف عن الحديث لحظة :

« يا اخويا قول له يروح المحطة يسأل . . . يا ندامه . . . جرى إيه يا افندي الولد « حامد » بيقول إن النتيجة ظهرت . . هو ابن أبو فرخة ينجح وابنك لا ؟ . . . جرى إيه يا ثفندي ما تقو . . . . » .

لماذا لا تنطق أمه اسم أبيه واضحاً ؟ . . . لماذا لا تقول « يا ثابت أفندي » بدلاً من ثفندي هذه التي تغيظه وتثير ضيقه ؟! لماذا لا تفعل مثل طنت جانيت وتنادي أباه يا ثابت فقط ؟! .

« تعالى هنا . . . قرب ! » .

تقذف به صيحة أبيه إلى الأمام خطوتين في الحال ، يهرب من العينين الحمراوين إلى جدران الغرفة وسقفها وأرضها وأثاثها . . . السرير الأبيض ذو الأعمدة اللامعة والستائر المسدلة . . . الدولاب والمائدة الصغيرة ، وتحت الشباك تقبع الكنبة بكسوتها البيضاء الكمونية . . . وتحت

قدمه السجادة المليئة بالنقوش والألوان الزاهية . . . وال . . .

« قال لك إيه زفت اللي كان بينادي عليك دلوقتي ؟! » .

« ده حامد يا بابا . . . بيقول إن النتيجة ظهرت ! » .

يحاول التماسك فيشد قامته ويمسح دموعه بظهر يده ، لكن صوته ينسلخ بالرغم منه ، وكان يعلم أن التحذير آت لا ريب فيه . . .

« أنا مش قلت لك ميت مرة محدش ينادي عليك في ساعة زي دي أبداً ؟! » .

يعاوده الإختناق فيملأ صدره بالهواء ولا يفتح فمه .

« بالك إنت حا تفلح ؟! . . . إبقى تعالى قابلني ! » .

« فال الله ولا فالك يا ثفندي . . . حقه مالكش حق يا خويا ! » .

لابد أن يحدث شيء ما . . . الكف النظيف والأصابع الغليظة والأظافر النظيفة . . .

لماذا لا تتسخ يدا أبيه ؟! .

« اتفضل غور على المحطة يا سيدنا الأفندي . . . تروح لعمك مينا وتقول له يكلم جوز عمتك في البندر ويسأل على النتيجة ! » .

« حاضر . . . » .

يقولها وهو يستدير مندفعاً إلى الخارج وقلبه يرقص بالخلاص والحرية ولو لدقائق . . . .

« تعالى هنا يا سيدنا الأفندي ! » .

وتتسمر قدماه عند باب الغرفة . . . ثم يستدير . . .

« **مستعجل على إيه ؟! »** .

« **أبداً والله يا بابا . . . دا . . . . . . »** .

لماذا يتحدث . . . وهل سيصدق أبوه كلمة مما سيقول ؟! .

« **ما تنطق ؟! »** .

« **يـوه يـا ثفنـــدي ، حقـه مـــا لكش حق . . . مش عـاوز يفـــرح بنجاحه ؟! »** .

« **ومين قال له انه حاينجح يا ست هانم »** . . .

لماذا تبدو أمه منتفخة البطن دائماً ؟! .

سهام وسامية ، وسامي ، ويقول أبوه إنها لو جاءتهم بولد هذه المرة فسيسميه علياً . . .

« **يوه بقى يا خويا . . . إنت حا تفول على الولد ؟ . . . بعد الشر عليه من السقوط يا خويا »** .

هو يعلم نتيجة حديثهما مقدماً . . . ليتها ما تحدثت . . .

« **إبقي تعالي قابليني يا ست هانم . . . وده وش نجاح ده ؟! »** .

لماذا تصمت . . . ولماذا يسري التنميل في ساقيه ؟! .

« **اتفضل يا بيه . . . اتفضل ! »** .

يستدير مبتعدا عندما تمسك بخناقه الكلمات الغاضبة :

يفقد رغبته في الحرية فجأة . . . يقول « حـاضر » ويسلم أمـره في

انهيار كامل . . . أصبح لا يريد الذهاب إلى المحطة ولا رؤية « بعضشى » ولا ظهور النتيجة . . .

« ما تتفضل يا سيدنا الأفندي . . . إمشي غور من هنا ! » .

لا يقول حاضر ويتمنى الموت لنفسه فتنسكب دموعه من جديد . . . يسود الصمت لثوان يجذب فيها أبوه نفساً ثم يقول بصوت خافت :

« انت فالح إلا في العياط ! » .

ويستدير في بطء ، يقطع الصالة دون أن يرى فيها شيئاً ، تغرق الدموع عينيه وترفض التوقف رغم كل ما يبذله من جهد، يمد يده ويفتح الباب وينحدر إلى السلم في خطى بطيئة وكلما هبط درجة يزداد بكاؤه، ويشتد نحيبه . . . وقد حيره أمر الله كثيراً . . . فلطالما دعاه وتوسل إليه وناجاه وصلى له فلماذا لا يستجيب ؟! .

في منتصف الطريق إلى باب البيت يتوقف ليمسح دموعه ، كان لابد أن يوقف كل هذا وبأي ثمن ومهما كلفه ذلك من جهد . . . فعند باب البيت ، سيسأله بعضشى ـ حتماً ـ عن سبب بكائه ؟! .

الفَصْـلُ الثَـاني

ترى . . . ما شكل الله ؟! .

لابد أنه يشبه أباه ، أو يشبه الملك . . . لماذا لا تستجيب السيدة زينب وسيدنا الحسين والسيد البدوي لتوسلاته ودعواته ؟ . . . زاره النبي في المنام منذ أيام وكان يرتدي ملابس بيضاء ، لكنه لم ير وجهه جيداً ، غطت ظلال النور الأزرق ملامح الوجه كله ، وكان النبي يقف قبالته في صالة البيت ويسراه مستندة إلى مائدة الطعام . . .

يمتلىء صدره بالهواء وتجف دموعه فيتنهد بارتياح ويداخله اليقين بأنه ناجح ، ولقد قال النبي هذا في المنام . . . تستقبله نسمة رطبة تهب عليه من شاطىء النيل حيث يصب شارعهم في ميدان البلدية الواسع . . . ويغسل الهواء وجهه فيشعر براحة شديدة ، ويعبر السوق بزحامه وناسه ويمشي حتى نهاية الشارع فيطالعه مبنى البلدية الهائل بلونه الأصفر . . . عندما ناداه « بعضشى »عند باب البيت صاح فيه دون أن يلتفت نحوه : أنا رايح المحطة . . . وعندما جرى نحوه أطلق لساقيه العنان محتجاً بأن أباه ينتظره . . . كان يرتجف من الخوف ساعتها . . . وعندما خرج من باب البيت إلى الشارع كان بيت النواجي المقابل لبيتهم خالياً من الواقفين في النوافذ أو على الأبواب ، حمد الله ووضع وجهه في الأرض . . . وعندما ابتعد وخفت خطوات « بعضشى » من خلفه ،

كـان الـطريق إلى النيـل خـالياً . . .فخفف من انــدفـاعــه ، وخـطرت بباله « أوظه » . . .

لماذا لم يخلقه الله في زمن آخر ؟! .

لماذا لم يخلقه في زمن النبي حتى يموت شهيداً . . . ألم يكن من الممكن أن يكون هو نفسه علي بن أبي طالب ؟ . . . الله قـادر على كل شيء وكان من الممكن أن يكوت هو نفسه الـ . . . . . .

« أسـتغفـر الله العظيـم . . . أستغفـر الله العظيم . . . أستغفـر الله العظيم الـ . . . . »

تخـطر « أوظـه » ببـالـه من جـديـد وهـو سـادر في الإستغفـار وعـد المرات فوق عقل أصابعه . . . عندمـا قبلها لأول مـرة قبلته هي الأخـرى وارتعب قلبه بذكر جهنم ، الزبانية والأسياخ المحماة والمعـدن المصهور في العيون والأفواه. . . الرعب والرجفـة والليالي السـوداء والأحلام الـرهيبة وخيالات الشياطين على الحائط . . . لكنه لم يكمل الثامنة عشرة من عمره بعد ، وما زالت أمامه سبع سنوات حتى يحاسبه الله على أفعـاله ، سبـع سنوات يستطيع أن يفعل فيها ما يشـاء ، ولن يكون قبلهـا حساب فلمـاذا يستغفر ؟! .

تنبسط حـواسه جميعـاً فيفتح ذراعيـه للميدان الـواسـع ويكف عن الإستغفار والعد . . . ينطلق سائراً وقد هدأت دقات قلبه وانتظمت أنفاسه ولربما مـات قبل أن يبلغ الثـامنة عشـرة فيدخـل الجنة بـلا حساب . . . يـلوك كل شيء في ذهنــه بــلا خــوف أو تــردد ، ويتمنـى لــو كــانت معه « أوظه ! » .

قـامت الحـرب منـذ عـامين وتـدفق المهـاجـرون على البلد من

الإسكندرية ، وكان لأمه أقارب فيهم . . . ورأى «أوظه » يوم سكنت عائلتها . في بيت عم إسماعيل المحولجي المجاور لبيت النواجي ! .

كأن السكة الحديد هي قمة الدنيا . . . كل الرجال يعملون فيها أبوه وعمه وزوج عمته وخاله وعم إسكندر وعم مينا . . . حتى أبو أوظه يعمل هو الآخر بالسكة الحديد . . .

يعبر الميدان فيطالعه النهر بمياهه الساطعة بلون الشمس ، يتوقف محملقاً في المياه ثم يقرر ألا يعمل في السكة الحديد عندما يحصل على الشهادة الثانوية الكبيرة ، تلوح له قطعة حجر فيركلها بكل قواه ثم يتساءل : هل تحبه« أوظه » كما يحبها ؟! .

سألته بالأمس وهما غارقان في تلال الرمال عند الشاطىء الآخر للنهر :

« حا تنجح وإلا حا حاتسقط يا اسمك إيه ؟! » .

كانت مستلقية بجواره على ظهرها ، وقد ابتلت ملابسها بالمياه وتعلقت بها الرمال ، القطرات تتساقط من شعره وشعرها ، ومن حولهما سكون البر الثاني والشمس تختفي قرب المغرب خلف النخيل ، على الناحية الأخرى من الكوبري كانت معسكرات الإنجليز بوجوههم الحمراء وشواربهم الصفراء الهائشة ، تذكر « تشارلي » ثم نسيه عندما قبلته « أوظه » في خده ، نظر في عينيها الخضراوين وابتسم ، تذكر المياه وجسده العاري وصياح أوظه وصدرها النابت ، وتمنى لو تعلّم السباحة حتى يلحق بها في المياه العميقة . . .

« لو أبوك شافنا دلوقت ، تعمل إيه يا اسمك إيه ؟! » .

« ولا يهمني ! » .

« كذاب ! » .

« ودين النبي والمصحف الشريف ولا يهمني ! » .

« ولما يضربك ؟! » .

« علقة تفوت ولا حد يموت ! » .

« أنا أبويا عمره ما ضربني !! » .

إكتشفت أمه ذات ليلة أن شعره مبتل فصرخت فيه :

« كنت فين يا ولد ؟! » .

« ماكنتش ! » .

لا يهمه صراخ أمه ولا عويلها ، وهو لا يبكي مهما ضربته . . .

« أوع تكون استحميت في النيل ؟! » .

وكادت الطامة الكبرى تقع لولا معجزة أنستها الأمر كله ، ثم جف شعره فأصر على الإنكار ! .

هل لابد أن يعود إلى البيت ؟! . . . وهل لابد أن يذهب إلى المحطة ويسأل عن النتيجة ؟! ومهما حدث فهو لن ينسى المرة الأولى أبداً . . .

القبلة المختلسة خلف الباب والتقزز والقيء والقرف وضحكات « بعضشي» . . . كان يوماً من الأيام النادرة التي ابتسم له فيها أبوه وأعطاه تعريفة بدلاً من مليمين . . . وعندما طلب منه الإذن بالخروج ساعة العصر وافق دون زجر لكنه أمره بالعودة مع أذان العشاء ، كان الإمتحان قد انتهى

منذ أيام ، ومرت بنفسه سحابة ضيق لوجود شرط يحد من حريته ، تمنى لو لم يطلب منه أبوه ألا يتأخر في الشارع ، تمنى أن يتركه مرة ليفعلها دون أمر ، لكن بسمة أبيه أسعدته يومها وبددت من نفسه كل ضيق . . . غادر البيت سعيداً ويده تقبض على التعريفة في حرص داخل جيبه . . . وقف بالباب لحظات وكانت « أوظه » تجلس على عتبة بيتها خطر « حامد » بباله فأحسن بفتور وقلب شفتيه كما يفعل أبوه . . . كلما انتابه القرف ، وابتسمت له « أوظه » فارتفع الدم إلى وجهه والتهبت أذناه . . . كانت حافية القدمين وحذاؤها ملقى بجوارها ، شعرها لم يمسه المشط لكنه أحبه وهو يسيل على خديها وظهرها كأسلاك ذهب معفرة بالتراب ، لم تكن ترتدي جلبابا ، بل فستاناً تحليه نقوش وفوق النقوش عشرات البقع . . . أحس بالسعادة لكنه لم يرد على إبتسامتها ، سددت إليه عينيها فأشاح عنها والخجل يتملكه . . . لكنه تمنى لو جاءت وتحدثت إليه !! .

طالما رآها من بين قضبان النافذة دون أن يجرؤ على الحديث معها ، كانوا يغلقون عليه الغرفة الحمراء بالمفتاح حتى يذاكر ، فوجد لنفسه مكاناً عند قاعدة النافذة يطل منه على شارعهم بكل ما فيه . . .رآها من بين القضبان يوم جاءوا ، وابتسمت له ، لكنه هرب عندما رأى لون عينيها لون توت عنخ أمون بوجهه الذهبي في كتاب التاريخ . . .لماذا لم يخلقه الله توت عنخ أمون نفسه ؟! . . ورآها بعد ذلك في الشارع وفي بلكونة بيتهم وكانت تصيح به أحياناً فلا يرد . . . وعندما لعب معها «بعضشى » ذات عصر أصابه الضيق وأغلق الشباك وانكب على كتبه ، لكنه لم يقرأ فيها حرفاً . . . وعندما فتح أبوه عليه الباب ، ودعاه لطعام العشاء . . . إكتشف انه شبعان ، ولن يأكل ! .

كانت يده لا تزال تقبض على التعريفة في جيبه حتى بلله العرق ،

وإندفع «بعضشى » بطوقه من عند ميدان الكنيسة وهو يتصايح :

« ويكا ! . . . يا ويكا ! » .

ولم يرد على « بعضشى » وخفق قلبه عندما نهضت « أوظه » لاستقباله ، حملت حذاءها في يدها وخبت في تراب الشارع وطينه بقدمين حافيتين . . . وكانت عيناها ما زالتا تنظران إليه . . . فماذا يفعل ؟! .

« تاخد لفه بالطوق يا ويكا ؟! » .

توقف « بعضشى » أمامه وهو يلهث . . .

« انت خلصت إمتحان صحيح ؟! » .

هز رأسه ولمح عينيها وهما تبرقان . . .

« هيه النتيجة حتظهر امتى !؟ » .

اقتربت « أوظه » منهما دون خجل . . .

« الولد حامد بيقول انك ساقط ! » .

ولم يرد عليه ولم يغضب ، وأصبحت« أوظه » تقف قبالته وعينيها في وجهه . . .

« تديني لفه يا بعضشى ؟! » .

قالتها لبعضشى لكن عينيها لم تفارقانه . . .

« بكام ؟! » .

قالها « بعضشى » وهو يلتفت إليها ، واحمر وجه « أوظه » فدق قلبه

بعنف . . . واقترب منها بعضشى وهو يقول بصوت عال وسط الشارع وبلا حياء :

« اللفه ببوسه ! » .

شهق . . . ثم ابتلع لعابه ، ثم قفز «بعضشى » فوق درجات السلم ثم دلف من جواره إلى ما خلف الباب ، تسمر في مكانه واحتبست أنفاسه وانهمر العرق غزيراً على جبهته وأحس أن الدنيا تدور به عندما مرت من جواره «أوظه » . . . ما كادت تدلف هي الأخرى حتى أمالت نحو «بعضشى » خدها وهي تنظر إليه باسمة ، وقبل أن يميل عليها «بعضشى » جاشت نفسه بقيء مزق أمعاءه ، انفلت يعدو بكل قواه مغادراً الشارع بلا كلمة ، داهمة القيء عنيفاً فاقترب من جدار لكنه لم يتوقف عن العدو ، واستغفر الله وهو في الطريق إلى شاطىء النهر . . . وكان جوفه خالياً من الطعام !! .

ترى . . . هل ينجح ؟! .

يعبر الميدان الواسع ويترك وراءه مبنى البلدية ليصبح بحذاء النهر تماماً . . . الشمس في باطن السماء ترسل شواظها ليلهب كل شيء بالحرارة ، يمتد النهر متوغلاً في قلب الحقول إلى حيث يصب في البحر الأبيض المتوسط . . . طالما سار في هذا الطريق عازماً على السفر حتى شاطىء البحر ثم فيما وراء البحر حيث بلاد بره . . . هناك حرب وأبوه يحب هتلر ويدعوه بخاله فهو يعطي الإنجليز دروساً في القتال ، لكنه لا يحب هتلر وإن كان يتمنى له أن يكسب الحرب ويقتل الساجن ذا الشعر الأحمر والكابتن ذا الشارب الغليظ ، ولن يهتم إذا ما قتل معهما تشارلي . . . على اليسار يمتد الطريق حتى بداية الكوبري ، وعلى البعد تبدو معسكرات الإنجليز والهنود السيخ والأفريكان السود في البر الثاني ،

في المسافة ما بين البلدية وبداية الكوبري حيث العسكري بمدفعه داخل الطابية الاسمنت يقع المنتزة والكازينو الذي يجلس فيه الأعيان وضباط الإنجليز والخواجات . . . رأى أباه ذات مرة يجلس في الكازينو مع أصدقائه فأحس بفخر شديد ، قبل المنتزه هناك مبنى الإسعاف ، وأمامه خريستو وأجزخانة برعي وصالون فاروق ، ثم يقطع الطريق من بعده شريط السكة الحديد الموغل بين المنازل حتى مصنع الصابون . . .

الشارع خال والميدان ساكن ولا أحد هناك غيره . . . يتمنى ألا تظهر النتيجة أبداً ، ويتمنى لو مات «حامد » قبل أن يجيء بالنبأ . . . ترى ، ماذا يقول أبوه الآن ؟ . . . وماذا يفعل به لو رسب ؟! .

يداهمه اليأس ويغزوه خوف مدمر فيميل بنفسه نحو الشاطىء عند قمة السلم الخرساني الهابط من الشارع إلى سطح المياه يتوقف . . . هنا قابلته «أوظه » بعد أن ترك لها الشارع يوم القبلة المختلسة خلف الباب . . .

اثنان يخيفانه ويحيرانه . . . الله ، أبوه . . .

لماذا لا يفعل الله شيئاً من أجله ؟ . . . طالما توضأ وصلى وصام رمضان كاملاً لكن شيئاً لا يحدث . . . والحرب لم تقف . . . وهتلر لم ينتصر . . . فلماذا ؟! .

« من هنا للمحطة ، ومن المحطة لهنا . . . فاهم يا سيدنا الأفندي ؟! » .

تترامى إلى الميدان ضجة قطار يعبر الكوبري في غير موعد فيوقن أنه لابد قطار الجرحى ، الدماء والأربطة والسيقان المبتورة والوجوه المحروقة . . . ويوم رأى رجلاً يغادر القطار صارخاً وأمعاؤه تتدلى ، لم ينم

طوال الليل ، وظل أبوه يحدث أمه بما حدث حتى أذّن الفجر . . . ولو ظهرت النتيجة وكان ناجحاً فسيأتي إلى هنا وحده في سكون . . . ويوم جاءت «أوظه» لتلحقه ، كانت أمعاؤه تتلوى ، وكانت رائحتها عفنة . . .

« من هنا للمحطة ، ومن المحطة لهنا . . . فاهم يا سيدنا الأفندي ؟! » .

الطربوش المائل إلى الخلف والجبهة المقطبة تعني شراً لا خلاص منه ، ما الذي جعل أباه يتزوج أمه ؟! لو لم يفعل ذلك لما ولد ولما كان له وجود ولما جاء به الله إلى الدنيا . . . سأل أمه ذات مرة سؤالاً كهذا . . . فصرخت في وجهه مرتعبة :

« إنت اتجننت يا ولد ؟! » .

« يعني يا ماما لو بابا . . . يعني يعني يعني . . . إتجوز واحده ثانية . . . وإنتي إتجوزتي . . . يعني يعني مثلاً . . . يا ماما واحد تاني كنت حابقى أنا ابن مين ؟! » .

لم تشف غليله كعادتها وتركته منذرة بإبلاغ الأمر إلى أبيه . . .

« شفت ابنك يا ثفندي بيقول إيه ؟ . . . سمعت إيه اللي جرى لعقل الولد . . . قال يا أخويا لو يعني بعد الشر . . . . » .

النظرات الغاضبة والعينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين وسيل الشتائم والصفع والركل . . . لكن المشكلة ظلت تحيره . . .

« إزيك يا اسمك إيه ؟! » .

هكذا جاءته في ذلك اليوم بعد أن تركت «بعضشى» والطوق والقبلة المختلسة خلف باب البيت . . . نظرت بعينيها الخضراوين في عينيه فدق

قلبه وأحس بالخجل والقرف ، حذاؤها في يدها وقدماها حافيتان وعلى وجهه بسمة لم يردها ولكن لابد أن الله أراد . . .

« إزيك يا اسمك إيه ؟! » .

« الله يسلمك ! » .

جلس فوق سياج السلم غاضباً وأعطاها ظهره وراح ينظر إلى المياه . . . وفي البر الثاني كانت أشجار النخيل تشبهه الرسوم في كتاب الجغرافيا . . .

« تيجي نلعب عروسه وعريس ! » .

جفل . . . قفز إلى الأرض وارتد خطوة إلى الخلف وحملق فيها والذعر يتملكه . . . ماذا لو سمعها أحد وأخبر أباه . . . ماذا لو علم « بعضشى » أو « حامد » أو رآهما أحد . . .

« مالك يا اسمك إيه . . . إنت مخاصمني ؟! » .

جف حلقه وأحس بأذنيه تلتهبان بالدماء والحرارة معاً . . . ضحكت «أوطه» وهي تقترب منه وتلتصق به ففر إلى قاعدة السلم الصخري فجلست بجواره وظهرها إلى الميدان . . .

« إنت مخاصمني يا اسمك إيه ؟! » .

« أبداً . . . » .

هز رأسه وأراد الله أن يبتسم فابتسم دون أن يريد ، هبت نسمة عصر وتطاير شعرها إلى الخلف وأفلتت فجأة من جواره لتهبط السلم عدواً نحو المياه . . .

« حاسبي أحسن تغرقي ! » .

لم تلتفت نحوه عرت ساقيها وهبطت في النهر فنهض صائحاً وقد تملكه الخوف :

« اطلعي أحسن حد يشوفك ويقول لمامتك ! » .

خاضت في مياه النهر بساقيها وقذفته برذاذ المياه ثم استدارت نحوه وهي ترفع ثوبها فشهق بالذعر الذي اجتاحه فجأة . . .

« تيجي نستحما في البر الثاني يا اسمك إيه ؟ . . . تيجي نعوم ؟ » .

صاح فيها بكل صوته ساخراً :

« يعني انتي تعرفي تعومي يابنتي ؟! » .

« تعالى البر الثاني وأنا نعلمك ، أخويا علمني في البحر المالح . . .

« تعرف تعوم في المالح ؟! » .

« إحنا لنا قرايب في إسكندرية ! » .

صعدت السلم عدواً وتساقطت المياه من ساقيها وانحنت لتلتقط حذاءها ومدت له كفاً مبتلاً وصاحت فيه :

« تعالى . . . تعالى نروح البر الثاني !! » .

أراد الرفض لكنه أعطاها يده فسحبته خلفها وهي تعدو ، فتبعها طائعاً . . . كانت يدها رطبة طرية فأحس براحة لملمسها ، قطعا المسافة

إلى الكوبري عدواً ثم اندفعا متجاورين في الممر الضيق وكانت تقول بصوت لاهث :

« إحنا قرايب ! » .

جذب يده من يدها وحملق في وجهها غير مصدق . . .

« أمي قالت كده . . . ما احنا كمان من الأنفوشي ! » .

هو لا يعرف من عائلة أمه سوى ذلك الخال بعينيه الزرقاوين وطربوشه اللامع وجلده الأبيض ودفاتره الهائلة التي توقع فيها أمه كلما جاء ليعطيها نصيباً من الوقف . . .

« عمي محمود يبقى متجوز خالة أمك ! » .

« ما هو يا عبيط عمي يبقى ابن خال أمي ، وأخته كمان متجوزة ابن خالتي زهرة ، وحتى وإحنا جايين في القطر أبلتي جمالات قالت لنا نسلم على أمك ! » .

لم يفهم شيئاً مما قالت وصمم على أن يخبر أمه بالأمر كله وعاجلته « أوطه » ؟! . . .

« مش أمك اسمها سيدة ؟ » .

« وانتي مالك ! » .

أحس كأنها تعريه وارتد بعيداً عنها ، لكنها ابتسمت في وجهه :

« مالك واقف كده . . . ما تمد ! » .

سار بجوارها دون أن ينطق حرفاً ، لم يفهم شيئاً مما قالت لكنه أحس فجأة أنها لابد أن تكون قريبته بالفعل . . . هل يستحم في مياه النهر

كما يفعل «بعضشى » والحفاة وذوو الجلاليب الممزقة ؟ لو علم أحد بالأمر لكانت مصيبة هو يعلم تماماً ماذا بعدها ، الضرب والركل والإهانة أمام الخادمة وأخوته وسيسمع الجيران صراخه . . . توقف عن السير عند منتصف الكوبري فاستدارت نحوه «أوظه » متسائلة :

« مالك يا اسمك إيه ؟ . . . وقفت ليه ؟ » .

صمت قليلاً واستند إلى السياج وتعلق به وراح يرقب مياه النيل المتدفقة بعين غائبه ، تسلقت «أوظه» سور الكوبري بجواره وحذاؤها مازال في يدها مدلى في الهواء بلا مبالاة ، ماذا يحدث لو أنه دفع الحذاء من يدها فهوى إلى المياه ؟! . . . التصقت به ومالت عليه فلامس شعرها جانب وجهه وطرف عينه . . . عادت تسأله عن سر توقفه فلم يرد لثوان ثم قال :

« الطراوة هنا حلوة ! » .

« الطراوة تحت أحلى يا عبيط ! » .

« أنا معايا تعريفة . . . مصروفي ! » .

« تعالى نستحمى ! » .

« شعري يتنكش ! » .

« معايا مشط . . . تاخد ؟ » .

قفزت من فوق السياج ودست يدها في جيب فستانها وقدمت له مشطاً تكسرت أسنانه فأحس بالضيق . . . هل يمشط شعره بمشط كهذا ؟! .

« المشط ده وسخ ! » .

« اغسله في الميه ! » .

« هدومنا تضيع ! » .

« مفيش حد تحت . . . حتى شوف ! » .

أشارت نحو شاطىء الرمال الخالي وكان يعرف أنه خال قبل أن تشير ، كانت تريد وكان يرغب فلم يجد بداً من التسليم :

« بس حد يشوفنا ! » .

« ماتبقاش عبيط يا اسمك إيه . . . تعالى . . . تعالى . . . تعالى ! » .

أخذت تجذبه خلفها وهي تعدو ، فترك نفسه لها مختاراً ! .

« قاعد في الشمس كده ليه يا ابني ؟ » .

ينتفض مستديراً نحو عم سعداوي ساعي مكتب التليفون ، يسقط قلبه ويضطرب ويوقن أن أباه سيعلم بالخبر ، انه تلكأ ، ولم يذهب من البيت إلى المحطة ولم يعد من المحطة إلى البيت ، يطالعه وجه الرجل المكتنز والمنديل الذي يغطي رأسه والطربوش المتآكل . . . يملأ صدره بالهواء ويتمتم بكلمات لا يعرف لها معنى ، ويزداد إحساسه بالإختناق . . . ويفكر : ألا يستطيع الهرب يوماً إلى حيث لا يعرفه أحد ؟! .

الفصل الثالث

من خلف عم سعداوي ودراجته تبدو أجزخانة برعي مغلقة الأبواب وخلف باب صالون فاروق يجلس عم بيومي بمعطفه الأبيض وقد تدلت رأسه فوق صدره وراح في سبات عميق ، وكان مقهى خريستو شبه خال ليس به سوى رجلين أو ثلاثة ، حتى زكي الكرسون ذو الجاكتة البيضاء كفت نداءاته واختفى في الداخل . . . أما بار مانولي فهو مغلق الأبواب ولا يأتيه الإنجليز إلا ساعة العصر ، وتشارلي لا يجلس في هذا البار ويفضل البار الآخر المقابل لبيت عم ألبير وطنط جانيت ، وسيدخل تشارلي النار حدفاً ولن يدعو له الله لكي يدخله الجنة وإذا رآه وناداه فلن يرد عليه وسيبصق على الأرض في المرة القادمة . . . تحت شجرة مبنى الإسعاف يقف بائع البطيخ بعربته المكدسة ، والميدان الواسع خلا إلا منه ومن عم سعداوي . . . وكل الأبواب مغلقة ، ليس سوى السماء تبدو له بلا أبواب . . . فقط ، كيف يصعد إليها الإنسان ؟! .

« إنت نجحت والا سقطت يا ولد ! » .

« ما تقولش يا ولد ! » .

يقولها بجفاء وهو ينهض من مكانه هرباً من عيني الرجل المنتفختين ، يخلع عم سعداوي طربوشه ويجذب المنديل من فوق رأسه ليجفف به العرق السائل مبتسماً . . . هو يعلم أنه يستطيع إيذاءه . . .

« أصل بابا قال لي أروح أشوف النتيجة ! » .

« بيقولوا ان ابن أبو فرخة أفندي نجح . . . وإنت عملت إيه ؟! » .

« ما هو بابا قال لي أروح أشوف النتيجة ! » .

« وهية النتيجة حا تظهر هنا ؟ . . . ما تروح لعمك مينا في المكتب وتقول له يسأل جوز عمك في البندر ! » .

« ما هو بابا قال لي . . . . » .

« مش عاوزني أقول لك يا ولد . . . إنت اللي لعبى ومش عاوز تسأل ! » .

« أبداً والله أصل . . . . » .

« حاقول لك ياسعادة البيه بس إنت انجح وطوّل رقبة أبوك ! » .

« ما هو أنا . . . . » .

« وكنت واقف هنا ليه ؟ . . . إنتوا وراكم إلا وجع القلب . . . » .

« مانا رايح يا عم سعداوي ! » .

« وإيه اللي مقعدك في الشمس الحامية دي ؟! » .

« أصل بابا قال لي . . . . » .

« الله يكون في عونه . . . الراجل بيشقى علشان يربيك وإنت بتلعب ! » .

أصبح الرد لا يعنيه ، يصمت ويمضي في الطريق دون كلمة ودون نظرة إلى الرجل الذي يعيد المنديل إلى رأسه ثم يضع فوقه

الطربوش . . . بضع خطوات وإذا الرجل يمضي من جواره فوق الدراجة دون أن يدعوه للركوب وكان يحدث نفسه بصوت عال :

« وهية النتيجة حا تظهر إمتى ؟ . . . إنتوا شاطرين إلا في اللعب ؟ إنتو وراكم إلا وجع الدماغ وتعب القلب واللقمة المرة ؟! . . . ما كلكم كده . . . أعوذ بالله منكم . . . من . . . العيشة ! » .

وإذا كان الأباء يكرهون الأبناء ويتعبون من المصاريف والتربية فلماذا أنجبوهم من البداية . . . وإذا كبر وإذا تزوج « أوظه » فلن ينجب أطفالاً حتى يريح نفسه من المصاريف ووجع الدماغ ، قال أبوه ذات ليلة أن عم ألبير مرتاح لأنه بلا أولاد . . . وشهقت أمه قائلة أن طنط جانيت تبكي . . . فلم يصدقها . . . يختفي عم سعداوي بدراجته عن عينيه فيطلق لساقيه العنان حتى يعوض من الوقت ولو ثوان ، يقفز درجات السلم ويصعد إلى رصيف المحطة وينثني إلى اليسار ويندفع نحو مكتب التليفون. . . الرصيف خال وعربة القطار القديمة على الجانب الآخر من المحطة، بداخلها بيته الذي بناه مع «أوظه» فمتى يعودان إليه، عند منتصف الرصيف يقع مكتب التليفون والتلغراف بجواره مكتب المعاون ثم مكتب ناظر المحطة ذي الكرش والشوارب الرمادية والضحكة المجلجلة والوجه السمين ، عند نهاية الرصيف يقوم البوفيه الذي تملكه ماريكا ذات النظارات السميكة ، صرخت فيه يوم رأته يدخن سيجارة خلف الطابية وأقسمت أن تخبر أباه بالأمر لكنها لم تفعل . . . هنا يعرفه طوب الأرض جيداً ، وأقل هفوة منه كفيلة بأن يتناقلها الناس لتصل إلى البيت قبل أن يدخله . . . وفي البوفيه لابد سيجد حضرة الناظر بطربوشه الطويل والمنشة الفاخرة والنظرات المرعبة ، قد يكون الناظر موجوداً وعليه أن يهندم قميصه وشعره ويمسح العرق المتصبب على وجهه وأن يسير

الهوينا . . . وفي أي مكان يذهب إليه سيجد حضرة الناظر الذي لا تخفى عليه خافية ، على المحطة وفي الأسواق والمنتزه على السواء ، عيناه الحادتان ترقبان التلاميذ حتى ولو كانوا في بلدة أخرى ، صوته الثاقب يفرقع في الأذن . . . كضربات سوط لا يني عن العقاب لسبب وبلا سبب ، وفي المدرسة خيرزانته التي أطلقوا عليها اسم « الحاجة » . . . ويل للذين يقعون يوماً تحت لسعاتها !!.

يخفف اندفاعه نحو المكتب ويرقب البوفيه بعين متوجسة فلا يعلم الغيب إلا الله . . . يتساءل بينه وبين نفسه إن كان الناظر قد جاء بنفسه ليعرف النتيجة . . . ولا يطول التساؤل . . . فقد برز الناظر من داخل البوفيه كالقضاء وعليه أن يستسلم ، سابت مفاصله وأيقن أن فيه شيئاً لله وإلّا . . . فكيف فكر في الناظر فوجده ، وكيف يظهر كل إنسان يخطر بفكره ؟! .

تتسمر قدماه في الأرض ويكاد ينثني ليختبىء خلف المكتب لولا أن دوى في سكون المحطة صوت الناظر يزعق :

« يا ولد . . . إنت يا ولد إنت هناك . . . تعالى هنا ! » .

لماذا كتب عليه أن يطيع كل أمر يصدر إليه . . . يتمنى النجاح بكل قلبه وينذر لله أن يصوم عاماً كاملاً ، فقط . . . يبعد عن الشارب الأبيض الهامش ، والعينين النفاذتين ، والوجه العابس دائماً ، والصوت الثاقب يأمر فلا مفر من الطاعة . . . عند المكتب يلمح بجانب عينه عم إسكندر يقف في الداخل قبالة الباب . . . ويحملق الناظر فيه غاضباً لسبب لا يدريه ، ولابد أن عم مينا يقبع الآن أمام آلات التلغراف ذات النقرات الغامضة . . .

« بتعمل إيه يا ولد في ساعة زي دي ؟! » .

« أبداً والله يا حضرة الناظر . . . ده بابا اللي قال لي آجي أشوف النتيجة ! » .

« ومستني إيه ؟! » .

هو الذي أوقفه وهو الذي يسأله عن سبب انتظاره . . .

« إيه اللي موقفك كده ؟ . . . اتفضل ادخل قدامي ! » .

تلسعه شعيرات المنشة على ساقيه عندما يصيح عم اسكندر من الداخل :

« أهلاً حضرة الناظر . . . دي خطوة عزيزة ! » .

من خلفه يأتي الصوت الحاد يلسع أذنيه :

« إزيك يا اسكندر أفندي . . . هوه ثابت أفندي مش هنا والا إيه ؟ . . . فين أبو الولد العفريت ده ؟! » .

يدخل المكتب مكبلاً بجريمة لا يعرفها فماذا يفعل وماذا يقول ؟ وصفه بالعفريت يعني انه ارتكب ذنباً واستحق العقاب . . . فما هو ؟

« يا أهلاً يا مينا أفندي . . . سعيدة عليكم . . . يا ترى العفريت ده أخباره إيه ؟ . . . ولد زكي ونبيه بس شقي عفريت ، جن مصور بيشاكل طوب الأرض ! » .

يستند ظهره إلى الحائط وتهب من الباب نسمة تجفف وجهه فيتنفس الصعداء . . .

« تصور يا اسكندر أفندي ، كنت طالع من البوفيه لقيته بيلعب على

الرصيف ، في ساعة زي دي ، في القيالة والزمته اللي العفاريت بتنام فيها ؟! » .

رغم أن حضرة الناظر كاذب إلا أنه يقول الحق قطعاً ، فأين المفر ؟ . . . وإذا كانت العفاريت تنام في مثل هذه الساعة ، فلماذا لا ينام هو ؟ ! .

« لولا ذكاؤه ونباهته أنا ما كنتش قعدته في مدرستي يوم واحد . . . ده بيشاكل طوب الأرض إنما نبيه . . . ولولا صغر سنه ما كنتش قبلته ولا بعشرة جنيه مصاريف ! » .

الموال المعاد والحديث المكرر ولابد من ذكر الحادثة . . .

« أنا مانساش يوم ما كان حايضيع عين الولد حامد ابن أبو فرخة أفندي ! » .

مضى عام ومازال الناظر ـ مثل أبيه ـ كلما جاءت السيرة حكى الحكاية . . . الفصل والسبورة ومسائل الحساب والتجار والباعة والأرباح والخسارة . . . وفكري أفندي يعدل نظارته ويهدد :

« من الآن فصاعد ، أي تلميذ يتكلم حاوديه لحضرة الناظر ! » .

القلم المسنون في يد حامد الممدودة من تحت التختة ، النخسات المتتالية في فخذه وجنبه ولا يستطيع إلا أن ينتفض بالألم . . . يضحك حامد ويضحك العيال من خلفه ومن أمامه وتهمس الأصوات في أذنه :

« خيبة يا خيبة ! » .

ولو ضرب حامد أو نخسه بالقلم لصرخ شاكياً للأفندي والمصير

بعـدها تحـدده « الحاجـة » وقدمـاه العاريتـان ولسع البـرد مع الضـربات الموجعة ، ولو صرخ هـو لنخسات حـامد لعـايره العيـال في الفصل وفي الحوش وفي الطريق صائحين :

« يابو دمعة زي البنات ! » .

حيطان الفصل العالية والسبورة السوداء وخريطة وادي النيل بترابها ولونها البـاهت . . . نخسات القلم تؤلمـه فيرتجف وتخـرج من فمه آهـة يسمعها الفصل كله . . . ويلتفت الأفندي منذراً :

« إنت يا ولد إنت هناك . . . دي آخر مرة ومن الآن فصاعـد اللي حايلعب في الحصة أو يتكلم حايروح لحضرة الناظـر ويتمـد في طابـور الصبح ! » .

يستدير الأفندي فتعلو الهمسات في أذنه :

« خيبة يا خيبة ! » يضحك حامد ثم يركله من تحت التختة وعليه أن يحتمل ، يدق الجرس ويخرج الأفندي ويملؤه الغضب والكل يحيطون به صارخين مولولين : « خيبة يا خيبة ! » .

« ودين النبي لانا قايل لحضرة الناظر في الـطابور . . . يـا بليد يـا كسلان ، يا بو صفر ! » .

بسمة حامد وأسنانه الكبيرة ولسانه الطويل وحـاجباه وصـوته الغليظ يخرق أذنيه :

« أنا عارف اسم أمك ! » .

« وأنا كمان عارف اسم أمك ! » .

« أمك اسمها سيدة ! » .

« وانت أمك اسمها زينب . . . وأبوك أقرع ! » .

ويلتهب صدغه بالصفعة المغيظة ويصبح العيال من حوله :

« بي بي بي. . . خيبة يا خيبة ! » .

الإختناق والدوار والغيظ وكف حامد والغضب الذي ملأ صدره . . . صفعة وركلة ويجري العيال إلى باب الفصل فيغلقونه . . . الوجه المربع بالطباشير الأزرق على السبورة وزجاجة الحبر في يد حامد وعيناه الضيقتان والحبر السائل فوق ملابسه ويعم الصمت سحابات الغيظ تخنق صدره وماذا يقول لأبيه وأمه وقد صبغ الحبر بذلته الجديدة وشوهها إلى آخر العمر، نظرة منه إلى النافذة وحوش المدرسة الخالي بأشجاره العارية من الورق ، تمتد يده إلى زجاجة الحبر فتسقط يده فوق قلمه المطروح فوق التختة ، وجه حامد يهوي فوق وجهه وسن القلم المشروع ويده تهوى فوق الوجه لينغرس السن في العين اليسرى . . . الصرخة المدوية والدماء المتفجرة من العين وصيحات العيال المذعورة والسقف الهابط على الأرض ، والأرض الصاعدة إلى السماء . . . والباب المفتوح في لهفة . . .

« أنا ماشفتش ودين النبي يا أفندي ! » .

« هوه الي ضربه بسن القلم في عينه ! » .

اللهفة والقلق والأقدام الجارية والقطن المصبوغ بالدم وبكاء حامد والعيال . . . هرولة الشيخ بسيوني وكفه القابض على رسغه والصفعة والدفعة والسؤال والجواب وعينا الناظر المحملقتان في وجهه . . . لا ضرب ولا ركل ولا شتائم . . . فقط :

« هات لي ولي أمرك . . . اتفضل روح بيتكم . . . أنا مش عاوز

مجرمين في المدرسة بتاعتي ! . . . » .

الـطريق الطويـل المترب ؛ ورذاذ المـطر المتساقط وبكـاء حـامـد بجواره ، ولا كلمة . . .

عند بيت حامـد تسمرت قـدماه في الأرض عنـدما طقت أم حـامد بالصوت وتجمع الناس في الشـارع وتتالت الأسئلة وحملقت فيـه العيون وحاصره العذاب ولم يصدق أحد أن حامداً هو البادىء .

« ولولا ستر ربنا يا اسكندر أفندي كانت عين الولد راحت ! » .

يسند رأسه إلى حائط المكتب ويجيش صدره ويفتـح فمه ويتحـرك لسانه لكن صوت الناظر يغلق أمامه سبيل الدفاع :

« ده ستر من ربنا والمسيح الطاهر . . . ولد ذكي صحيح ، إنما كان حايودينا كلنا في داهية ! » .

الحائط الرطب والنسمة الساخنة ووجه عم مينا يطل عليه من خلف المكتب ونقرات التلغراف الغامضة وعندما يبتسم عم مينا يبدو وجهه وكأنه صنع من شمع منصهر ! .

« كده تعملها في ابن أبو فرخة يا عفريت يا أزرق ؟! » .

تشجعه الإبتسامة فيتحرك لسانه ويجيء صوته متحشرجاً :

« بابا بيقول لحضرتك ، من فضلك اسأل عم كامل في البنـدر إذا كان . . . أصل . . . لو . . . » .

يدق الناظر عينيه في عينيه فيختنق صوته ويشل لسانه ، عبثاً يحاول الحديث فقد حاصرته النظرات من كل ناحية ، وانتصب الناظر أمامه وسط المكتب بـوجهـه وشـاربـه والمنشـة في يـده لا تكف عن شق الهـواء

بشعيراتها . . . عن يساره بسمة عم اسكندر وقامته الطويلة هما الملاذ ، من خلفه « السويتش » بطول الحائط ، في الوسط مقعد أبيه خالياً ، والسكون يطبق فلا حس إلا نقرات التلغراف التي تلتطم وتسرع بين الأشياء جميعاً ، ويتنفس ملء صدره عندما يحتويه صوت عم إسكندر :

« ولا يهمك يا جن . . . والعدرة إنت اللي فالح في اولاد البلد كلهم ! » .

« ده أحسن تلميذ عندي في المدرسة يا اسكندر أفندي . . . ده ولد زكي تمام . . . بس عفريت ، شقي جداً . . . لا يطاق ! » .

وتتحرك ملامح عم مينا في ابتسامة واسعة ويزداد انصهار وجهه ، ثم يتمتم بصوت خافت :

« حامد أبو فرخة نجح ! » .

« عرفت الخبر من عشر دقائق بس ، لكن بصراحة . . . . . . » .

يلهب الهواء بمنشته فليس هناك ذباب ، يعم الصمت ويرتجف لنظرته فيهرب بعينيه إلى ضوء الرصيف الباهر :

« لكن بصراحة أنا حاطط همي على الولد ده . . . ده أشطر تلميذ في المدرسة كلها ، مفيش في المديرية كلها تلميذ أصغر منه . . . حداشر سنة وخمس شهور ممكن يكون أصغر تلميذ في القطر كله ! » .

وتمتد يد عم مينا إلى ذراع آلة التلغراف وهو يقول :

« مبارك إن شاء الله . . . مبارك صدقني يا حضرة الناظر ! » .

يسيل عرقه ويبرد جسده ويحس برعشة تسري في ركبتيه . . . حلت

الساعة فساد السكون وارتكن الناظر إلى حافة السويتش وراح يرقب أصابع الرجل المرتعشة بالذراع الصفراء . . . يجمد عم اسكندر وتغيض في وجهه تلك الإبتسامة الأليفة ويشعل سيجارة ثم تتعلق عيناه بالفضاء . . . تيك تاك . . . ولا أحد يفهم شيئاً سوى الوجه المنصهر والعينين المائلتين إلى الآلة . . . المصير المحتوم وفي البندر يعرفون الحقيقة وليت عم مينا يبتسم أو يعبس أو يفعل شيئاً لكن الوجه جامد . . .

ترى . . . ماذا يحدث لو كان راسباً ؟! .

وكيف سيصبح شكله لو نجح وأصبح حاملاً الشهادة ؟! .

الدقائق بطول ساعات المغرب في رمضان . . . الوجه الجامد يتحرك أخيراً وترتفع العينان نحو الناظر فيسعل هذا ويسحق عم إسكندر سيجارته . . . لكن النقرات لا تكف ، وتنسحب الأرض من تحت قدميه فإذا هو معلق في فضاء كالحلم ، ولو كان راسباً فالموت أهون . . . ويتذكر « أوطه » في المياه فتتوقف يد عم مينا وتكف النقرات وينفجر قلبه بالدقات . . .

« جوز عمتك مشغول مع مصر نص ساعة كمان ! » .

لا يفهم شيئاً غير أن سعلة الناظر ترده إلى الحائط . . . ويتمتم عم مينا :

« بعد نص ساعة حاتعرف الخبر يا سيدي . . . ولا تزعل ! » .

رغم أن شيئاً لم يشف غليلة ، إلا أنه تنهد ملء صدره كانت أمامه فسحة من الوقت على أي حال . . .

الفَصْـلُ الـرَّابع

يدور الحديث مثلما يدور في كل مرة ، يتحدث الناظـر عن الأولاد والنتيجة والمدرسة الأميرية التي لا ينجح منهـا في كل عـام سوى بضعـة تلاميذ يأتي ترتيبهم بعد ترتيب مدرسته :

« وده رغم إن مصاريفها إتناشر جنيه في السنة يا مينا أفندي ، شوف إنت دفعت لإبنك أنيس كام عندي السنة دي ، وتفتكر إيه ؟! . . . نصف تلامذتها خدوا دروس خصوصية عند المدرسين بتـوعي . . . المدرسين بتوعى أنا ؟! » .

وتشق شعيرات المنشة هـواء المكتب في صفير حـاد وكأنهـا تؤكد كلام الناظر بالقوة :

« والمسيح الطاهـر يا اسكنـدر أفندي إن مصـاريف الولـد ده لسه مـاندفعتش كلهـا ، ثابت أفنـدي راجل طيب ، والمهم مش الجنيـه اللي فـاضل كقسط أخيـر ، المهم النتيجة يـامينـا أفنـدي . . . المهم النتيجـة وسمعة المدرسة . . . سمعة المدرسة ! » .

يغـرقه الخجـل بالعـرق فيداري وجهـه ويهرب بعينيـه نحو رصيف البضائع خلف المكتب بعرباته الحمراء ورائحته النفاذة . . . طـالما تمنى لو أدخله أبوه المدرسة الأميري ليتناول طعام الغداء هنـاك ويتسلم الكتب الأميري والكراسات الثمينة . . . يوم طالبه الناظر أمام الفصل كله بالقسط الأخير سال العرق تحت إبطيه وبكى . . . نتيجة مدرسة بولس الإبتدائيـة

دائماً في المقدمة ، هكذا يقول أبوه والناس جميعاً في البلدة ، وحديث الجميع عن المدرسة مقرون بالناظر فلماذا لا يذكرون فكري أفندي والشيخ بسيوني وندا أفندي مدرس الجغرافيا ؟ . . . الناظر لا يعطيهم دروساً وندا أفندي كان يمتحنهم بين الحين والحين في الإنجليزية . . . حديثه في المكتب لا يتوقف وصوته يجلجل ولا بد للجميع أن يسمعوا فهل يستطيع هو أن يقول ـ الآن ـ شيئاً ؟! السكون يرين على الدنيا وصوت الناظر يدوي بجلال حقاً لكن ساقيه تؤلمانه . . . يحكي الناظر حكاية المفتش الذي جاء وسأله سؤالاً في غير المقرر . . .

« السؤال ده مقرر على أولى ثانوي ، صدقني يا إسكندر أفندي . . . على أولى ثانوي . . . لكن العفريت ده جاوب عليه بسهولة . . . وكنت أنا قبلها بيوم واحد باديهم الدرس !! » .

سمع الحديث من قبل عشر مرات وهو يذكر المفتش والسؤال لكنه لا يعرف كيف أجاب عليه . . . يخرج عم إسكندر إلى الرصيف ويصيح على البوفيه أن يرسلوا قهوة لحضرة الناظر ، لكن الناظر يقسم أنه لا يريد قهوة ، يطلب شاياً دون سكر . . . ينثني في حديثه إلى الصحة لكنه لا يترك الحديث عن المدرسة . . . هل ينجح ولا يعود إليها أبداً ؟! .

« ما هو لو نجح الولد العفريت ده حايبقى أصغر تلميذ في المنطقة كلها . . . ويمكن في القطر كله وينشروا صورته في الجرايد ! » .

ثم يلتفت إليه ويدق نظراته في عينيه . . .

« أنا مش كنت باديك دروس خصوصية ببلاش يا ولد ؟! » .

الإجابة عن السؤال بالنفي فهل يستطيع أن يقول لا ؟! . . لو فعلها لقامت الدنيا وقعدت وقالوا عنه : **« قليل الأدب ، بيكذب الناظر**

بتاعه ! » . . . يهز رأسه موافقاً ويقول : نعم . . .

وينتابه الغثيان . . . يجلس الناظر ويمدد ساقيه ويستريح عم مينا في جلسته وتنقر آلات التلغراف نقرات متقطعة ثم يعود الصمت وتهب من النافذة الخلفية نسمة ساخنة ، ويصبح للجو طعم مهيب . . . يسري الألم في ساقيه فيحرك قدميه ولا يلحظه أحد ، يخطو خطوة ويتحدث عم إسكندر ، ويأتي الشاي فيتسلل من المكتب دون أن يعترض طريقه مخلوق ، يعبر الكابينة الصغيرة ذات التليفون المعلق ويستقبل باب المكتب وضوء الشمس الباهر بعينين مفتوحتين وقلب ينبض بالراحة ، يتنفس ملء صدره وهو يرى الرصيف خالياً والمحطة ساكنة . . . ينظر إلى الساعة المعلقة عند مكتب المعاون وكانت الثالثة والنصف ، يخطو خطوة أخيرة بعيداً عن باب المكتب ثم يطلق لساقيه العنان . . .

إلى أين يذهب ؟!

يتوقف عن العدو في منتصف الرصيف ويجول ببصره في المكان . . . تقع عيناه على عربة القطار الخالية فيتمنى لو جاءت «أوظه» ، ليس أحب إلى قلبه الآن من التدخين ونفث الدخان من فمه بصوت مسموع مثلما يفعل أبوه . . . العربة الخالية والديوان المغلق والشباك المكسور ومازالت هناك بقية من أعقاب سجاير اقتصدها لوقت الحاجة ، ولو رأته أمه وهو يجمع أعقاب سجاير أبيه لقتلته ضرباً . . . ولكن ، هل يدخن بدون « أوظه » ؟! .

لا يبهره شيء في الدنيا قدر منظر الدخان المنبعث من الفم أثناء الكلام ، سجائر أبيه تحرق حلقه لكن سجائر الإنجليز ترطب فمه ، يوم أخرج الدخان من أنفه لأول مرة راح يسعل حتى شعر بصدره يتمزق وجرح

حلقه وبصق دماً وسخسخت « أوظه » من الضحك عليه . . . الأرض تهتز تحت قدميه هزات ألفها واعتادها والقطار السريع يبدو في الأفق كالوحش مع اقتراب شبحه الأسود ودخانه الكثيف الذي انتشر في الأفق والحقول ، ينحني ليلتقط قطعة حجر ليقذف القطار بها ، لكنه يتذكر ما حدث فتسقط قطعة الحجر من يده ، يداهم القطار المحطة فيرتج كل شيء ويهتز ، تتابع عيناه عربة الطعام الصفراء التي من أجلها حدث ما حدث . . . يومها لم يره أحد في الدنيا لكن أباه جاء كالمجنون يرتعد بالغضب وهو يسأل :

« إنت اللي حدفت القطر بالطوب ؟! » .

فكيف عرف أبوه أنه الفاعل ؟!

وإذا أراد شيئاً من أمه وأبيه فلا بد أن يدوخ الدوخات السبع ، وإذا أرادت «أوظه » قرشاً أو شيئاً صاحت من الشارع فيجاب طلبها دون سؤال أو أخذ أو رد . . . فلماذا هو ؟! ولولا حامد لما حدث يومها ما حدث ، ولو لم تستجب أم حامد لصراخ ابنها لما ذهب إلى المحطة . . . فهل يجرؤ على أن ينادي أمه مثلما فعل حامد ؟! .

« ماما . . . انتي ياست ماما ! » .

أطلت أم حامد من النافذة بجسدها السمين ووجهها المكتنز وكانت تبتسم . . .

« عاوز إيه ياضنايا ؟! » .

« احدفي لي قرش ؟! » .

« حا تعمل بيه إيه ؟! » .

« وانتي مالك إنتي ! . . . حاركب بسكليت . . . ياالله احدفي القرش باقول لك ؟! » .

ولو فعل هو هذا لحانت ساعته دون شك ، لكن حامد أخذ القرش وتركه ليستأجر دراجة يعزف بأجراسها من حوله ولا يعطيه لفة ويصيح فيه أمام العيال :

« ماتروح لأمك وتقول لها تديك قرش !! » .

ذات مرة قالت له أمه أن حامد وحيد أبويه فلماذا لم يخلقه الله وحيداً هو الآخر ؟ . . . يومها ذهب لأمه مؤدباً وقال لها : **« من فضلك يا ماما »** وقبّلها لكنها رفضت أن تعطيه قرشاً رغم أن كيس نقودها كان مليئاً بالقروش والشلنات والبرايز !

« والنبي يا ماما ! » .

« روح لأبوك ! » .

« الله يخليكي يا ماما ، نفسي أركب بسكليت ! » .

ودقت يومها على صدرها وصاحت في وجهه وهي تقزقز اللب :

« بسكليت إيه ياولد ؟ . . . اقعد ذاكر تنفع نفسك . . . بالك انت حا تفلح ؟! » .

أعطته ظهرها فانتابه الغيظ . . . تلفت حوله فرأى كيس النقود فوق السرير ففكر أن يسرق منه قرشاً . . . سرت في جسده رعدة وفكر أن يسرق جنيهاً كاملاً ، الدولاب المغلق والرف العلوي والورق الأخضر وهو يستطيع أن يأخذ ما يريد دون أن يراه أحد ، ولو قطعوه فلن يعترف . . . وسيغفر له الله في الآخرة ، تقدم من الكيس فدق قلبه وغزاه الرعب

فاستغفر الله وغادر البيت . . . عند الباب كان حامد يدور بالدراجة ويعزف بأجراسها ويلاحقه بصوته :

« أمك مارضيتش تديك قرش ياوله ؟! » .

وإذا كان قد خزى الشيطان ولم يسرق فلا بد أن الله سيساعده، أطلق لساقيه العنان نحو المحطة ودخل المكتب مندفعاً يتساقط العرق من وجهه . . . عبر الكابينة إلى الداخل فالتفت إليه أبوه متسائلاً . . . عم مينا وعم إسكندر وعم أبو فرخة أيضاً وفي المكتب زوار وعلى الباب عم سعداوي . .

« إيه اللي جابك ياسيدنا الأفندي ؟ » .

تلكأ لسانه قليلاً فلاحقه صوت أبيه متسائلاً : « نعم ؟! » .

« من فضل حضرتك يابابا . . . أصل أنا وحامد . . . يعني حامد أصل . . .» .

وابتسم الجميع إلا أبوه فتوقف عن الكلام . . .

« ما لك يا سيدنا الأفندي . . . ما تنطق ما له سي حامد كمان ؟!» .

ضحك أبو حامد ضحكة قصيرة وقال بصوت عال :

« لازم عاوز يركب بسكليت ! » .

التفت أبوه إلى عم أبو فرخة فامتدت ضحكة الرجل وازداد وجه أبيه غضباً . . .

« مالك يا ثابت زعلان كده . . . الولد فضل يعيط أول امبارح ساعتين علشان عاوز يركب بسكليت . . . أنا مش فاهم إيه حكاية البسكليت دي معاهم ؟ » .

البسمة الساخرة والعينان الحمراوان . . . ثم :

« واديته القرش إياك ؟! » .

هل يخاف أبو حامد من أبيه هو الآخر ؟!

« أمه هيه اللي اديتهولـه يـا عم . . . حـاكم النسـوان عقلهم صغير ! » .

« أمه ده إيه يا بو فرخة . . . بقى أمه هيه اللي عقلها صغير والا إنت اللي مش عارف تربي ابنك ؟! » .

« يا راجل دول عيال ! » .

« عيال ؟! » .

« أمـال رجالـه يـا ثـابت . . . انـت اتجننت . . . إذا مـا تمتعـوش النهاردة حا يتمتعوا إمتى ؟ » .

« والله يابو فرخة ما إنت جايبها البر ! » .

« يا ثابت دول عيال ! » .

وانفجر الغضب عاصفاً بالمكتب ، وحملق الجميع :

« ابنك إنت اللي عيل . . . أنا معنديش عيـال ، مافيش كلمـة ولد تمشي علي ! » .

إنه لم يسرق ، فلماذا لا يساعده الله ! .

« امشي غور ياسيدنا الأفندي ! » .

ولم يخطىء ، وقال من فضلك . . .

« امشي غور من هنا بلاش كلام فارغ . . . من هنا للبيت وتستناني لما أجيلك واشوف حكاية البسكليت دي إيه ؟! » .

انتفض بالخوف وتراجع إلى الخلف فاصطدمت قدمه بأرض الكابينة العالية ، فوقع . . .

ليست الوقعة هي التي أبكته وإنما الضحكات وعندما نهض كان الجميع يضحكون وكانوا يلومون أباه . . . لكن الغضب لم ينته . . .

« قال أمه قال . . . والنبي ابنك ما هو فالح يابو فرخة ! » .

« يا راجل ! » .

« ولما يسقط زي السنة اللي فاتت حاتنفعه البسكليت ؟!» .

وصاح عم مينا :

« والمسيح عندك حق يا ثابت ! » .

« حاينفعه الدلع ؟!» .

« واقف كده ليه ياسيدنا الأفندي ؟!» .

« ما هو يابابا . . . . » .

عم الصمت وزمجر الصوت الباتر :

« قلت لك غور من هنا ! » .

« والنبي يابابا . . . » .

« قلت لك اتفضل غور . . . » .

حامد يسرق القروش من أمه ويشتري بها ما يشاء . . .

« أصل يابابا . . . » .

حامد يبكي فينال حقه أما هو . . . لابد أن . . .

« إنت لسه واقف يا ابن الكلب ! » .

قفزة واحدة وهوى الكف على صدغه وطار جسده في الهواء وارتطم بالحائط ، الأصوات والصياح والعتاب والتهديد والكلام والدمع المنهمر في غزارة . . . هواء الرصيف وصدى الأمر الباتر ولو مر الآن قطار لألقى بنفسه تحت عجلاته ، لحقه عم اسكندر وأعطاه قرشاً فرفض فلم يكن يريد قرشاً ولا يرغب في ركوب الدراجة . .

زال ألم الصفعة وبقيت سخونتها تلهب خده . . . لكن الدمع لا يكف . . . لماذا لا تقوم القيامة ولماذا لا يموت الآن ، ولماذا لا يقف الله بجواره ؟!

إلى أين يذهب ؟!

إذا مر القطار السريع سيلقي بنفسه تحت عجلاته وسيرفض دخول الجنة والحديث مع الله والأنبياء، تهتز الأرض تحت قدميه فلماذا يحقق الله هذا الخاطر بالذات دون غيره ؟! . . . يبدو القطار في الأفق كالغول بدخانه الأسود وصفيره الحاد . . . هل يقرأ الفاتحة ويقول لا إله إلا الله . . . أم يموت غاضباً ؟ . . . هدير القطار يدخل رأسه وصوت عم فرج الشيال يرتل فوق الرصيف :

« أوع رجلك . . . أوع رجلك الإكسبريس ! . . . » .

بعيداً خلف لافتة المحطة ، سيغمض عينيه ويفعلها ، سيموت الآن إذا أراد . . . يزداد اهتزاز الرصيف وتلمح عيناه قطعة حجر ويكف الدمع

ويصبح القطار جسداً مهولاً يصيبه بالرعب ، فلماذا يموت ويذهب إلى الآخرة عند الله الذي لا يسمع دعاءه ؟! لا يغيظه في القطار السريع سوى عربة الأكل الصفراء ، دخلها مرة ليشرب وكان آتياً من البندر فطرده خادم أسمر رغم أنه كان مؤدباً . . . أخبر أباه بالأمر فنهره وسبه وقال له أنه سيفضحه حتى في القطارات . . . ماذا لو مات أبوه . . . ماذا لو صرخ بأعلى صوته :

« يا رب يموت . . . يا رب يموت ! . . . » .

ومرت أمامه العربة الصفراء فقذفها بالحجر وسمع صوت الزجاج يتهشم ، واختفى القطار فاستدار نحو رصيف البضائع وسلك إلى البيت طريق السوق الطويل حتى لا يراه حامد. . . وعندما أمطرت الدنيا ترك رأسه للمطر يغسله ، الطين وبرك المياه والطرقات الزلقة وسيسقط حامد من فوق الدراجة . . . تذكر القطار بعربته الصفراء فدهمه الخوف لثوان ، وماذا لو إكتشفوا أنه الفاعل ؟! عندما اقترب من البيت نسي كل شيء ، كانت «أوظه» تقف تحت المطر وقد ابتل كل جسدها ، وعند الناصية كان « بعضشى» يقف وسط العيال وهو يغني :« يا مطرة رخي رخي ! » . . . وإذا كان أبوه غائباً عن البيت فهو حر يفعل ما يشاء ، وإذا نادته أمه من الشباك أن يدخل يعصي أمرها دون خوف ، وإذا كان قد حُرِمَ من ركوب الدراجة فلماذا لا يلعب ، ويخوض في الطين والمياه ، ولماذا لا يغني مع العيال ، ويصيح بأعلى صوته ويستقبل المطر بوجهه ، ويضحك ، وتبتل ملابسه ، وتصل المياه إلى لحمه . . . وإذا هددته أمه فالعقاب واحد ، وإذا مضت ساعة فلتمض ساعة أخرى ، لكنه إذا رأى أباه آتياً من ناحية السوق وعلى غير موعد فلابد أن يخاف ويتوجس شراً . . . يستطيع أن يرى العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحاجبين فيسرع

إلى البيت ، ويسرع إلى الدولاب ، ويسرع بتغيير ملابسه ، ويسرع إلى كتاب ، غير أن الصوت الهائج كان أسرع إليه :

« إنت اللي حدفت القطر بالطوب ؟! » .

الرعب والخوف والنظرة المهولة فلا مفر حتى ولو لم يكن هو . . .

وإذا لم يكن الله هو الذي أخبر أباه فمن الفاعل وقد كان الرصيف خالياً ؟

« إنت اللي حدفت القطر بالطوب ؟! » .

ولا تجدي هرولة أمه وتوسلاتها ، ولن يجدي دفاعه مهما قال . . .

فلماذا ينطق ؟!

العصا السميكة والحبال والزمجرة الهادرة وبكاء إخوته وعيونهم وصوت أمه لا يكف عن السؤال :

« بس حصل إيه ياثفندي . . . ياخويا الشر بره وبعيد . . . مش تقول حصل إيه ؟ . . . ده في الشارع قدام عيني من الصبح . . . يوه ياثفندي صلي على النبي ياخويا . . . ثفندي !! » .

لا يهمه الضرب أو الذبح . . . ولكن كيف علم أبوه أنه الفاعل ؟!

يسأله ويسأله ولو قطعه إربا فلن يعترف . . .

يجذبه من شعره فيستسلم تماماً دون مقاومة . . . اشتد البرد في الدنيا وسرى إلى أطرافه وأنفه فراح يرتجف ثم لم يعد يشعر بشيء ، جذبه أبوه من شعره إلى غرفة النوم وألقى به إلى الأرض وانحنى يقيد قدميه في السرير فلم يفتح فمه ولم يقاوم . . . ما الفائدة ؟ . . .

« إنت اللي حدفت القطر بالطوب ؟! » .

كان يرتعد وعندما رفع قـدميه إلى أعلى أوجعت الأرض رأسـه فزم شفتيه وأطبق فمه فرأى حذاء أبيه الملطخ بالطين أمام وجهه . . . وعندما زمجر الصوت الغاضب أطل عليه الوجه من أعلا شديد الإحمرار . . .

« إنت اللي حدفت القطر بالطوب ؟! » .

ارتفعت العصا في الهواء . . . ثم هوت فوق قدميه فأحس ناراً تندلع من ساقيه إلى يافوخـه فمنع نفسـه من الصراخ حتى لا يسمعـه العيال في الشارع ، أدار وجهه إلى الناحية الأخرى فطالعته عيون إخوته المطلة عليه من خلف البـاب في ذعر . . . ضـربة وراء ضـربـة وصـوت أمـه يـلاحق الضربات دون توقف . . .

« ثفندي . . . كفايـة كده يـاخويـا . . . ثفندي . . . خـلاص حرم والنبي ، ثفندي . . . هو بس عمل إيه . . . ثفنـدي . . . الولاد بيعيـطوا على أخوهم » .

« إنت اللي حدفت القطر بالطوب ؟! » .

راح يمـرغ رأسه في الأرض يمنـة ويسرة مـع كل ضـربـة . . . لم يصرخ لكن دموعه بدأت تنسال من عينيه ، ولذا أصبح الضرب لا يوجـع قدميه ، ولكن . . . كيف علم أبوه أنه الفاعل ؟! » .

« رد يا ابن الكلب ياوش المصـايب . . . إنت اللي حدفت القـطر بالطوب ؟! » .

عـلا نشيج سـامية ، وازدادت عينـا سهام إتسـاعـاً ، وعبـر صـوت الضربات شارعهم إلى بيـت النـواجي ، وبكت أمه عندما جاء الصوت من المنزل المقابل . . .

« ده باين عليه ثابت أفندي ياختي بيضرب إبنه . . . ياسي ثابت ياثابت أفندي ! » .

وتنوح أمه :

« وحياة النبي على قلبك كفاية كده يائفندي . . . الولد حايسورق منك ! » .

« إنت اللي حدفت القطر بالطوب ؟! » .

ولو استطاع أن يوقف انهمار الدمع لأصبح رجلاً لا يهاب شيئاً . . . ولو ذبحه أبوه فلن يفتح فمه بآهة أو صرخة . . . توقفت الضربات ففتح عينيه وكانتا ممتلئتين بالدمع ، نظر إلى أبيه فوجده يلهث وأنفاسه تتردد وصدره يعلو ويهبط ، وكلماته متقطعة :

« أنا ، أنا حاعر . . . ف . . . أو . . . . ريك . . . » .

تقدمت أمه لتفك وثاقه فجاءتها الصرخة المزمجرة :

« سيبيه زي ما هو ! » .

وتعالت الأصوات من الشارع ترجو وتلح وتستعطف . . . لكنه لا يريد عفواً . . . وعندما بدأ يزحف على يديه وركبته نحو الغرفة ، كان الأنين قد بدأ يصدر عنه بالرغم منه ، إخترق سيقان إخوته وتسلق السرير وبدأ الألم يقطع قدميه فدفن وجهه في الوسادة وترك لدمعه العنان . . . عبر الباب المفتوح بين الغرفتين وكانت الأصوات تصل إليه واضحة كل الوضوح . . .

« إيه اللي حصل يائفندي ؟! » .

لم يكن في حاجة إلى معرفة ما حدث ، الطوبة المقذوفة والزجاج

المهشم في عـربـة الـطعـام ويـد البـاشـا المجـروحـة . . . والإشـارات التليفـونية . . . والبـوليس . . . والتحقيق . . . وسمع أبـوه الخبر وانقلبت المحـطة رأساً على عقب . . . سـاد الصمت لثوان وتسـاءلت أمه وجـاءه حديثهما مطموس المعالـم خافتاً ، لم يكن يعنيـه ما كانت تقول ، ولم يعد يعنيه انتشار الألـم وازدياده . . . كيف علم أبوه أنه الفاعل ؟!

ثم علا الصوت المزمجر في الغرفة المجاورة :

«يا وليه حطي عقلك في دماغك . . . هو فيه حد غيره في البلد كلها يعمل كده ؟! » . . .

الفَصْـلُ الخَـامِسُ

يبتعد القطار السريع ويعبر الكوبري ثم يذوب في الأفق البعيد منثنيا مع شريط السكة الحديد اللامـع تحت وهج الشمس . . . يعـود السكون من جديد فيشل المحطة بأسرها ، تحوم حوله ذبابة تطن طنيناً متصلاً . . . نجح أم لم ينجح فقد تقرر مصيره في اللوح المحفوظ فما فائـدة العذاب والإنتظار . . . متى يركب القـطار ويذهب إلى حيث يشـاء دون أن يمنعه أحد ؟ . . . يحس بلهب الشمس يكوي رأسه فيقرر الذهاب إلى حيث بيته في العربة الخـالية : هنـاك . . . في وسط العربـة المقعدان المخلوعـان والسرير الذي صنعه مع « أوظه » . . .

على الـرف العالي كـل لوازم البيت ؛ وفي أحـد الأركان صنـدوق السجائر المصنوعة من أعقاب أبيه ؛ ولو علمت« أوظه » أنـه ذهب وحده لخاصمته وتـزوجت شخصاً آخـر . . . يقفز الـرصيف ويعبر القضبـان ثم يعتلي الـرصيف الآخر . . . لكنـه يتمهل قبـل أن ينـطلق . . . فمـاذا لـو تحدث عم كامل من البندر ونادى عليه عم سعداوي ولـم يجده ؟ . . .

لماذا لا يستطيع أن يفعل ما يشاء دون خوف من شيء ؟ . . . لماذا لم يخلقه الله ابن ملك . . . أو ابن باشا . . . أو ابن عم علي سراج حتى لا يحاسبه أحـد ؟ . . . يوم وقف القـطار السريـع على المحطة تحـدثت البلدة بما وقع ، ومحجوب بـك صديـق والـده ، الأكف المصفقـة . . . والخناجر المدوية . . والفيللا الفـاخرة . . وكـانت هذه هي المـرة الأولى

التي يرى فيها البك الكبير الذي ينتخبه الناس ويحملونه علي الأعناق ويهتفون باسمه في الشوارع والحواري . . . طالما سمع من أبيه قصة لقائه مع الوزير وحديثه معه . . . كم يعشق السماع لحكايات أبيه الباهرة ! . . .

ولو أصبح وزيراً ذات يوم مثلما حدث لمحجوب بك . . . فلسوف يأتي في القطار السريع ويركب في العربة الصفراء . . . ويقف على المحطة أمام الجميع . . . سيصافح حامد حتى ولو قال له : حقك علي ، وقبل رأسه ! . . .

تثقل خطواته في منتصف الرصيف الآخر وكان في مواجهة سلم المحطّة ، يرفع رأسه إلى السماء ولم تكن زرقاء كما تعلم في المدرسة . . . يراها شديدة البياض فيداخله العجب ويوقن أن القيامة لابد قائمة . . . في وسطها قرص الشمس شديد اللهب ، يتذكر جهنم فترتعد مفاصله، وينتفض على صوت عم سعداوي الذي يصعد سلم المحطة حاملاً دراجته والعرق يتصبب من جبهته . . .

« إيه اللي موقفك في الشمس كده يا ابني ؟! » .

يركل الهواء بقدمه ويستدير نحو الكوبري . . . فماذا يقول ؟

« هو كلكم معجونين بمية عفاريت ؟ . . . يا ابني شوف لك حتة ضل واقعد فيها ! » .

سيمضي عم سعداوي مزمجراً إن لم يرد عليه ، يضع يديه في جيبي بنطلونه ويلعن الحكومة في سره لأنها لا تجبر السماء على احترام أبناء الموظفين مثلما يحترمون آباءهم . . . يتحرك عم سعداوي ثم يقفز فوق الدراجة وهو يتمتم :

« إيه العبارة ؟ . . . هو انت نجحت . . . والا الحكاية مش نافعة ؟! » .

يبصق خلفه ويدعو عليه بالموت ويظل يرقبه حتى يقترب من المكتب ويختفي فيه ، حرارة الشمس تزداد . . . والجو من حوله يختنق بصمت آسن فيتمنى لو جاءت «أوظه» لتأخذه إلى البر الثاني . . . بالأمس شاهدته أخته سهام وهو يلعب معها فصاحت في وجهه منذرة :

« حاقول لبابا ! » .

وصرخ أبوه في المساء مزمجراً :

« بتلعب مع البنات ياسيدنا الأفندي ؟ . . . ياريتك طلعت بنت ! » .

لماذا يحب الأشياء التي يمنعونه عنها ؟ . . ولماذا يكره ما يحضونه عليه ؟!

صداقته لحامد دونها رقبته ، هو لا يطيقه ولا يحب صوته الخشن ورأسه الكبير ووجهه الذي يشبه المربع الأزرق فوق سبورة الفصل . . . وعندما خلعت« أوظه » ملابسها أمامه لأول مرة أحس بالذعر غير أن السعادة طغت عليه وملأته باللذة ، ولو كان يملك وقتها سيجارة إنجليزي لدخنها كلها أمام كل الناس . . . بجوار سلم المحطة شجرة تساقطت كل أوراقها . . . تحتها زير فوقه كوز ، بجوار الزير قطعة حجر ناعمة الملمس . . . يعود فيقفز من رصيف إلى رصيف ويعبر القضبان ويملأ الكوز بالمياه ويشرب ، ثم يجلس على حافة الحجر تحت الشجرة ويرقب الطريق الممتد من المحطة بحذاء النيل وقصره ، وصالون فاروق إلى حيث البلدة كلها . . .

يوم وقف القطار السريع وهبط منه محجوب بك كانت المحطة

تشغى بالناس ، رجال من البلدة وفلاحون يرتدون ملابس ممزقة ويمسكون في أيديهم الشماريخ ويهتفون مـلء حناجـرهم بحياة محجـوب بك . . . وكانت لهم رائحة عطنة أصابته بالغثيان ، ظل يزاحم الـرجال وينفلت من بين الأجساد ويسب آباءهم بصوت عال حتى وصـل إلى المكتب وشاهـد أباه وسط زملائه وهو يقول مشيراً إلى الزحام فوق الرصيف :

« كل ده علشان غدوة . . . اسفخص على ده شعب ! » .

وصرخ بجواره رجل نحيل بدت رقبته نحيفة كفرع يابس :

« يحيا العدل ! » .

وهبط محجوب بك من القطار بوجهه الأبيض وبسمته الـرائعة ورآه يتجه إلى المكتب ثم يصافح الرجال وأباه الذي ابتسم . . .

وذات يوم صحا أبوه من النوم ساعة العصر وكان يتمتم وهو يرتدي ملابسه . . . ثم صاح في أمه ببسمة ساخرة :

« يعني حايعوزني ليه يا ست هانم ؟ . . . عاشقني في الظلمة ؟ . . . صاحبي ؟ . . . كل الحكاية إن الانتخابات قربت . . . فهمتي !؟ » .

وعندما عاد أبوه في المساء راح يحكي لأمه عن أصناف الطعام التي مدت أمام الرجال في الفيلا . . . أقسم بعزة الله وجلاله أن المائدة كانت تحوي خروفين وعدداً لا يحصى من الدجاج والحمام لم يبق منها شيء ، وعندما أعـدت أمه طعـام العشاء والتفـوا حول المـائدة في الصـالة أغلق البلكونة حتى لا يسمـع الجيران حـديثه ، وكـان أبوه أول الجـالسين إلى الطعام . . . في تلك الليلة صفت العينان وانفرجت ثنيـة اللحم فيما بين الحاجبين واستراحت ملامح الـوجه الصـارم فوق ابتسـامته راضيـة، ورقّ

الصوت وحكى أبوه عن الفيلا . . . والرجال . . . والباشا . . . والوزارة . . . وجلالة الملك . . . وبين الحين والحين كان الصوت يحتد وتخبط الأصبع فوق المائدة منذرة :

« إنتي بتقولي إيه ؟ . . . هو حايشترينا بعشوة ؟ . . . راجل مجنون . . . كلهم كده ! » .

وعندما غسل أبوه يديه بعد العشاء تجشأ بصوت عال وابتسم وهو يقول لأمه :

« وحياة عزة الله الواحد ياكلها بملح ولا يعش نفسه ! » .

ليلتها كان يحملق في وجه أبيه غير فاهم لشيء ، وأحبه ليلتها أكثر من حبه لله نفسه ، أحبه حتى توقفت أنفاسه وظل ساكناً ينظر إلى الفم المدخن والعينين الباسمتين . . . فأصابته الدهشة لأن الله لم يخلق أباه نبياً . . . وظل أبوه يحكي ويحكي . . . والليل يوغل فلا يأمره بالنوم ، وفي بعض الأحيان كان يحدثه :

« قلت له ياسعادة البيه أنا ما اتعشاش برة بيتي وبعيد عن ولادي أبداً ! » .

لكن عم «أبو فرخة» كان يأكل بنهم ، لهف فخذ خروف كامل . . . وحمل الرجال الدجاج في جيوبهم ولفوه في أوراق الجرائد دون خجل . . . النجف والسجاد والأبهة والفيلا الساحرة والمقاعد والحديقة التي كالجنة . . .

« قلت له أبداً . . . أنا حا انتخبك وطول عمري باعمل كده . . .

هي المسألة مسألة أكل ياوليه !؟ » .

أحلام النوم تختلط بكلام أبيه وقد شبع دون أن يأكل كفايته وعندما يكبر سوف ينتخب محجوب بك . . . لكنه لن يتعشى عنده أبداً . . . رأسه تثقل وصوت أبيه يسرى من أذنيه إلى عينيه حنوناً ، تسقط جفوته فيحدثه الصوت في هدوء :

« ماتقوم يا ابني تنام ، هوه ذنب عليك ! ؟ » .

هل كان حلماً أم علماً ! ؟ . . . الخطوات السابحة ورائحة الدخان الحبيبة واليد الممدودة وشفتاه تلتصقان بها في وجد أفعم نفسه بالسعادة . . . يخطو خطوة ثم يستيقظ على صوت أبيه الهادىء وهو يحدثه :

« إسمع ياسيدنا الأفندي . . . أنا حاكلها بملح وأربيكم أحسن تربية ، إسمعني كويس وحط الكلام ده في دماغك . . . أوع تبيع نفسك في يوم لمخلوق مهما كان . . . فاهم . . . كُلْها بملح ونام من غير عشا كمان ولا تبيعشي نفسك أبداً ! » .

رغم أنه نام ليلتها ملء جفونه ، إلا أنه كلما تذكر تلك الليلة تساءل : كيف يبيع الإنسان نفسه ! ؟ . . . وهل من الممكن أن يبيع الإنسان نفسه ! ؟ » . . . وإذا فعل هذا فمن يقبض الثمن ؟ . . . وما معنى ما قاله أبوه ! ؟ .

الفَصْـلُ السَّـادِسُ

يطل الرأس المغطى بالمنديل والطربوش ، ينادي عم سعداوي عليه فيتغاضى عنه ولا يرد . . . يعيد الرجل نداءه بصوت أعلى فلابد أن شيئاً قد حدث وأن زوج عمتـه قد اتصـل ، ولابد أنهم جميعاً قد عـرفوا الآن نتيجته . . . فماذا يفعل لو لم يكن ناجحاً ؟!

« يـا ابني قـوم من الشمس وتعـال هنـا في المكتب . . . هـو إنت إيه ! ؟ » .

يصعـد عم فرج الشيـال سلم المحطة وهـو يتمايـل في مشيته إلى اليمين مرة . . . وإلى اليسار مرة ويتمايل معه ظهره المقوس الذي قال عنه « بعضشى » إنه خِلْقة ربنا ؛ وقال أبوه إنه سنم نبت على ظهر الرجل لكثرة ما حمل فوقه من أحمـال وحقائب . . . عين عميـاء وأنف متورم وسـاقان مقوستان وخطوات ثقيلة يملأ صوت دبيبها على الرصيف سكون المحطة، وهـو يحب عم فرج لكنـه لا يطيق رائحتـه ولا منـظر عينـه ، ومـازال عم سعداوي يتحدث ، يسمع منه كلمة ولا يسمع الأخرى :

« . . . . . . طب وافرض يعني إن جوز عمتك ما اتكلمش إلا بعد ساعة ، حاتفضل قاعد في الشمس لإمتى ؟ . . . أعوذ بالله منكم . . . يا ابني رد علي ، هوه كلكم عجينة واحدة !؟ » .

ويمر به عم فـرج الشيال ويـرفع لـه يده بـالتحية دون أن ينـظر إليه ويتمتم :« سلام عليكم ! » .

وأكثر ما يحبه في عم فرج أنه يلقي عليه السلام كلما رآه كما يفعل مع الرجال ذوي الشوارب . . . يـرد عليه السـلام بصوت لا يسمـع . . . ويختفي عم سعداوي داخل المكتب فيوقن هو أن شيئاً لم يحدث فيطمئن قلبه ، تداخله السكينة فيتنفس ملء صدره وينهض إلى الزير ويملأ كـوزاً بـالميـاه ثم يشــرب ويتـرك القــطرات تتسـاقط على عنقــه وتتسلل إلى صـدره . . . ولو ظهـرت النتيجة وكـان ناجحـاً فلسوف يستحم في النيـل ويغـطس في الميـاه ، ولسـوف يعـطيـه أبـوه قـرشـاً ويستـأجـر دراجـة ويأخذ « أوظه » إلى البر الثاني . . .

يعود إلى جلسته ويسند رأسه إلى جذع الشجرة ويمدد ساقيه ويغلق عينيه ، سيأخذ « أوظه » معه ، سيعبران الكوبري ويلتصق ظهرها بصـدره طوال الطريق ، لن يغادر الدراجة إلا في آخر ثانية ، سيختـرقان الحقـول ويذهبان إلى الكوبري الجـديد حيث معسكـرات الإنجليز والهنـود السيخ والأفريكان السود . . . وقد يراه تشارلي وينادي عليه كمـا اعتاد أن يفعـل كلمـا رآه وهـو جـالس في البـار أمـام بيت طنط جـانيت ، لكنـه لن يـرد عليه . . .

يبـدو الشاطىء الآخـر من خلال الكوبـري بنخيله وحقـولـه وخيـام الإنجليز وسياراتهم ، وفي وقت القيالة يسمع الناس صيحاتهم وضحكاتهم آتيـة وهم يستحمون في ميـاه النهر . . . يـوم جاءوا كـانت الدنيـا تلتهب بحرارة الشمس . . . وقال أبوه : « **ده من غضب ربنا على العالم !** » . . . كان ناجحاً في العام الماضي وكان يلعب في المنتزه عندما سمع الصيحة المرتعبة خارج السور :

« **الإنجليـز . . . الإنجليـز نــزلـوا البلد . . . الإنجليــز في البـر الثاني !** » .

أصابه الفزع كما أصاب العيال والرجال واختفت النسوة داخل البيوت . . . وحرم البنات من مغادرة المنازل ، ترك المنتزه مهرولاً وكان يرتعد . . . وراح يقرأ آية الكرسي مرات ، في السوق كان الناس يتحدثون عما يفعله الإنجليز في القاهرة وما فعلوه ببنات الإسكندرية ونسائها . . . وكان عم ياقوت صديق أبيه يضحك في الشارع صائحاً يعلو صوته :

« مش قلت لكم ، حايفضلوا يضربوا فيهم لما يطفحوهم الدم . . . كلها كام يوم والحاج محمد يوصل ويخلصنا ! » .

وهو يعلم أن هتلر أسلم . . . وسمى نفسه الحاج محمد ، لكنه لا يحبه فشاربه يشبه شارب فكري أفندي مدرس الحساب . . . إنقلبت البلدة رأساً على عقب . . . وازدحمت الشوارع بالرجال وأغلقت كل الأبواب وحرم على النساء النظر من النوافذ . . . ثم هدأ كل شيء بعد ساعة وبدأ الناس يزحفون إلى الكوبريِ ومنه إلى البر الثاني . . . وهمس «بعضشى» في أذنه :

« تيجي نتفرج يا ويكا ! ؟ » .

طول الكوبري كان طابور الرجال والعيال والصبيان الذين يحملون البيض والبطاطس والطماطم يمتد من الشاطىء إلى الشاطىء ، السيقان العارية . . . والحجور الممتلئة . . . والأقدام الحافية . . . والزحام . . . . والحر . . . والجلاليب الممزقة ، وهو الوحيد بين الناس الذي يرتدي البنطلون والقميص ولا يحمل شيئاً . . . أغرقه الخجل بالعرق عندما صرخ في وجهه صبي ملأ حجره بالبطاطس :

« حتى الأفندية جايين ؟! . . . إيه البلاوي دي ؟! » .

بجواره كان « بعضشى » سعيداً يتصدى للصبي صائحاً :

« وانت مالك إنت . . . هو الكوبري بتاعكم ؟! » .

وعندما جرى الصبي بحمله تقافز « بعضشى » في سعادة والتفت نحوه صائحاً :

« جيت ون سيجاريت يا جوني ! »

وإبتسم له وقال إن الإنجليز لن يفهوا هذا الكلام ، حاول أن يعلمها له صحيحة . . . لكن « بعضشى » ضحك منه وصوب له سبابته صائحاً :

« ويلمان !! » .

رفع يديه مستسلماً . . . لكنه انقض بسرعة ليهوي على وجه « بعضشى » بلكمة طاشت في الهواء ، وضحك « بعضشى » وسقط على الأرض وتمرغ فوقها ثم نهض ولحق به .

وعندما وصلا إلى البر الثاني إنحرفا إلى اليسار وعبرا المزارع وسط سحابة التراب التي أثارتها أقدام الناس الملهوفة . . . طالعته على البعد عشرات السيارات وهي تزأر وتخوض في الطين والحقول ووسط الزرع . . . صعد فوق كومة سباخ فارتجف وشهق وهو يرى الحقول وقد انتشرت فيها الخيام والسيارات ورأى على البعد دبابة . . . وكان الرجال الآتون من البلدة يملأون الطريق بصياحهم وقد امتلأت أقفاصهم بالبيض والطماطم . . . وكان الفلاحون يجرون هنا وهناك وهم يصرخون ، ورأى رجلاً منهم يلطم خديه صائحاً :

« الزرع يا اولاد . . . يا حكومة . . . ياغفير . . . الزرع يا اولاد ! »

ضحك « بعضشى » . . . فضحك معه وأخذا يقلدان الرجل

ويصرخان معاً . . . عن يمين الطريق رأى رجلاً يصحب جاموسته وهو يهرول ، وكانت زوجته تتعثر من خلفه وهي تصرخ من حلق مبحوح :

« جاي . . . يا غفير يا هووووه !! » .

تذكر ساعتها أم زغلول التي تندب في المآتم فانقبض قلبه ، وعند حافة الطريق تجمع الفلاحون وفي أيديهم شماريخ طويلة . . . ثم دوت في الهواء طلقات رصاص فر لها الناس وازداد ذعره . . . جلس فوق كوم السباخ . . . وراح يرقب كل شيء بعين مفتوحة . . . مرت بجواره امرأة تلطم خديها . . . ثم تنحني إلى الأرض لتغرف من الطين إلى وجهها وعنقها وصدرها ، وكانت عيناها حمراوين لكنها لم تدمع ، إنتابه الحزن وخنقته الدموع رغماً عنه ، هبط كوم السباخ . . . وواقترب من المرأة مواسياً :

« مالك يا خالة . . . حد مات لك ؟! » .

فهوت المرأة على الأرض لتقبل قدميه . . . فانتفض مبتعداً ، تطلعت إليه بوجهها المغطى بالطين . . . وكانت تبكي بلا دموع :

« الزرع يا اخويا . . . الزرع ياضنايا . . . والحمار ! » .

حاول الكلام فلم يستطع ، وجذبه « بعضشى » من ذراعه وهو يهمس في أذنه :

« احنا مالنا يا ويكا . . . دول فلاحين ! »

راح يعدو مع صديقه نحو المعسكرات ، وهدرت على الطريق قافلة من السيارات العالية كانت تزمجر بأصوات أصمت أذنيه وامتلأ الهواء بغبار كثيف منعه من التنفس ، وتذكر أباه وعم ياقوت . . . فتساءل في حيرة :

كيف يهزم هتلر كل هذه الأشياء ؟! .

يومها ظل يلعب ويتفرج حتى مالت الشمس نحو الحقول ، وإذا كان هذا هو الغرب فأمامه الشرق . . . وهنا الشمال . . . وهنا الجنوب حيث ترقد البلدة وسط لحاف الظلام الذي راح يغطيها على الشاطىء الآخر للنهر . . . بدرت الحقول على اليمين واليسار بالخيام والمدافع والدبابات والسيارات ، وكان الجنود يحملون على أكتافهم بنادق قال له «بعضشى» إنها محشوة ، وراح البعض منهم يفتح زجاجات البيرة ويشرب منها . . . ثم يطوح بها إلى العيال الواقفين على الطريق ، وقد أتاه « بعضشى » بواحدة منها بعد أن تمزق جلبابه وهو يزاحم العيال ويتعارك معهم ، وعندما أعطاه الزجاجة هز كتفيه وقال :

« لا يا خويا . . . احنا عندنا كبايات زجاج ! » .

أحس فجأة . . . وكأن القيامة لابد أن تقوم ، وبدا له كل شيء غريباً ولذيذاً ، جذبه الزحام فأخذ يروح ويجيء ويرقب الجنود وعجلات السيارات . . . وجنازير الدبابات ، رآه هندي فرفع له يده بالتحية باسماً ، كان يضع على رأسه عمامة . . . وقد أطلق لحيته ومشطها وشدها بخيط حول وجهه ، طالما رآهم في القطارات وتحدث إليهم . . . لكنه لم يرهم على الأرض أبداً . . . وصاح به جندي أحمر الوجه أصفر الشعر وكان يركب سيارة :

« شوفتي بنت ولد . . . شوفتي بنت ؟! » .

لوى شفته وبصق على الأرض . . . فابتسم الهندي وضم قبضته ولوح له في الهواء مشجعاً، عند حافة حقل مجاور كان الأفريكان السود ينصبون خيامهم ، وبعضهم كان يصنع شايا ، وعندما نظر إليه أحدهم

أرعبته العيون البراقة والأسنان اللامعة والفم الواسع ، وابتسم له الرجل . . . فابتسم له خوفاً . . . وهمس « بعضشى » في أذنه :

« دول بيسنوا سنانهم كل يوم الصبح يا ويكا . . . دول بياكلوا بني آدم ! » .

وعندما مد له الجندي يده بقطعة بسكويت . . . هز رأسه رافضاً ، وعندما تقدم منه الجندي تقهقر إلى الخلف وسمعه يتكلم :

« أفريكان سوا سوا . . سوا سوا أفريكان »

استجمع كل ما تعلمه في المدرسة . . . وقال بالإنجليزية :

« أشكرك ، لكني لا أريد أن آكل الآن ! »

وقبل أن يرد الإفريكي . . جاءته من الخلف ضحكة مرحة :

« هاي . . إنك تتكلم الإنجليزية . . هل انت مصري ؟! » .

استدار نحو الرجل الضاحك . . . وكان إنجليزياً عاري الصدر باسم الوجه ، وبجواره كان «بعضشى» مع صبي امتلأ حجره بالبطاطس وهو يلح عليه :

« بوتاتوس جوني . . . شفتي بوتاتوس ڤري جود ! » .

وأعاد الجندي سؤاله :

« هل إنت مصري ؟! » .

« نعم . . . أنا مصري ؟! » .

وأشار الجندي إلى شعره :

« ولكن شعرك أصفر ، لابد أنك يوناني ! » .

طالما تمنى أن يكون يونانياً أو ألمانياً أو حتى إيطالياً ، لكنه في تلك اللحظة بالذات أحب أن يكون مصرياً . . . فقال بحماس :

« أنا مصري ، ولا أحب أن أكون يونانياً ولا حتى إنجليزياً ! » .

« شفتي بوتاتوس جوني ؟ » .

« وأين تعلمت الإنجليزية ؟! » .

« في المدرسة ! » .

« بوتاتوس ڤري جود . . . شوفتي بوتاتوس ؟! » .

الطريق العالي . . . والسهل المنبسط بجوار النيل . . . والجندي يشتري البطاطس من الصبي . . . «وبعضشى» قد اختفى لا يدري أين . . . يسرع الجندي بالهبوط إلى المعسكر وخلفه الصبي الذي تسقط منه حبة بطاطس . . . يلتقط الحبة . . . ويصيح في الصبي . . . لكن هذا لا يرد. . . لا يدري كيف نطق. . . ولا يدري كيف حدث ما حدث، السؤال بجواب . . . والجواب بعده سؤال . . . وحبة البطاطس في يده ، ضحكات الجنود تترى كلما قال شيئاً وعرف أن اسم الجندي الذي حدثه في البداية هو تشارلي. . . هبط المنحدر نحو شاطىء النيل. . . وتقدم من المعسكر وقد زايله الخوف وراح يحدثهم وهم يتحدثون إليه فشعر بلذة لا تفوقها لذة ، واكتشف أنه شاطر في الإنجليزية ، وقف بجوار سيارة محملة بالصناديق والأطعمة والخبز الأبيض . . . فسال لعابه عندما رآه . . . تذكر بطاقة التموين وزحام الناس عند دكان الدقيق الأسمر والخبز الجاف الذي كسر إحدى أسنان أبيه ذات يوم . . . شراء الدقيق أثقل واجباته على

الإطلاق ومنذ قامت الحرب لم ير خبزاً أبيض إلا في فيلا محجوب بك ، وكلما مر قطار مليء بالقمح سأل أباه :

« القمح ده بيروح لمين يا بابا ؟! »

وقال له أبوه أنه يذهب إلى السلطة . . . فلم يفهم . . . وسأله تشارلي إن كان جائعاً . . . فأنكر رغم لعابه السائل . . . والجوع الذي يعتصر معدته ، قدموا له كوباً من الشاي فشربه . . . وأقسم بينه وبين نفسه أنه لم يذق في حياته شاياً ألذ من هذا . . . وعندما غادر المعسكر في المساء . . . كان على موعد مع تشارلي في صباح اليوم التالي . . . وكان هذا يصيح فيه هو يبتعد :

« إذا كنت صديقي حقاً فأحضر لي بيضاً طازجاً في الصباح ! »

أكثر ما يميز الإنجليز هو حرصهم الشديد على الإخلاص والصدق، ولقد كان تشارلي من إنجلترا. . . لم يكن أستراليا بغلاً ولا نيوزيلاندياً جلفاً كما يقول أبوه ، تذكر الفلاحة الباكية والطين الذي يغطي وجهها . . . فردد بصوت واضح :

« دول فلاحين . . . فلاحين ! » . . . وعندما كان يتحدث مع تشارلي قدم له حبة البطاطس. . . فشكره تشارلي وأعطاه علبة بولبيف يزيد ثمنها على خمسة قروش . . . وعندما تمنع أصر تشارلي فأخذها منه حائراً ، وظل يفكر طوال الطريق في مكان يخفيها فيه ، وكان قلبه مفعماً بالسرور . . . . ولو علم أبوه بالأمر لذاق علقة لم يذقها من قبل ، ولن ينسى يوم أن قذف له الجنود بصندوق سجائر من قطار عبر المحطة . . . وكاد أبوه ليلتها يقتله :

« حاتشتغل لي شحات على آخر الزمن وتفضحني في البلد ؟! » .

عبثاً حاول أن يقنع أباه أن الذنب ليس ذنبه . . . فقد كان يصيح فيه بغضب رهيب :

« **وأخدتها ليه ؟ . . . مديت إيدك عليها ليه ؟!** » .

فماذا يفعل به أبوه لو علم أنه أخذ علبة بوليف من عسكري إنجليزي في البر الثاني ؟! .

الفَصْـلُ السَّـابع

نفذت الشمس من بين فروع الشجـرة . . . ودارت نحو الكوبـري فأحرقت ساقيه فضمهمـا إليه وهـو يتنهد . . . يلتفت نحـو المكتب وكان الرصيف لا يزال خالياً ، يرقب سحابات الصهد وهي تتموج فوق الأرض والقضبان ، ولو نجح لاستطاع أن يلعب في الصبـاح ويخرج في المسـاء دون حساب . . . سيركب الدراجة كل يوم . . . فلسوف يزيـد أبوه مصـروفه دون شك، وعندما يكبر ويعمل ويصبح غنياً سيشتري دراجـة، ويوم قـال له « بعضشى » أنه سيشتري سيارة كاميون قال له أن الدراجات ألذ . . . كم يعشق أسلاك عجلاتها وهي تعزف ، تعـزف ، وهي تعلو في أذنيه وتثقب رأسه ، وهي تقترب ليستدير برأسه ، نحو الشارع فليمـح حامـداً وهو في الطريق فوق دراجة لا تكف أجراسهـا عن الرنين . . . يـدق قلبه بـانفعال وغضب ، وتتهدج أنفاسه وتضطرب ، يقترب « حامد » مسرعاً . . . لكن «بعضشى» يأتي من بعده وهو يعدو بطوقه كالسيارة . . . مصفراً كالقطار ، يتنفس الصعداء ويمـلأ صدره بالهـواء ، ويعود فيمـدد ساقيـه من جديـد عنـدما يـأتيه صـوت « بعضشى » المتهدج آتيـاً من بعيد وكـأنه نجـدة من السماء :

« ويكا ! . . . ويكا !! . . . يا ويكا ! » .

ويترك «بعضشى» طوقه ليصطدم بسلم المحطة . . . ثم يرتد بعيداً في الميدان الصغير ؛ ويندفع صاعداً درجات السلم ويرتمي تحت قدميه

فوق الأرض المتربة لاهثاً في إضطراب :

« إنت سقط صحيح يا ويكا ؟ ! » .

ينتفض في مكانه وينتشر الذعر في أرجاء نفسه :

« مين الكذاب اللي قال لك كده ؟! » .

هـو يعرف الجـواب مقدمـاً . . . وليس هناك من يقـول هذا سـوى حامد ؛ ومن خلال أنفاسه اللاهثة كان « بعضشى » يردد :

« الولد حامد هو اللي بيقول ! » .

« كذاب ! » .

« وتربة النبي هوه اللي قال لي دلوقت ! » .

« كذاب ! » .

يقولها هذه المرة منتفضاً بغضب تراكم في صدره فينهض صائحاً في حامد بكل صوته :

« يا كذاا اب ! » .

ويسبه حامد وهو يدور في الميدان فوق الدراجة عازفاً بالأجراس :

« يلعن أبوك ! » .

« أهو انت ! » .

« يا ساقط ! » .

وتنتفخ رقبته :

« النتيجة لسه ما ظهرتش . . . وعم كامل مشغول مع مصر نص ساعة كمان ! » .

« أمال قاعد هنا ليه لوحدك ؟ . . . ما تروح تقول لأمك ! » .

« أنا ناجح وحاغيظك يا بليد . . . وحضرة الناظر قال لي كده كمان ! » .

« بليد . . . بليد . . . إنما ناجح يا إبني . . . وطظ في الناظر بتاعكم ، أنا بقيت في ثانوي ! » .

« وقال إن أنا حاجيب مجموع . . . وأدخل المدرسة الأميري مجاناً ! » .

« مجاناً زي الفقرا والشحاتين . . . أنا ما يهمنيش . . . احنا عندنا بيت ملك ! » .

لماذا أنجب أبوه أربعة وأمه حامل . . . ولماذا لم يفعل مثل أبو حامد فلم ينجب غيره ؟ . . . يرتج عليه ولا يستطيع الرد . . . فمصروف «حامد» تعريفة . . . ومصروفه ميلمان . . . تتعثر الكلمات على شفتيه . . . ثم تتجمع على لسانه ككرة من نار :

« إنت أبوك أقرع . . . وأنا أبويا له شعر ! » .

لا يغيظه شيء في الدنيا سوى ضياع صوته في الفضاء الساكن ، أنه يصرخ بكل بدنه . . . لكن كلماته تضيع وتتبدد ، صوته رفيع نحيل . . . وصوت حامد غليظ يملأ السمع . . . ينهض « بعضشى » واقفاً ويلتصق به ثم يهمس في أذنه متحمساً :

« تيجي نضربه يا ويكا ؟ » .

يتمنى من أعماقه لو يفعلها . . . لولا خوفه على قميصه أن يتسخ أو يتمزق . . . وسيتحول الأمر بعدها إلى كارثة محققة . . . وماذا لو لم يكن نـاجحاً ؟! . . . يصمت ولا يـرد . . . فيعـود « بعضشى » إلى الهمس بصوت مسموع :

« مش إنت شاطر في المدرسة يا ويكا ؟ » .

ولا يكف « حامد » عن الدوران في الميدان . . . والعزف بأجراس الدراجة ، يدور . . . ويدور . . . ثم يصيح بين الحين والحين :

« يا ساقط ! » .

. . . ينهض فوق البدال كمن يركب حصاناً ، يخرج له لسانه ويسبه ولن يستطيع بعضشى أن يلحق به ، هل سينجح . . . أم سيكون الرسوب من نصيبـه . . . أصبـح لا يـدري من الأمـر شيئـاً سـوى أن . . . أن . . . أ . . . أنـه . . . أن الحبـل الغليظ يعـود إلى الإلتفـاف حـول عنقه . . . فلا مفر ولا مخرج . . . ولا بد أن تسيل الدموع من عينيه رغماً عنـه ، ولا بد لـه أن يقاوم بكـل قواه حتى لا يفضـح . . . كـان تشـارلي صديقه . . . فلماذا فعل ما فعل ؟ ! . . . قال له يومها :

« أنا آسف . . . لكنها أوامر يا كابتن ! » .

ثم صوب عليه مسدسه . . . وكاد يطلق عليه النار . . . فلمـاذا لم يقتله ليستـريـح ؟ . . . أجـراس الـدراجـة . . . وصيحـات حـامـد . . . ونـظرات بـعـضـشـى . . . وصـرخـة الـكـابـتـن الـغـاضـبـة دون سبب : « أخرج ! » ، فلماذا ؟ . . . يـومها ارتجف من الخـوف والغضب معاً فانسحب من المعسكر يجرجر قدميه . . . علبة البولبيف . . . والليل وزحام السوق . . . وحديث الناس على كل فم ، وصوت بعضشى يباغته من الخلف :

« إيه اللي معاك دي يا ويكا ! » .

وكاد أمره ينفضح . . . لولا أنه وعد «بعضشى» بإعطائه قرشاً من ثمن العلبة . . . سارا معاً إلى دكان مرزوق الخردواتي وباع «بعضشى» العلبة ولم يره مرزوق فحمد الله وطغى عليه الفرح، أخذ « بعضشى » من الرجل أربعة قروش . . . أعطاه منها ثلاثة : « آخذ القرش ليه يا ويكا ؟ ! » . . . وعاد إلى البيت يحتضن ثروته في يده . . . ثم أخفاها بعيداً عن الأعين في بئر السلم . . . ليلتها لم ينم ، فماذا لو اكتشف أبوه الأمر وسأله من أين جاء بالمال ؟ . . . إن لم يخبره فستقع الطامة . . . وإن أخبره فالمصيبة أكبر ! . . .

تشارلي يريد منه بيضاً طازجاً وأقدام إخوته تستلقي فوق جسده والدنيا صمت وأنفاسه تتردد في الظلام ، وماذا لو جاء لص فسرق قروشه من بئر السلم وفر بها هارباً ؟ !

حسب الحسبة مرات ومرات . . . القروش الثلاثة تأتيه بإثنتي عشرة بيضة ، وسيعطيه تشارلي إثني عشر قرشاً ، وفي اليوم التالي يستطيع أن يبيع له ثمان وأربعين بيضة بثمانية وأربعين قرشاً ، وفي ثالث يوم يستطيع أن . . . . . .

غادر الفراش في الظلام ووقف حائراً ، ثم عاد إلى مكانه وراح يفكر في اضطراب . . . ولو استمر الأمر على هذا الحال فسيصبح معه ذات يوم جنيه كامل ، وربما جنيهان وثلاثة ، وعشرة ومائة جنيه وربما أصبح غنياً يملك مالاً يشتري بيتاً ودراجة ، وليس هذا حراماً . . . لكن أباه سيقطعه إربا لو علم بأمره . . . أذان الفجر يسري في سماء البلدة فيقشعر بدنه ، ورغم قبح صوت عم فرج إلا أنه يبعث دائماً بالدمع إلى عينيه كلما سمع أذان الفجر منه ، جاء الفجر وعيناه مفتوحتان وذهنه صاح ولا رغبة له في

النوم ، وينتابه حنين إلى الله ، فلماذا لا يصلي ، كم تمنى لو استطاع صلاة الفجر في الجامع ، وكم تمنى لو استطاع الوقوف فوق المئذنة والصياح بكل صوته منادياً :

« يارب ! » ، فهل يلبي الله نداءه ؟!

تسلل من الفراش ووقف في منتصف الغرفة وحيداً يشغى رأسه بالله وأرقام البيض والخوف من أبيه ، خطوة واحدة . . . ثم يصبح عليه أن يعبر جسد الخادمة الراقدة على الأرض في منتصف الغرفة تماماً ، الباب المفتوح . . . والحمام عن اليمين والمياه باردة ترطب وجهه ويديه وقدميه . . . وعندما انتهى من الوضوء أحس بالراحة تغمره ، في طريقه إلى غرفة الجلوس تذكر تشارلي باضطراب ، دلف إلى الغرفة وهو يقرأ الفاتحة ويستقبل القبلة ويرفع يديه إلى أعلا ، وما كاد يبدأ صلاته مكبرا : الله أكبر ، حتى فتح الباب من خلفه وغمر النور الأزرق عينيه ودهشة أمه متسائلة في قلق :

« مالك يا ولد . . . إيه اللي صحاك دلوقت ؟ ! » .

لم يدر بماذا يجيب ، كانت الطاقية على رأسه ويداه بجواره وجهه وإبهاماه تحت أذنيه ، أليست الصلاة واجبة ؟!

« ما ترد ياولد . . . مالك ؟ ! » .

كانت تصيح فهمس متوسلاً حتى لا يستيقظ أبوه . . .

لكن الصوت الباتر أتاه عبر الصالة :

« اتفضل نام ياسيدنا الأفندي ! »

دهمه الإحساس بالإختناق ، الظلال في الغرفة والضوء الأزرق

والمقاعد والستائر السميكة . . . وجسد أمه يقف بينه وبين الهرب !

لمـاذا لا يهـرب وهـو يستـطيــع أن يعيش من بيـع البيض طــوال عمره ؟ . . . وإذا كان العمر مكتوباً في اللوح المحفوظ . . . فمتى يأتي يوم أبيه ؟!

« التقوى خدت بعضها قوي ياسيدنا الأفندي ؟ » .

كان لا بد من الطاعة . . . فأين المفر ؟!

« إمشي اتخمد ! » .

الدقائق البطيئة والأحلام والخيالات وأشباح الفجر الـرطبة نـام ولم ينم . . . لكنه إنطلق يعـدو بعد خـروج أبيه في الصبـاح وعندمـا أراد أن يشتـري بيضاً قيـل له أن ثمن البيضـة أصبح تعـريفة ، إنتـابـه الغضب ، وصاحت امرأة في وجه البائع :

« تعريفة ليه؟ . . . إلهي تيجي لهم شوطة بحق جاه النبي . . . دول خلوا البلد مولعة نار . . . وقة البطاطس من امبارح للنهـاردة بقت بالشيء الفلاني ، رطل الطماطم يا اخواتي بقى بشلن . . . حـانجيب منين . . . نسرق ؟ ! » .

كره البائع كما كره المرأة . . . لكنه عندما سأل بعد ذلك كان ثمن البيضة تعريفة . . . لم يترك بائع بيض إلا وسأله . . . غير أن الجواب كان واحداً . . . فلماذا !؟ . . . اشترى البيض وراح يحسب حسبته فوجد أن قـروشه الثـلاثة ستصبـح ستة فقط ، وفي الـطريق وعلى الكـوبـري وبين الحقول كان يتساءل : هل يعطيه تشارلي علبة أخرى من البولبيف ؟!

« ويكا . . . ويكا . . . تأخذ لفه بالطوق ؟ ! » .

لماذا تأتيه الأشياء عندما لا يريدها ؟!

« حامد » يدور بالدراجة أمامه والرصيف خال . . . والميدان مفروش بلهب الشمس . . . الشجرة والزير ووجه « بعضشى » يطل عليه من أسفل متسائلاً :

« مش تقوم تسأل يا ويكا ؟ ! » .

لكن شيئاً يلجم لسانه ويمده إلى الأرض . . . ترى ما الذي يشعر به من يسبحون في النهر ؟! وكيف تستطيع «أوظه» أن تنام فوق سطح المياه كما تفعل ؟ . . . متى يكبر ويفعل ما يشاء دون خوف ؟ . . . ومتى يصبح رجلاً له شارب ويدخن أمام الناس وينفث الدخان في الهواء بكل عزمه ؟ . . . ولو أن أباه ذبحه يوم علم أنه يذهب إلى المعسكرات ليبيع البيض للإنجليز لارتاحت نفسه ، لكنه لم يفعل . . . يقفز واقفاً فيتبعه بعضشى ، يملأ صدره بالهواء وقد ذهبت دموعه فيتذكر وجه أمه يوم ضبطته بالنقود تملأ جيبه . . . سبعون قرشاً نبه رنينها أمه . . . فصاحت فيه :

« إيه ده يا ولد؟! » .
الفم الفاغر والعينان الواسعتان والصياح المرتعب :

« إيه ده يا ولد ؟! . . . وريني إيه اللي معاك ده ؟ . . . يا ندامة . . . فلوس؟! » .

عبثاً حاول الفرار . . . فقد سدت عليه الطريق وأغلقت باب الغرفة بجسدها . . . ثم أمسكت به ـ كالعادة ـ من شعر رأسه ولم تتركه . . .

« جبت الفلوس دي منين يا ولد؟! » .

الريالات والقروش تملأ كفها . . . وعيناها جاحظتان ونظراتها

زائغة . . . وكلماتها تردد دون انتظار لجواب منه :

« سبعين قرش يا ابني . . . جبتهم منين ؟ . . . منين جبتهم يا ولد ؟ ما تنطق يا ابني . . . حرام عليك . . . ما تقول . . . سبعين قرش يا ضنايا . . . ما تخافش يا ابني . . . قول لي دا أنا أمك . . . قول مش حا أقول لأبوك لو قلت لي الحق . . . أنا أمك . . . حد يخبي على أمه حاجة؟ . . . » .

وقال :

كان يعلم أنه لا بد قائل ، ويعلم أنها لا بد ستخبر أباه بالأمر كله . . . وعندما علمت كل شيء شهقت ، وضربت صدرها بكفها وصاحت فيه مصفرة الوجه :

« الإنجليز؟ ! » .

الويل والثبور . . . والمفاصل السائبة . . . وانتظار اللحظة الحاسمة بالقلب المرتجف . . . ولو أن أباه ذبحه يومها لارتاحت نفسه ، لكنه لم يفعل !

« ساقط . . . يا ساقط؟ ! » .

صوت « حامد » . . . وأجراس الدراجة . . . وحرارة الشمس . . . ويهمس « بعضشي » في أذنه :

« ما تروح تسأل يا ويكا . . . ويكا . . . تيجي نروح البر الثاني؟ ! » .

يهز كتفيه ويرقب باب المكتب بعين زائغة وذهن غائب . . . يومها تجمع أخوته من حوله وراحوا ينظرون إليه بعيونهم المتسعة بالدهشة . . .

والترقب والانتظار وأعمدة السرير مشرعة حتى السقف ولن يفلت من العقاب ، وعندما جاء أبوه لم يزعق ولم يصرخ ولم يناده . . . الهمس الغليظ وصوت أمه لا يبين والغداء لا يُعَدّ . . . ثم يأتيه النداء . . . فإما الحياة أو الموت . . .

« يا سيدنا الأفندي! » .

الصوت غاضب هادر . . . فليقم إلى مصيره ساعياً . . . باب الغرفة والصالة وباب الشقة مفتوح وليس عليه إلا أن يطلق لساقيه العنان ويهرب . . . فلماذا لا يفعل ؟!.

جذبته الصيحة جذباً . . . فإذا العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين أمامه . . . وإذا الأمر كله حلم غريب يطالعه في منام ، جلسة أبيه فوق الكنبة . . . وبجواره أمه ، بينهما النقود مبعثرة تلمع فوق المسند ، ونفثات الدخان تسبح في جو الغرفة والسؤال يأتيه :

« جبت الفلوس دي منين؟! » .

لماذا يسأل وهو يعرف الجواب ؟ . . . لماذا يعيد ما قاله لأمه خائفاً ومتصنعاً الخوف أيضاً ؟ . . . حلم هو أم وهم . . . فأمه تبتسم . . . حكى الحكاية . . . فصمت أبوه ولم يقل كلمة . . . فأيقن أن الأمر حلم لا شك فيه . . . صمت الغضب هذا ونذير الحكم أم هو صمت شيء آخر لا يدريه ؟ . . . أغرقه العرق وأحس بصدره يعلو ورأسه يدور . . . وكاد يبول على نفسه ، وما يحدث من حوله هو حلم فأين اليقين إذن ؟ . . .

« خلاص بقى يا ثفندي . . . ما هو بيديني الفلوس يا خويا » .
« مين كان معاك يا سيدنا الأفندي؟ » .
« ما فيش حد يا بابا . . . والله العظيم ما فيش حد! » .

« بعضشى طبعاً؟ . . . » .

« أبداً يا بابا! » .

« أوظه؟ . . . » .

« والله يا بابا أبداً! » .

« خلاص يا خويا . . . محدش عرف حاجة! » .

« اسكتي انتي يا ست هانم . . . إبنك حا يفضحني في البلد! » .

« أصل العسكري ده صاحبي يا بابا! » .

« صاحبك؟ . . . » .

« أيوه والله العظيم! » .

« صاحبك إزاي ؟ . . . صاحبك يعني إيه؟ . . . » .

لماذا لا تنشق الأرض وتبتلعه ؟ . . .

« ما ترد يا ولد على أبوك . . . ما لك؟! » .

« صاحبك يعني إيه يا سيدنا الأفندي . . . إنطق! » .

« صاحبي يا بابا . . . صاحبي! » .

« قصده يا خويا إنه بيديله البيض في السر! » .

« في السر يعني إيه ؟ . . . تعال هنا قرب . . . فهمني! » .

يختفي الغضب أم أن هناك ما هو أسوأ . . . يقول ويعيد لكن السؤال ملحوق بسؤال وليس لديه ما يقوله فليذبحه إذن . . . الكف يضرب الكف . . . والزفرات متتاليات . . . والكلمات تخبط رأسه :

« حا يفضحني في البلد . . . حا يفضحني على آخر الزمن! » .

لماذا لا ينهض ويضربه ؟ . . . لماذا لا يصرخ ويثور ويأتي بالحبال والعصا ؟ . . .

« خـلاص بقى يا ثفنـدي . . . مدام محـدش عرف يـا خويـا . . . سماح بقى! » .

« والنبي . . . والنبي يا بابا دانا باحط البيض في جيوبي ولا حدش بيشوفه أبداً! » .

« آهو كل يوم بييجي يديني الفلوس كلها! » .

ويتحرك لسانه مكبلاً بخوف غريب الطعم :

« أصله بياخد مني كل يوم عشرين بيضة يا بابا! » .

« آهـو بيديني الفلوس يا خويا . . . وفيها إيه يعني . . . ما الناس كلها بتعمل كده يا ثفندي! » .

« امبارح قال لي آخد علبة بولوبيف ما رضيتش! » .

« يا ندامتي . . . ده لحم خنزير يا ولد . . . أوعى تاكل منه! » .

وجاء صوت أبيه هادراً فأصابته رغبة في التقيؤ . . .

« مين اللي قال الكلام الفارغ ده يا ست هـانم . . . البولبيف لحم بقري! » .

« بقري ؟! . . . طب ما تجيب لنا منه يا ابني . . . ده رطل اللحمة بقى بالشيء الفلاني! » .

« وعندهم عيش فينو أبيض كمان . . . وشاي! » .

« خلاص بقى يا ثفندي . . . إديله مصروف النهاردة علشان ينـزل يلعب مع أصحابه! » .

« مع أوظه وبعضشى ؟! . . . مش كده يا سيدنا الأفندي؟! » .

« وبكرة حا اشتري البيض منين؟! » .

أخذ قرشاً وغادر البيت ، لكنه لم يلعب ولم يستأجر دراجة ، وظل

القرش في جيبه . . . أحس مع الحرية بمذلة فغص حلقه . . . لو ثار أبوه وقتله قتلاً لارتاحت نفسه . . . الحيرة والقلق وعافت نفسه حتى عن لقاء « أوظة » . . . ولم يعد يذهب إلى تشارلي عدواً ، وتبعته « أوظة » ذات مرة فحاول الهرب منها . . . ولكنه لم يستطع . . .

« إيه اللي في جيبك ده يا اسمك إيه؟! . . . » .

وكلما خطا خطوة خاف على البيض أن ينكسر . .

« حاتقول لي . . . والا أقول لامك . . . ؟ » .

عند المعسكر تركته « أوظة » وانحدرت إلى الشاطىء وراحت تبني من الرمال بيتاً ، ثم نادت عليه فلم يرد ، لعنت الإنجليز بصوت عال وشتمته دون خوف . . . وعندما ذهب إليها التصقت به وهي تهمس في أذنه متوددة :

« مخاصمني؟! » .

لم يقل شيئاً ولم يعترض عندما طلبت منه أن يبني معها بيتاً من الرمال يسكنان فيه . . . استدارت نحوه فجأة . . . ثم سألته :

« أبوك مش بيضربك ليه اليومين دول؟! . . . » .

انتفض لسؤالها ولم يرد . . . فماذا يقول . . . صمت طويلاً فألحت بالسؤال . . . ثم قالت :

« أمي بتقول إنك بتبيع بيض للإنجليز وتجيب الفلوس لأمك! » .

لو أن عقرباً لدغته لما أحس بمثل هذا الألم ، ارتجف بالغضب وهو يحملق في وجه أوظة المتسخ وشعرها الهائش وكانت تبتسم ، غص حلقه وامتلأت مآقيه بالدمع فصرخ فيها بصوت ممزق :

« كذابة . . . أمك كذابة! » .

ولو مات أبوه فلسوف يصبح رجل البيت . . . سيحكم ويأمر وينهى ويخرج ويدخل كيفما شاء . . . سيأمر أخوته بالصمت فيصمتون وبالحديث فيتحدثون ، ومن يعصيه منهم فلسوف يضربه بالعصا ، وسيربطهم جميعاً في السرير بالحبال ، ويدخن أمام أمه . . . ويتزوج « أوظة » إن أراد !

يأتيه نداؤها من بعيد فينتفض ويتنفس ملء صدره ، كان موقناً أنها لا بد آتية ، ولطالما تمنى أن يراها مثل نادية ، نظيفة مثل أولاد الناس . . . وكانت كذلك في أول أيام العيد ، كانت أجمل من كل بنات الدنيا . . . يومها كانت تصرخ فيه كلما اقترب منها حتى لا يتسخ فستانها أو تتكسر آثار المكواة عليه . . . في الصباح لم تركب معه المراجيح ، ولم تلعب معه في الوسعاية ، وعندما دعاها لركوب القارب والذهاب إلى البر الثاني رفضت : « فستاني يا اخويا! » . . . هزت كتفيها وأعطته ظهرها ومضت تعرج في الحذاء الجديد . . . ثم جاء الضحى فاتسخ الفستان وركبت المراجيح ، وتهوش شعرها ، وخلعت حذاءها ، وظلت تعرج . . . ثم ركبا القارب وعبرا النهر واستحما في المياه وعادا معاً آخر النهار بعد أن تزوجا تحت قوائم الكوبري الهائلة !!

« يا اسمك إيه . . . يا اسمك إيه . . . إنت نجحت والا سقطت؟! » .

يملأ صوتها السكون فيهبط « بعضشى » السلم إلى الميدان ليلتقط طوقه ويستقبل « أوظة » وهي تعدو نحوهما بكل عزمها . . . حذاؤها في يدها وقدماها حافيتان وشعرها مهوش وفستانها قد ازداد اتساخاً . . . تغمره الراحة فيستسلم للنسمة الآتية من البر الثاني . . . ويتلاعب « حامد » بأجراس الدراجة ويدور بها في الميدان دورة وهو يصيح :

« حايفضل يا خويا . . . ده شاطر! » .

« ولا نستلفش الشهر ده ولا مليم! » .

وانهمرت دموعه في صمت فأحس للبكاء بلذة غريبة . . . بكى بحرقة حتى شاهدته سهام فحاصرته النظرات وارتفعت الهمهمات . . . وجاءت أمه ملهوفة . . .

« مالك يا ابني . . . ما لك؟! » .

وعندما جاء أبوه ازداد بكاؤه . . . وازداد انهمار الدمع من عينيه . . .

« ده بقى له كام يوم بالشكل ده يا ثفندي . . . وكل ما أسأله . . . ما يقولش ماله! » .

وصاحت سهام كاذبة :

« ده كان بيعيط امبارح! » .

« ما لك يا سيدنا الأفندي . . . إنطق! » .

لحظة الصمت . . . ثم شهقة الفزع . . . وصوت أمه يدوي في أذنيه :

« ثفندي . . . ما تشوف ابنك أحسن يكونوا عملوا فيه حاجة! » .

وانطلقت الصرخة من حلقه وكأنها تقطع لحم صدره :

« ماما . . . ماما . . . » .

ونظر إليها أبوه بعين ساخنة كاللهب :

« إيه الكلام الفارغ اللي بتقوليه ده يا ست هانم . . .؟ اخرسي انتي ولمي لسانك الأعمى ده. . . ! » .

يومها . . . اقتلعه الحنين والحب من فوق الأرض وحلقا به حتى السماء السابعة . . . وكاد يرى الله ! .

* * * *

الفَصْـلُ الثَـامِنْ

. . . . وإذا دوت صفارة الإنذار في عـز النهار فـالطائـرات الآتية لا بد ألمانية وليست إيطالية ولسوف تدوي المدافع عند الكوبري وفي البر الثاني وفوق بيت الغزاوي وستمتلىء الشوارع بالعيال وسيرى الإنجليز الطائرات قبل أن يراها كل الناس . . . ينتفض لصوت الصفارة المدوي في سمـاء البلدة كلها متقـطعاً ، ويكف « بعضشى » عن اللعب في الميـدان ويتطلع إلى السماء بحثاً عن الطائرة المغيرة . . . ولو أراد لذهب الآن إلى المكتب وتفرج على عم مينا وهـو يضغط زر الصفارة بـأصبعه ومن حـوله الناظر وعم اسكنـدر ، ولن يعرف النتيجـة حتماً إلا بعـد انتهاء الغـارة ، السماء صافية ولا صوت لطائرة . . . ولا طلقـة لمدفـع . . . وقد تمضي الغـارة دون أن يـطلق الإنجليـز مـدافعهم ودون أن تـظهـر في السمـاء طائرة . . . وعندما يظهر أول العيال في الميدان يندفع نحـوه « بعضشى » صائحاً في مرح :

« **تيجي نروح البر الثاني يا ويكا!؟** » .

يهز كتفه ويقول : « لا » . . . ويعود « حامد » بـدراجته إلى البلدة مسرعاً خوفاً من الغارات والقنابل . . .

« **مـا تيجي نتفرج على الإنجليـز وهم بيضربـوا المدافـع في البـر الثاني!** » .

تكف الصفـارة ويخرج عم مينـا وعم اسكندر وحضـرة النـاظـر من

خلفهم عم سعداوي إلى الرصيف ، يتطلعون جميعاً نحو السماء ويصنعون من أكفهم مظلات تحمي عيونهم من وهج الشمس . . . يراه عم سعداوي فيزعق فيه أمام الجميع وبأعلى صوته . . . ولن يستطيع الرد :

« ما تتهدى بالله وتيجي هنا أحسن الحكاية تبقى جد المرة دي! » .

وقبل أن يفتح فمه أو يتحرك تدوي أصوات المدافع في البر الثاني وهي ترعد فيزداد انفعال « بعضشى » ويزعق الناظر وهو يشير نحو السماء :

« آهيه . . . آهيه يا اسكندر أفندي! » .

يرفع عينيه نحو السماء فلا يرى شيئاً . . . يهلل « بعضشى » في حماس وهو يصيح :

« يا عزيز . . . يا عزيز . . . كبه تاخد الإنجليز! » .

ويمتلىء ميدان المحطة بالعيال ، يتطلعون جميعاً نحو السماء ويزعقون ويتصايحون ويتزاحمون . . . ويصرخ بعضهم للبعض :

« أهيه . . . أهيه . . . ! » .

ويزداد دوي المدافع . . . ويندفع العيال نحو الكوبري عدواً ويجذبه « بعضشى » جذباً :

« ما تيالله يا ويكا . . . الغارة حاتخلص واحنا عاوزين نتفرج! » .

يترك نفسه « لبعضشى » فيهبط السلم . . . وينغمس وسط العيال فوق الكوبري ، يمر بالطابية . . . لكن مدفعها صامت وعساكرها واقفون . . . وضابطها ينظر نحو السماء دون حركة ، وسيشغى البر الثاني بالسيارات والدبابات والصيحات والأوامر وأكياس الرمال وكرات اللهب . . . والعساكر هنا وهناك . . .

يقطع الكوبري عدواً . . . وهو يسابق « بعضشى » ولا يسبقه . . . ، يتوقف عن الجريان ويتسلق السياج وينظر إلى النيل . . . فيعود إليه « بعضشى » هامساً في أذنه :

« تيجي نروح عند شارلي صاحبك يا ويكا؟! » .

يهز كتفيه . . . ويقول : « لا » . . .

« مش هو صاحبك؟! » .

« ما أنا مخاصمه من زمان! » .

« علشان نجيب سجاير . . . » .

« مش عاوز! » .

« طب حاروح له أنا . . . » .

« ده ابن كلب ، ويلعن أبوه على أبو اللي يروح له كمان! » .

يقولها بحدة وغيظ . . . ويسأله « بعضشى » :

« يعني يلعن أبويا يا ويكا؟! » .

« انت معايا . . . والا معاه؟ . . . » .

يتسلق « بعضشى » سياج الكوبري بجواره ويتدلى نصفه الأعلى نحو المياه ويسمع صوت الطائرة فترتفع عيناه إلى أعلى . . . عند الحقول تبدو في السماء نقطة شديدة اللمعان كأنها نجم يسير بالنهار . . . تتعالى صيحات العيال ويغني بعضشى معهم :

« يا عزيز . . . يا عزيز . . . كبه تاخد الإنجليز! » .

ولو انتهت الغارة وهو في البر الثاني . . . فلسوف يتلقى عم مينا الخبر من البندر . . . ولن يجدوه إذا ما بحث عنه عم سعداوي . . . يتسلق سياج الكوبري مرة أخرى . . . ويسأل « بعضشى » :

« تبقى ابن ملك . . . لو نطيت من هنا لتحت! » .

يسيل العرق تحت إبطيه ويخلو الكوبري من العيال . . . ويستجيب لجذب « بعضشى » وهو يعدو خلفه ليلحقا الضرب قبل انتهاء الغارة ، ولسوف يجلس بعيداً عن المعسكرات . . . حتى لا تصيبه رصاصة . . . أو قنبلة تلقيها إحدى الطائرات ، سيرقب كل شيء ولن يسد أذنيه فصوت المدافع والقنابل لا يخيفه . . . وعند نهاية الكوبري ينعطف يومياً خلف أبيه ويهبطان المنحدر إلى الشاطىء صامتين . . . صرخة أبيه الحازمة في وجه أمه وملامح الوجه في غير غضب :

« **البس هدومك وتعالى معايا يا سيدنا الأفندي!** » .

يومها بدا له الأمر لغزاً لا سبيل إلى حله ، وقالت أمه وهي تخرج بذلة أبيه من الدولاب :

« **حاتروح فين بالولد ؟ . . . يا تفندي؟! . . .** » .

ولم يرد عليها أبوه . . .

« **حا تاخده معاك يا خويا؟! . . .** » .

عيون أخوته المحملقة في وجهه . . . ثم الصوت الآمر :

« **يا ولد! . . .** » .

سار بجوار أبيه عبر الشارع والسوق . . . وبجوار المنتزه . . . ثم انعطف خلفه إلى الكوبري وبدأ الاضطراب يأكله . . . يومها دخن أبوه بلا انقطاع ، وعلى رمال البر الثاني جلس أمامه مطيعاً دون أمر ، أخذ يحملق في الوجه الكبير والشارب الصغير وسحابات الدخان المتطايرة في الهواء . . .

« **إسمع يا ابني . . . انت ما بقيتش صغير ولازم تعرف كل حاجة!** » .

غـاص قلبه بين ضلوعـه . . . وابتلع لعابـه . . . وتهدجت أنفـاسه وران السكون من حولهما فشمل الدنيا كلها . . .

« أنا عارف إيه اللي مضايقك . . . عارف إيه اللي مزعلك! » .

ولـم يستطع حبس الدمع . . . فتركه ينهمر من عينيه ، جرفه الحنين إلى بحر من السعادة بلا نهاية . . .

« يمكن أنا لو كنت ضربتك ما كنتش إنت زعلت كده . . . ما كنتش حزنت! . . . » .

« أصل يا بابا. . . . . » .

نطق نصف النداء وحبست الشهقة نصفه الآخر . . . كان قلبه الذي يهتف هذه المرة والحيـرة تثقل رأسـه . . . فهل يمكن أن يعـرف أبوه مـا يجول برأسه ؟! . . .

الوجه الهادىء والأنف العظيم . . . والعينان الرائقتان . . . والجبهة المنبسطة كشاطىء الرمال الناعمة ، ويأتي الصوت هادئاً حنوناً فيلفـه في عالم غريب . . . الماضي البعيد قبل أن يولد . . . وهل كـان أبوه طفـلاً ذات يوم مثل كل الأطفال ؟!

« أبويا . . . . . . الله يرحمه ويحسن إليه بقى! » .

وسرحت عينا أبيه . . . وساد الصمت لثوان . . .

« أبويا مات وأنا عندي سبع سنين. . . . » .

وتسافر به الحكاية إلى القاهرة والبيت العتيق في القلعة . . . الخال الباشا والأخ الأكبر . . . والأخت . . . والصبي المطرود من المدرسة ذات مساء !

« كنت دايماً أطلع الأول . . . عمري يا ابني ما قصرت في حاجة

وعمري ما سقطت . . . جاني المدرس الإنجليزي ، وكان اسمه سميث وقال لي يا ثابت إنت تعرف حد اسمه عواد باشا؟! » .

الحلم الرهيب قبلها بليلة ، السور العالي والذراعان المتشبثان به والوصول إلى القمة . . .

« كان قبلها بليلة ، أنا فاكر الحلم زي ما يكون حلمته امبارح ، لما طلعت السور لقيت إيد كبيرة طالعة من الناحية الثانية ، راحت زقاني قمت وقعت من فوق السور . . . وصحيت من النوم وأنا باقول : اللهم اجعله خير! » .

مع الابتسامة الحانية أشياء لم يدركها . . . لكنه لم يسأل حتى لا يكف أبوه عن الكلام . . . كيف يطرد الخال ابن أخته من المدرسة حتى لا يصبح مهندساً مثل ابنه ؟! .

« رحت لأخويا . . . قال روح لخالك ، افتكرت كلام المدرس الإنجليزي . . . قلت له مش رايح لخالي وحكيت له الحكاية ، قال لي برضه روح لخالك . . . وكانت دي أول مرة في حياتي أعصي فيها كلام لعمك . . . وعزة الله أول مرة! » .

الرحلة الطويلة من العاصمة إلى الريف بحثاً عن لقمة العيش . . . ومن الريف إلى المدن ، ومن المدن إلى المدن . . .

« وكل شيء مقدر ومكتوب . . . ويوم ما اتجوزت أمك كنت مخلص جمايل الناس علي ، وما كنش حيلتي حاجة ، لكن أمك شالت الحمل معايا من غير ما تشتكي! » .

رغم السعادة والحنين . . . ففي الرأس سؤال بلا جواب ، فهل يستطيع أن يسأل ؟! . . . ولماذا الزواج إذن ؟ . . . لماذا يتزوج كل الرجال

إذا كان الزواج سبب شقائهم ؟!

« كانت الأشياء معدن . . . والحال كويس لحد الحرب ما قامت . . . » .

وهذا هو الذي لا يفهمه بحال . . . لماذا ترتفع أسعار البيض والطعام إذا قامت الحرب ؟ . . . ولماذا يعم الغلاء ويشكو الناس منه ؟ . . . وفي كتاب الجغرافيا مصر هبة النيل ، وأرضها أخصب الأراضي . . . فلماذا لا يجد الناس القمح ؟! . . .

« إنتو بقيتوا أربعة . . . والخامس جاي في السكة . . . والحمل علي بقى تقيل . . . انت فاكر إني ما زعلتش يوم ما لقيت الفلوس معاك ؟ . . . فاكر إنها هينة علي لما انت تبيع بيض ؟ . . . أبداً ، أنا زعلت ، وحزنت ، لكن الحاجة غالية يا ابني ، وبدل ما أمد إيدي كل شهر للسلف والدين ، قلت آهي نواية تسند الزير . . . فاهمني » ؟

لماذا يشعر بقربه إلى الله في الغروب بالذات ؟ . . . ولو صعدت جنية من جوف المياه ساعتها لتخطفه لما أصابه خوف أو فزع ، وهل تستطيع الجنية أن تخطفه وهو مع أبيه ؟ . . . يبدو الأمر كله كحلم لا يأتي إلا في العمر مرة ، وكما زاره النبي في المنام فملامح الوجه العظيم تصفو في تلك اللحظات حتى يضطرب قلبه بحنين يدفعه لأن ينحني على اليد الممدودة فيقبلها !

« وساعة أمك ما قالت اللي قالته . . . الكلام جرحني قبل ما يجرحك . . . أنا فاهمك كويس وعارفك كويس ، إنت ما بقيتش صغير والأعمار بيد الله . . . وإذا جرى لي حاجة النهاردة الحمل عليك حايبقى تقيل ، وراك أربعة وأمك الخامسة . . . لازم تحطهم في عينيك

الاتنين . . . فاهم؟! » .

ينبسط العمر فجأة . . . فإذا هو في الثلاثين أو الأربعين ، لن تكتمل السعادة إلا إذا دخن سيجارة . . . يعود الدمع إلى عينيه فيترقرق الوجه العظيم على صفحته وهو يحجب الشمس الغاربة من خلفه ، ويصنع القرص خلف الرأس هالة من الضياء . . . فإذا هو يشهق بالخاطر المفزع . . . فربما . . . ربما . . . ربما . . . ربما كان أبوه هو الله نفسه !! .

* * * *

يصل مع « بعضشى » إلى المعسكرات عندما تكف المدافع وتدوي صفارة الإنذار لتنهي الغارة ، ويلمح على البعد تشارلي وعلى رأسه خوذة فيصيح « بعضشى » :

« صاحبك أهو يا ويكا . . . صاحبك أهو! . . . » .

يصيبه الاضطراب والغضب والحنين ويتمنى فقط لو علم لماذا فعل معه تشارلي ما فعل . . . وكيف يطرده من أرضه وبيته الرملي الذي بناه مع « أوظة » عند الشاطىء . . . ويرتجف عندما يصيح به « بعضشى » مرة أخرى :

« شارلي يا ويكا . . . شااارلي ! » .

ويلتفت تشارلي نحوهما فيتذكر عم مينا المنتظر للنتيجة أمام آلات التلغراف . . . ينطلق عائداً عبر الحقول إلى الكوبري . . . ويلحقه بعضشى وهو يلهث بجواره :

« ده تشارلي نادى عليك يا ويكا! . . . » .

تتعالى سحابات الغبار تحت قدميه ولا يرد ، فماذا يفعل لو لم يكن ناجحاً ؟!

« وشاور لك وهو بيقلع الطاسة! » .

ولو كان راسباً فلسوف يضربه أبوه حتى الموت ، وربما بعد الموت أيضاً ! .

الطريق المزدحم بالعيال اللاعبين والصائحين ، وعلى البعد ، عند أول الكوبري تدق أجراس الدراجة . . . فكيف استطاع أن يأتي إلى الكوبري بها وهو الذي يخاف من خياله في المياه ؟!

« وله . . . « حامد » أهو يا ويكا . . . تيجي نضربه وناخد منه البسكليت؟! » .

« أنا مش عاوز أضرب حد! » .

« ده بيخاف يا ويكا ، وبيخاف من الغارات! » .

« ما هي « أوظة » بتخاف من الغارات هيه كمان! » .

وتأتي صيحة « حامد » كضربة عصا فوق رأسه :

« ساقط . . . يا ساقط! » .

ولا يرد . . . لا يريد أن يرد . . . حتى وإن رد عليه « بعضشى » . . .

« خواف يا خواف . . . ياللي بتخاف من الغارات! » .

كلمة بكلمة ، وسبة بسبة . . . وعند منتصف الكوبري تتقطع أنفاسه فيبطىء في السير . . . ويجذب شهيقاً عميقاً ، ويتمنى لو استطاع أن ينام الليلة كما نام ليلتها ، أن يعود إلى البيت ليتوضأ ويصلي خلف أبيه . . . ثم يتعشى ويدس نفسه بين إخوته وذراعه تحوطهم . . . في الصباح التالي

ملأ جيوبه بالبيض وغادر البيت . . . واخترق الشوارع . . . وعبر الكوبري . . . وانثنى إلى اليسار نحو المعسكرات وفي قلبه حرارة تدفع قدميه لتسرعا ، تركه أبوه عند الكوبري بعد الحديث ومضى وحده وكان طربوشه في يده ورغم القروش العديدة في جيبه إلا أنه لم يلعب ولم يستأجر دراجة ، وعند منعطف بين الحقول كان يخبىء صندوق سجائر أشعل منه سيجارة . . . وراح يرقب المياه في الليل ، وعندما شهق بالدخان إلى رئتيه لم يسعل فأيقن أنه أصبح رجلاً ، نفث شريط الدخان من فمه فامتلأ قلبه بالرضا . . . يومها تساءل بينه وبين نفسه : هل يستطيع أن يصنع شيئاً من أجل أبيه ؟! . . . كان الجواب في رأسه وهو يسرع بعد الكوبري في الطريق المترب نحو المعسكرات ويداه تحميان البيض في جيبه ، شاهد على البعد البعيد العيال وهم متجمعون عند المعسكر وتشارلي يطردهم بعيداً كالعادة ، فابتسم ، وفي كل يوم يحاول العيال والشحاذون الاقتراب من المعسكر . . . لكن أحداً لا يدخله من غير الإنجليز غيره . . . اقترب مبتسماً وصاح في صديقه بمرح :

« صباح الخير تشارلي! » .

لكن هذا وقف في طريقه . . .

« آسف . . . أمرني الكابتن ألا يدخل هنا أحد من المصريين! » .

« تشارلي!! » .

قالها في دهشة واضطراب وكان قلبه يدق ، ثم أصابه الهلع عندما صرخ الساجن ذو الشعر الأحمر وكان يقف ويداه في جنبيه :

« ابتعد من هنا يا ولد! » .

قد يكون الأمر نكتة . . أو يكون لعبة يريد الساجن مع تشارلي أن يلعباها معه . . . فابتسم وصاح :

« ساجن . . . سينكسر البيض في جيوبي . . . خذوه . . . أو ثم . . . » .

وازدادت ضحكات العيال من خلفه عندما انحنى هذا إلى الأرض والتقط طوبة قذفه بها ، وكادت تصيبه الطوبة . . . لولا أن تقهقر بسرعة ومال إلى اليمين وقد شله الخوف والرعب ووقف جامداً لا يدري ماذا يقول . . . وصاح صبي من خلفه :

« عامل لي أفندي ولابس لي بدلة . . . وجاي تبيع البيض إيه المصايب دي؟! » .

« تشارلي! » .

« بالك هوه بيبيع لهم البيض بس يا وله ، تلاقيهم بيعملوا له حاجة! » .

التفت نحو العيال واختنق صوته . . .

« يا ابن الكلب! » .

« انت اللي ابن كلب! » .

ودوت صرخة الساجن من جديد :

« ابتعد من هنا! » .

ويغلي الغضب في رأسه وصدره وتتدافع الدموع إلى عينيه وهو ينسحب بعيداً عن المعسكر ليقف على حافة الطريق . . .

« ابتعد! » .

« ماذا تريد مني . . . إنني لست داخل المعسكر! » .

أطل الكابتن من الخيمة بشاربه الكثيف فتقهقر العيال إلى الخلف عندما صرخ هذا بكلام لم يفهمه . . . وصاح به الساجن بعدها :

« ابتعد وإلا أطلقت عليك النار! » .

أحس بالفزع وسابت مفاصله وصاح بصوت متقطع :

« **تشاا . . . ر . . . لي! . . .** » .

ثم استدار مبتعداً وأمعاؤه تتلوى بالألم ، والرغبة في التبول تفوق عنده كل رغبة ، والسماء تهوي أمام عينيه لتغطي الأرض بسحاباتها ، وضحكات العيال تختلط في أذنه بنهيق حمار وأزيز سيارة تمضي من جواره مسرعة . . . ثم تغطيه بسحابات التراب ، ومع الدموع التي صعدت إلى عينيه كانت قذائف الطوب تلاحقه . . .

« **يا بتاع الإنجليز!!** » .

ويصيح خلفه ولد آخر بصوت فاجر :

« **تشارلي . . . والنبي يا تشارلي!** » .

ولا شيء حوله ، لا شيء في رأسه ، لا سماء ولا أرض ولا الله ولا الأنبياء . . . إنت ما بقتش صغير ، إنت كبرت ولازم تعرف كل حاجة . . . تشارلي ، البيض يا تشارلي . . . الحمل بقى تقيل علي لو جرى لي حاجة وراك أربعة وأمك الخامسة . . . ابتعد من هنا وإلا أطلقت عليك النار . . . حاسب يا تشارلي ، والنبي يا كابتن . . . وعند حافة النهر بيته الذي بناه مع « أوظة » فوق الرمال وكان لا يزال قائماً . . . إنت ابني وأنا عارفك كويس . . . بالأمس بنى هذا البيت معها ، عندما جذبته من يده إلى ما خلف خيمة الكابتن وقبلته في فمه وطلبت منه أن يقول لها : « يا حبيبتي » فلم يستطع . . . وإذا كان قد ابتعد عن المعسكر والعيال وأوغل فيما بين الحقول وأصبح النهار ساكناً صامتاً فلم لا يطلق للدمع الحبيس العنان ؟ . . . ألم يكن تشارلي صديقه ؟ . . . فلماذا أراد أن يقتله ؟ . . . ولماذا يتوهج كل شيء من حوله . . . ولماذا تحرق الشمس الأرض في كل صيف ؟ . . . ولماذا يعود الصيف دائماً ؟ . . . ولماذا ينتظر

فيه النتيجة ، ولماذا يدخل فيه الامتحان ، ولماذا يصبح عليه أن يتحرك كل ساعة بحساب ؟ . . .

« ويكا . . . ما لك يا ويكا . . . إيه اللي مسكتك كده؟! » .

الرصيف الخالي والهدوء المخيم على الميدان وشيء يعتصر قلبه اعتصاراً ، ليت الصيف لا يعود أبداً ، يتمنى ألا ينجح « حامد » وأن يكون الخبر كاذباً . . . لكن « حامد » قد نجح وحدث ما حدث . . .

« ويكا . . . إنت مخاصمني؟! » .

أبداً . . . وليس الناظر في الخارج ولا عم مينا وإن كانت أصواتهم تصل إليه ، يجلس تحت شجرة ويمدد ساقيه ويتمنى لو استطاع الآن أن يدخن سيجارة . . . ليس سوى « بعضشى » و « أوظه » ولو رسب فسيعايره الجميع إلا هما وسيخيب أمل طنط جانيت ، وقد تحرمه من قبلتها التي تعودت أن تعطيها له في كل مرة تلقاه . . . ويعود « حامد » من البر الثاني بدراجته ليملأ الميدان بالرنين ، ولماذا نادى عليه تشارلي اليوم كما يناديه في كل مرة يراه فيها، ولماذا طرده يومها دون سبب أو ذنب؟ . . . وكيف يستطيع الإنجليز أن يطردوه وهو صاحب البيت عند الشاطىء ؟ . . . وهل يستطيع العودة إليه أو الحديث معه بعد ما سمع ما سمعه في ذلك اليوم عندما عاد إلى البيت بالبيض :

« لو سمعت إنك هوّبت ناحية هناك حاقطع رجلك . . . كفاية علينا كده! » .

تتردد أنفاس « بعضشى » بجوار أذنه وأبوه في البيت ينتظر ، وهل يستطيع العودة إلى البيت لو جاء الخبر بأنه لم ينجح ؟ . . . لماذا لا يهرب ولماذا لا يكسب هتلر الحرب ؟ . . . ولماذا لا تلقي طائراته بكل قنابلها فوق المدينة ، ولماذا لا يميت الله كل الإنجليز ؟! .

* * * *

الفصل التاسع

لماذا يخاف ؟

دائماً يخاف !

إذا لعب خاف العقاب . . .

وإذا تشاجر خاف أن يُهْزَم . . .

وإذا ذهب إلى المدرسة خاف عقاب الناظر . . .

وإذا دخل الامتحان خاف من الرسوب . . .

وإذا قابل الناظر خاف . . .

وإذا رأى أباه خاف . . .

وإذا تذكر الله خاف . . .

وإذا أحب « أوظة » وأراد الزواج منها خاف . . .

حتى « بعضشى » . . . يخاف من اللعب معه . . .

لماذا يخاف ؟!

ولماذا كتب الله عليه أن يخاف دائماً ؟!

ولماذا لا تخاف مثله « أوظـة » ؟ . . . ولا يخاف مثله « حـامد » أو « بعضشى »؟!

متى يموت أبوه ؟!

هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يخاف منـه . . . مع أن كـل الناس ـ حتى « بعضشى » « وواظه » ـ يخافون موت آبائهم !

ولو مات أبوه فلسوف يصبح رجل البيت . . . سيحكم ويأمر وينهى ويخرج ويدخل كيفما شاء . . . سيأمر أخوته بالصمت فيصمتون وبالحديث فيتحدثون ، ومن يعصيه منهم فلسوف يضربه بالعصا ، وسيربطهم جميعاً في السرير بالحبال ، ويدخن أمام أمه . . . ويتزوج « أوظة » إن أراد !

يأتيه نداؤها من بعيد فينتفض ويتنفس ملء صدره ، كان موقناً أنها لا بد آتية ، ولطالما تمنى أن يراها مثل نادية ، نظيفة مثل أولاد الناس . . . وكانت كذلك في أول أيام العيد ، كانت أجمل من كل بنات الدنيا . . . يومها كانت تصرخ فيه كلما اقترب منها حتى لا يتسخ فستانها أو تتكسر آثار المكواة عليه . . . في الصباح لم تركب معه المراجيح ، ولم تلعب معه في الوسعاية ، وعندما دعاها لركوب القارب والذهاب إلى البر الثاني رفضت : « فستاني يا اخويا! » . . . هزت كتفيها وأعطته ظهرها ومضت تعرج في الحذاء الجديد . . . ثم جاء الضحى فاتسخ الفستان وركبت المراجيح ، وتهوش شعرها ، وخلعت حذاءها ، وظلت تعرج . . . ثم ركبا القارب وعبرا النهر واستحما في المياه وعادا معاً آخر النهار بعد أن تزوجا تحت قوائم الكوبري الهائلة !!

« يا اسمك إيه . . . يا اسمك إيه . . . إنت نجحت والا سقطت؟! » .

يملأ صوتها السكون فيهبط « بعضشى » السلم إلى الميدان ليلتقط طوقه ويستقبل « أوظة » وهي تعدو نحوهما بكل عزمها . . . حذاؤها في يدها وقدماها حافيتان وشعرها مهوش وفستانها قد ازداد اتساخاً . . . تغمره الراحة فيستسلم للنسمة الآتية من البر الثاني . . . ويتلاعب « حامد » بأجراس الدراجة ويدور بها في الميدان دورة وهو يصيح :

« البر الثاني . . . يا بتوع البر الثاني! » .

لا يهتم ، ولا يتحرك ولا يشعر بالغيظ ، وعندما تتوقف « أوظة » عن الجري وتلتقط من الأرض حجراً تقذفه به يبتسم ، ثم يضحك عندما يميل « حامد » مبتعداً وهو يردد الجملة بصوته الغليظ . . .

ترتمي « أوظة » عن يساره « وبعضشى » عن يمينه وتجرف أقدامهما تراب الرصيف . . . ثم تهتف « أوظة » به :

« ما تقول يا اسمك إيه . . . انت نجحت والا سقطت ؟! » .

يوم رآهما « حامد » وهما عائدان من البر الثاني كان شعرها ما زال مبتلاً ، وقطرات المياه جفت غير أنها تركت آثارها على وجهيهما ، هب الهواء من كل ناحية فشعر بجسده الملتهب وكأنه يسبح في بحر من الحنان . . . عند منتصف الكوبري كانت « أوظة » تضع يدها حول كتفه ، وكان خده غارقاً في شعرها الرطب . . . ثم طالعها وجه « حامد » فجأة فاغر الفم بارز العينين . . .

« كنتم فين يا وله ؟ . . . كنتم في البر الثاني؟! » .

زجرته « أوظة » فدار حولها مبتعداً ، لكنه أتاه من الناحية الأخرى والتصقت شفتاه بأذنه وجاءه الصوت الغليظ :

« لعبتوا عروسه وعريس يا وله! » .

سبته « أوظة » وسبّت أمه وأباه وقالت له يا ابن الأقرع . . . فلم يهتم ، وراح يلاحقه بالتهديد والوعيد :

« حاقول لأبوك . . . استحميتوا ؟ . . . تاخدني معاك المرة الجاية ؟ طب ودين النبي لانا قايل لامك! » .

كبّله العجز يومها ولاحت له العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين

الحاجبين وكأنه خلق ليرتعد بذكرها ، ولو تشاجر مع « حامد » لوصل الأمر حتماً إلى أبيه . . . والشارع المليء بالناس . . . والكوبري المزدحم بالخلق . . . لكن « أوظة » أنشبت أظافرها في عنق « حامد » وعضته . . . ثم ألقته على الأرض وأرغمته على البكاء . . . وضحكت عليه مع عيال البلدة جميعاً ! . . .

« أمك بتقول إنك جيت تسأل جوز عمتك! » .

يختفي « حامد » بالدراجة في منعطف الطريق . . . وتختفي أجراسها ويصبح السكون لذيذ الطعم . . . ولو شتمه « حامد » أمام العيال ذات يوم ، ولو ضربه وتحداه ، فهل يخاف ؟!

يقترب خدها الساخن المبتل بالعرق من خده وتستند إليه بكليتها قائلة :

« أمك بتقول إنك جيت المحطة تسأل على النتيجة! » .

ولا بد أن أباه يجلس الآن فوق الكنبة خلف شيش الشباك وهو يدخن في انتظاره . . . ولا بد أن أمه تروح وتجيء ما بين غرفة النوم والبلكونة وهي تتمتم بالآيات والدعوات ويدها تحت ثديها الأيسر تمسك بها قلبها ! . . .

« خالة أم سيد كانت عند أم حامد وبتقول إنهم بيفرقوا شربات! » .

ولو رسب بعد هذا لكانت الطامة . . . في بيت « حامد » زغاريد والدنيا كلها عرفت بالخبر ، ولا بد أن كل التفاصيل قد وصلت شارعهم ، ولا بد أن كل بيت يريد أن يعرف . . . ولا بد أن تتساءل الأمهات ويستفسر الآباء ، ولا بد أن تطل الرؤوس من النوافذ وتتحدث عبر الشارع . . . العيال أمام البيوت وهذا موعد بائع الدندرمة . . . أخوته يهبطون السلم

صائحين . . وفي يد كل منهم مليمه . . . لا يريد المزيد ، وصوت أمه يلاحقهم فوق السلم وتحذيراتها تصاحبهم حتى باب الشارع ألا يبتعدوا ، وهي لا بد ستدخل وتغلق الباب وتستند إليه بظهرها وترفع يديها نحو الله داعية بصوت ذليل :

« يا رب . . . يا رب أنت عالم وغيرك ما يعلم . . . تخليك معاه وتنجحه ابن قلبي وحشايا!! » .

الصفارة المشروخة عند النصابة . . . ونداء عم عطية المنغم :

« دندرمة . . . دندرمة يا وله . . . دندرمة يا بت! » .

وسيخرج عم « علي سراج » والد « بعضشى » بكرسيه أمام باب بيتهم ليدخن الشيشة ويلعب في أصابع قدميه ويحدث الرائح والغادي ويرد تحية عابري الطريق . . . لماذا يعرف عم علي كل الناس ؟! وسيأتي حتماً عم ياقوت ويصيح على أبيه من الشارع في مرح :

« يا ثابت . . . وله يا ثابت! » .

هكذا يفعل دائماً ، وهكذا فعل في العام الماضي عندما نجح فجاءهم بالخبر وأذاعه على الشارع بكل صوته ، لكنه اليوم سوف يسأل ، وسيخرج أبوه إلى البلكونة ، وتتوارى أمه خلف الستارة لتسمع ، وسيعرف كل الناس بالحكاية ، وستسأل أم النواجي كل دقيقة إن كان قد وصل من المحطة ، وستدعو له أم أوظة بالنجاح والفلاح ، ويتردد اسمه في الشارع . . . ويتردد اسمه في سكون المحطة ، وتمسك « أوظة » بذراعه . . . ثم تجذبه :

« ما تقوم يا خايب . . . النتيجة ظهرت! » .

يضطرب قلبه وهو يرى عم سعداوي أمام باب المكتب . . . ها هي

اللحظة قد حانت ، إنهم الآن يعرفون ، وعم سعداوي يشير إليه ويصيح :

« جرى إيه يا ابني . . . إنت انطرشت؟! » .

لم يقل له مبروك . . . فلا بد أنه رسب ، ويسأله « بغضشى » بقلق :

« هيه النتيجة ظهرت يا ويكا؟! » .

يبدأ في قراءة الفاتحة وتسري البرودة في جسده ، يعاود عم سعداوي النداء فيرد بصوت مرتجف :

« حاضر يا عم سعداوي! » .

يبتسم الرجل فيداخله الأمل !

« عمي كامل اتكلم من البندر؟! » .

ويخبط الرجل كفاً بكف :

« أيوه يا سيدي اتكلم! » .

يقولها الرجل ثم يختفي داخل المكتب . . . وتصر في أذنيه عشرات الأصوات ، ويلتصق « بعضشى » بجنبه ويهمس :

« ظهرت! » .

وتدق « أوظة » الأرض بقدمها في غضب :

« ما تروح تشوف النتيجة بتاعتك يا خايب! . . . » .

ويتقدم من المكتب وهما بجواره ، « بعضشى » يسأل و « أوظة » تزجر ، وما كان مكتوباً في اللوح المحفوظ قد انكشف . . . فلماذا كان العذاب من البداية ؟ . . . يتذكر الناظر قبل باب المكتب بخطوات . . . فيرتجف ويتوقف ويلتفت نحوهما متوسلاً :

« خليكوا انتو هنا أحسن الناظر جوة! » .

يجمد « بعضشى » في مكانه ويحملق فيه برهة ويردد متراجعاً :

« الناظر؟! » .

وتنتفض « أوظة » ويداها في خصرها ، وتلمع عيناها بالشر :

« وإيه يعني الناظر . . . أنا رايحة هناك . . . حد شريكي ؟ . . . أوعى يالله! . . . » .

ثم تنطلق أمامه نحو باب المكتب لا تلوي على شيء ؟! .

* * * *

الفَصْلُ العَاشِرُ

يـأكله الخوف أكـلاً . . . ويلفـه هـواء المكتب البـارد فيـرتجف ، ويطالعه وجه الناظر وابتسامة عم اسكندر ونـظرات عم مينا الفـارغة . . . تمضي الثواني ولا ينطق منهم أحد فلا بد أنه رسب بالفعل . . .

« جوز عمتك اتكلم! » .

يقولها الناظر وهو يطارد ذبابة بمنشته . . . يخفق قلبه بعنف وتسوخ روحه ويسمع صوت نفسه آتياً من بعيد :

« أنا سقط؟! » .

يقهقه عم مينا بضحكة سرعان ما تتسـاقط بين ركبتيه ، ويقـول عم اسكندر في مرح :

« انت خفت يا جن ؟ . . . أبداً . . . جوز عمتك بعت يسـأل على النتيجة ، ولما يعرف حا يطلبنا! » .

يغرقه العرق البارد وتخرج من صدره زفرة طويلة ، وعندما تحـدث وجد صوته عالياً بالرغم من إرادته :

« يعني أروح البيت والا أستنى هنا لحد ما يقول لحضرتك؟! » .

ويصيح الناظر في وجهه كإنذار :

« انت بتتكلم بصـوت عـالي ليـه يـا ولـد ، هـو ده اللي أنـا علمتهولك؟! » .

يبتلع لعابه ولا يدري ماذا يقول . . . ثم يلاحقه صوت الناظر :

« لا ما تروحش البيت ، محدش عارف يمكن كامل أفندي يطلبنا دلوقت . . . والا إيه يا مينا أفندي ، كلها نص ساعة بالكثير ، والا إيه يا اسكندر أفندي . . . أنا حاطط همي على العفريت ده . . . والمسيح الطاهر . . . أوع يا ولد تبعد عن المكتب والا . . . . . . » .

تتجمد حركات الناظر مع توقف حديثه وحملقة عينيه خلف ظهره عند الباب . . . يتجمد كل وجهه ويبدو عليه القرف وهو يشير بالمنشة :

« إيه ده يا ولد؟! » .

هو لا يرى « أوظة » وإن كان يحس بها خلف ظهره . . . تلعثم وتراكمت الكلمات على لسانه :

« دي . . دي أصلها . . . دي « أوظة » يا حضرة الناظر . . . أوظة؟! » .

يضحك عم اسكندر وتزداد ملامح الناظر تداخلاً حتى يصبح كالأنف الكبير ، ثم تنفرد الملامح ويستبين الوجه ويسأله في قرف شديد :

« مين ؟ . . . « أوظة » دي إيه ؟ . . . حضرتك بقيت بتاع شوارع . . . دي أشكال يا أفندي تمشي معاها؟! » .

يسود الصمت فترتد رأسه إلى الخلف ليرى أوظة ووجهها ينذر بالشر ، يتلو في سره ما حفظ من آيات ، ويدعو الله أن يمنعها من الرد على الناظر . . . ثم ينقذه صوت عم اسكندر :

« يالله يا ابني روح العب ولا يهمك . . . والعدرا انت ناجح ! » .

يستدير مستجيباً ليرى وجه « أوظة » وقد استولت عليه الدهشة فغيرته ، يسير مقترباً منها حتى يصطدم بها عن عمد ، ولا يلتفت وراءه إلا عندما يغادر المكتب ويبتعد عن بابه . . . وكانت « أوظة » خلفه تماماً . . . تلتقي عيناها بعينيه فتصيح في وجهه :

إن شاء الله ينطس في نني عينه الناظر بتاعك . . . يا رب أبوه يموت! » .

بالرغم من يقينه أن أبا الناظر قد مات منذ زمن ، فإن الخوف يعتريه . . . يجذبها من ذراعها ويعدو بها نحو « بعضشى » الذي يأتي إليهما عدواً وهو يصيح :

« ويكا . . . ويكا . . . نجحت يا ويكا؟! » .

يلتقي بهما في منتصف الطريق وكانت « أوظة » تصرخ فيه أن يترك ذراعها ، لكنه لا يتوقف ، فظل يعدو مبتعداً وهي تقاومه وتسبه وتسب الناظر . . . لم تتحول إلى أبيه وأمه وتسبهما رغم أنهما أقارب ، يصلا إلى سلم المحطة ليلحق بهما « بعضشى » وتجذب « أوظة » ذراعها من يده صارخة فيه :

« إن شالله إيدك تنقطع ! » .

« أهو انتي! » .

« إن شالله يطسك وابور ! » .

« أهو انتي واللي خلفوكي كمان! » .

« يا رب تسقط! » .

لا يرد . . . ولا يقول لها شيئاً ، يحس بالحيرة . . . لكنه لا يحس بالغيظ ، كان صوته عالياً وكان غاضباً منها أشد الغضب ! ولكن . . . هل من الممكن أن تتمنى له « أوظة » أن يرسب ؟!

« الله يسامحك! » .

يقولها حزيناً متجهاً نحو قطعة الحجر الملساء بجوار الزير ، يجلس ويمدد ساقيه ويتساءل عن سر هدوئه الشديد ، ولو قالوا له الآن أنه رسب بالفعل فلن تهتز في رأسه شعرة . . . لن يحزن ، سيحبس نفسه في البيت

ويذاكر ليل ونهار . . . ولن يخرج أبداً . . . سيقتل نفسه كي ينجح وينتقل إلى المدرسة الثانوية في البندر ويغادر البلدة بما فيها . . . يختفي « حامد » بدراجته ويخلو ميدان المحطة من الناس فيحس بشيء من الراحة ، سيسافر حامد كل يوم في قطار الصباح وسيعود في قطار المساء. . . فماذا يكون مصيره هو؟!. . . ويلوم «بعضشى» «أوظة» ويطلب منها أن تصالحه فهو زوجها، وتخرق أذنيه كلماتها الغاضبة وهي ترفض.

قالت له بالأمس وهما غارقان في تلال الرمال أنها تدعو له كل فجر بالنجاح . . . فلماذا دعت عليه بالرسوب إذن ؟!. . . ولماذا تجعدت ملامح الناظر بالقرف عندما رآها ؟!. . . ولماذا تتحدث أمه عن أهلها بكبرياء ؟!. . . هي ترفض الصلح وتضرب الأرض بقدميها وتسبه أيضاً وتسب الناظر رغم أنهما تزوجا بالأمس وأول أمس . . . لكنه لن ينسى المرة الأولى أبداً . . .

ماذا لو مات زوج عمته قبل أن يعرف النتيجة وقبل أن يخبر بها عم مينا ؟!. . . يشمئز من نفسه ويستغفر الله مرات ومرات . . . ثم يسمع صوت « أوظة » فوق رأسه حاداً قاطعاً :

« اشمعنى هو يشتمني؟! » .

يقترب منها « بعضشى » ويقف قبالتها ويكاد يلتصق بها فيشعر بالضيق :

« مش الناظر بتاعه؟! » .

« وأنا مالي! » .

« هوه كمان مش بيحب الناظر. . . » .

« وأنا مالي! » .

« هوه الدم يبقى مية؟! » .

« اسم الله . . . أنـا مـاليش دعـوة ، شتمني ، والـلي يشـتمـني أشتمه! » .

« مش انتو قرايب؟. . . . » .

« فيه واحدة تعمل في جوزها كده؟! » .

« مش جوزي . . . هوه بالعافية ؟. . . أنا حاتجوز واحد تاني! » .

كلما نظر إليها أحس بالفرح يغمره ، وكلما ازداد غضباً ازداد بـريق عينيها الخضراوين . . . هو لم يطلب منها الزواج ، هي التي طلبت منـه في أول مرة وقفت فيها أمامه عارية في البـر الثاني . . . الشمس المـائلة خلف الكوبري . . . والظلال المنتشرة فوق الرمال من حولهما . . . هبت نسمة هواء أنعشتـه فخلع حذاءه وألقـاه بجوار حـذاء « أوظة » عنـد سفح كثبان الرمال . . . أدلى قدميه في المياه . . . اقشعر بدنه بلذة عنيفة . . . فصـرخ . . . كان قـد طاوعهـا فعبرا الكـوبري ثم استـدارا هابـطين نحو الشاطىء الرملي بعيداً عن معسكرات الإنجليـز . قطعـا السـاحـل الرملي عـدواً نحو الميـاه ، مـرات قليلة تلك التي استحم فيهـا في النهـر ، ولا يستحم في النيـل والتـرع إلا أمثـال « عبـورة » . . . و « النـواجي » . . . و « زيد » ابن خالة زليخة الغسالة . . . يبولون دماً ويذهبون إلى المستشفى ليُحقنون . . . ويحكي عنهم عم رزق كثيراً في سهراته مع أبيه . . .

« البلهارسيا بتاكل عمر الولاد يا ثابت ، أوعى ابنك ينزل المية والا يروح ناحية الترع! » .

هو أول من يعلم مصيره لو أصيب بالبلهارسيا أو علم أبوه أنه استحم في النيل ، حتى ولو جاءت سليمة ولم يَبُلْ دماً ، فلن يكون العقاب يومئذ الركل . . . والضـرب . . . والشتم . . . والإهانـة . . . وسماع الجيـران لصراخه . . . سيكون العقاب ويلاً لا سبيل لعقله أن يتخيله ، وليس عليه

إلا أن يخاف دائماً . . . وأن يظل خائفاً . . .

ابتسمت له « أوظة » وهي تقبض على يده تجذبه معها نحو المياه فأطاع ، كان يستطيع أن يرفض لو أراد حقاً ، لكنه أراد حتى ولو كانت العلقة بسيخ محمي في النار ، لا سبيل لتجنب العقاب يوماً أو آخر . . . أقل هفوة تضعه تحت ضغط عذاب متصل ، ومنذ ذلك اليوم الذي حدثه فيه أبوه فوق الرمال لم يسمع منه كلمة حلوة ، وفي اليوم التالي عادت ريمة إلى عادتها القديمة ، فليقع العقاب إذن وليحدث ما يحدث . . . ترى . . . هل ينجح ؟!

« تيجي نعوم؟! » .

قالتها « أوظة » في ذلك اليوم وهي تبتسم له مقتربة منه ، وتلاعب هواء الغروب الدافىء بشعرها فتطاير وداعب خده ، وتنهد . . . وتمنى لو استطاع أن يقبلها ، تمنى ذلك حتى كاد يفعلها ويصبح مثل « بعضشى » ويدخل النار . . . ودهمته نظراتها الخضراء فتراجع ، كانت عيناها واسعتين جسورتين وكان يخافهما ويحبهما بكل قواه . . . بحث عن صوته عندما لاحقته بالسؤال مرة أخرى :

« ما تيجي نعوم يا اسمك إيه؟! » .

قال لها وهو يهز كتفيه ويغمره الخجل :

« أنا ما اعرفش أعوم! » .

« آني نعلمك! . . . » .

« أصل . . . أصل المية غويطة! . . . » .

« دنا بنعدي للشط الثاني! . . . » .

« من غير ما تغرقي؟! . . . » .

« ده العوم كدهه يا عبيط . . . ده أسهل حاجة في الدنيا! » .

« صحيح؟! . . . » .

« وحياة المرسي أبو العباس وإن شالله انطس في عنيه! . . . » .

ماذا بعد الموافقة ؟ . . .

« يالله يا اسمك إيه . . . يالله! » .

كانت أسبق منه للإجابة عن السؤال الذي دار بخلده ، راحت تخلع ملابسها جميعها فاضطرب . . . ثم غمرته السعادة والدهشة وهو يرى ساقيها تتعريان أمامه حتى نهايتهما . . . كانت « أوظة » بيضاء رغم أن وجهها أسمر ، ارتجف بالفرحة فراح يخلع ملابسه على عجل ، وعندما أصبح عارياً أحس بالخجل فداری نفسه وغسل الهواء صدره وظهره وبطنه فأغمض عينيه بنشوة طاغية ، واندفعت « أوظة » نحو المياه عارية كما ولدتها أمها ، ولم تكن خجلانة . . . اندفع هو الآخر خلفها حتى غطت المياه ركبتيه فتوقف . . . راحت تضرب المياه بذراعيها وقدميها وتبتعد موغلة نحو الداخل وهي تنادي عليه :

« تعالى يا اسمك إيه! . . . » .

وارتعد . . .

توقفت « أوظة » في المياه وأخذت تضحك عليه فضحك معها بأعلى صوته ، ضرب المياه بذراعيه وارتجف عندما غمرته قطراتها المتناثرة من حوله . . . اندفعت تسبح نحوه حتى اقتربت منه وسارت خطوتين والمياه تتساقط من وجهها وشعرها ، ثم وضعت يدها على كتفه وكانت تبتسم ، ارتجفت وبرقت عيناها ثم همست :

« إنت اسمك إيه؟! » .

وقبل أن ينطق اسمه ، وقبل أن يفتح فمه دفعته بيدها فسقط على ظهره في المياه ، تعالت ضحكاتها وتقلب جسده في المياه وحاولت

« أوظة » أن تركب على ظهره . . . انتابه الخوف قـاهراً . . . لكن ملمس الأرض تحت يديه وقدميه بعث إلى نفسه الاطمئنان . . . كـانت « أوظة » تضحـك وكان هـو يضحـك معهـا ، أحس فجـأة أنـه سعيـد لـدرجـة لا تحتمل . . . تذكر أباه فلم يهتم وراح يضرب المياه بيديه وذراعيه وتعالت في الجو صيحاته . . . ثم سمع صوت « حامد » ونداء « بعضشى » . . . لكنهما لم يظهرا فوق الكوبري ولم يهبطا إلى الشاطىء . . . دق قلبه وهو يلعب معها ويدفعها ويترك نفسـه لدفعـاتها وأحس وكـأن في صدره فـرقة مـوسيقى المركـز تعزف لـه وحده . . . تـذكر الله والأنبيـاء والجنة والنـار فـابتسم . . . اقتربت منـه « أوظة » وأخـذت تعلمه العـوم فلم يخف ولم يتراجع . . . مالت الشمس أكثر واقتربت من حافة الأفق فأحس بـالبرد ، وكانت المياه دافئة . . . ارتعد فكه الأسفل واصطكت أسنانه فصاح بصوت مرتجف :

« أنا خارج! » .

وراح كل منهما يرتدي ملابسه . . . وكـانت « أوظة » هي الأخـرى ترتعد . . . ثم جريا معاً نحو الكثبان وألقيا بنفسيهما فوق الرمال وتمرغا في الرمال الدافئة . . . ثم التفتت نحوه « أوظة » فجـأة ، وصوبت إلى عينيـه نظراتها الخضراء . . . وصاحت :

« تتجوزني يا اسمك إيه؟! » .

هز رأسه موافقاً وقلبه يضطرب بالسعادة ، فعاجلته قائلة :

« يالله نقرا الفاتحة؟! » .

وكانت كفها ممدودة في انتظار كفه !

* * * *

الفصل الحادي عشر

يدفعها « بعضشى » نحوه فتمد إليه كفها وقد فردت أصبعيها السبابة والوسطى قائلة :

« صالحني! » .

يرفع إليها عينيه وتنتابه الرغبة في البكاء . . . فكيف تستطيع أن تخاصمه ؟!

« بنقول لك صالحني يا اسمك إيه . . . أنا مصالحاك! » .

يمد إليها أصبعيه ويلامس بهما أصبعيها ثم يرفعهما إلى شفتيه ويلصقهما بهما دون صوت . . .

« مش حاتبوس ؟ . . . مش حاتصالح؟! » .

وتظل كفها معلقة في الهواء دون أن تقبل أصبعيها في انتظار علامة صلحة . . . ويُقبل أصبعيه فتقبل أصبعيها ويصيح بهما « بعضشى » في مرح :

« يالله نستحمى بقى يا ويكا! » .

ولا يرد على « بعضشى » فقد جلست « أوظة » على الأرض تحت قدميه وحذاؤها مدلى بين أصابعها وكأن شيئاً لم يحدث . . . ترفع إليه عينيها ثم تسأله في شك :

« حا تنجح والا حاتسقط؟! » .

ويلاحقها « بعضشى » :

« إن شاالله ناجح بإذن الله . . . مش كده يا ويكا؟ » .

وتقول « أوظة » :

« أنا ما يهمنيش! » .

« ما هو انت بنت . . . لكن هو ولد! » .

« مانا سقطت السنة اللي فاتت ، وكنت في سنة تانية! » .

تتنبه كل حواسه فيسألها :

« باباكي ضربك؟! » .

وتنفجر عيناها بالغضب وتضع يدها في خصرها وتصيح به :

« إن شاالله اللي يضربني تنقطع إيده! » .

« حد يقول كده على باباه؟! » .

« هوه أنا أبويا زي أبوك . . . دانا لما سقطت إداني قرش صاغ . . . وجاب لي لب وحمص وكراملة وجيلاتي كمان! » .

يصدقها على الفور . . . فهو لم يسمع مرة أن « أوظة » قد ضُربت يبدو له أن الأمر غريب ومحير فيهرب من عينيها إلى الرصيف الخالي ، وتسقط نظراته فوق قضبان القطار اللامعة ، وتنزلق فوقها بسرعة بسرعة حتى تلتقي جميعاً عند الأفق . . . كم يحب السفر !

ولا يزال الرصيف خالياً من الناس ، ولا تزال موائد البوفيه كما هي ، كل شيء هامد ساكن فلا صوت سوى طنين الذباب الطائر من حولهم ، وحفيف لهب الشمس الحارق . . . ويسيل العرق خلف أذنيه وتنزلق قطراته على عنقه . . . فلماذا لا يذهب إلى عربة القطار الخالية ليتمدد في بيته مع أوظة . . . العربة مقفلة الأبواب . . . لكنه يعرف الطريق إلى داخلها خلال الشباك المكسور ، يريد أن يأخذ « أوظة » إلى

بيتهما هناك . . . لكنه يخشى أن يعرف « بعضشى » سرهما . . . تمرق قطة من باب المكتب إلى الرصيف فيبدو له الباب كفوهة بئر تسكنه العفاريت . . . قالت له « أوظة » مؤكدة ومقسمة أنها رأت جنية ذات يوم تستحم في النهر ، فدهش . . . وسألها كيف لم تخطفها الجنية ؟ . . . وسخرت منه « أوظة » ضاحكة :

« هوه أنا صبي يا ابني . . . الجنيّة بتخطف الصبيان علشان تتجوزهم وتسكنهم معاها تحت المية . . . وبعدين تسمنهم وتاكلهم هي وأولادها! » .

القصور الذهبية . . . وريش النعام . . . والزمرد والياقوت . . . مع النعيم في حياة الجنيات ، ولو كانت النهاية أن يتحول إلى طعام ، فلماذا لا تخطفه جنية ؟! . . . البيت المهجور في شارعهم مسكون بالعفاريت وقد سمعتهم أمه ذات ليلة كان أبوه فيها مسافراً . . . وفي الصباح كانت تحكي لأم أوظة من البلكونة :

« صوتهم يا اختي زي صوت المعيز ، ورجليهم عمالة تخبط فوق سطح البيت رايحة جاية . . . وفضلوا على كده لمّا الفجر ما قاله الله أكبر! » .

صدق أمه كما صدق « أوظة » ، وكان يسهر في الفراش حتى ينتصف الليل ويصبح للسكون تلك الرائحة التي تخنقه ، وكان يزحف متسللاً إلى الصالة على أطراف أصابعه حتى لا يسمع خطواته أحد ، ويدق قلبه ويغص حلقه بالرعب . . . لكنه يريد أن يرى . . . يخرج إلى البلكونة في عز الليل المظلم وحده ، ويقبع في عز البرد ويرتجف بالخوف والهلع والمصير المجهول في انتظار رؤيته للعفاريت ورؤية العفاريت له ، لكنه أبداً لم يرها ولم يسمعها . . . ورأت « أوظة » الجنية « في لفحة

الضهرية! » ، فذهب إلى الحقول البعيدة عند أطراف البلدة ، وجلس وحده على الشاطىء والشمس في منتصف السماء تماماً ، وانتظر الجنية أياماً بعد أيام . . . لكنها لم تظهر !

« مالك ساكت كده يا اسمك إيه؟ » .

تقولها « أوظة » فيبتسم لها ويتنهد ويفتح فمه ليحدثها عن العفاريت فيلمح رأس عم سعداوي تطل عليهم من باب المكتب لثوان ثم تختفي . . . يعود قلبه إلى الخفقان وتقف الكلمات في حلقه ، فلا بد أن عم كامل يحدث الآن عم مينا بنقرات الآلة الصفراء ، ولا بد أن عم سعداوي كان يتأكد من وجوده . . . وينتفض « بعضشى » من رقدته على أرض الرصيف بجواره وقد انتابه القلق والضيق :

« حا تستحمى بقى يا ويكا . . . الدنيا حر قوي! » .

وتهتف به « أوظة » وهي تهب واقفة :

« يالله نروح البر التاني! » .

ترى . . . كيف سيصبح شكله عندما ينجح ؟! وإذا سار في الطريق الممتد فيما بعد ميدان المحطة سيصل إلى صالون فاروق ومن بعده قهوة خرسيتو ، فإذا انعطف إلى اليمين سيجد عم ياقوت جالساً في ظل دكانه مع عم رزق في انتظار أبيه ، ولا بد أنهما الآن يتحدثان عن النتيجة . . . الشارع بمقاهيه ودكاكينه حتى الناصية . . . ودكان محجوب الفكهاني . . . ولقد نجح ابن محجوب في العام الماضي وذهب إلى مدرسة الصنائع وخط شاربه تحت أنفه وأصبح يسافر كل يوم إلى البندر ويدخن السجائر في الشارع دون خوف ، فمتى يأتى دوره ؟!

« ما تقول بقى يا اسمك إيه . . . مالك ساكت كده؟! » .

يبدو « بعضشى » حولهما بطوقه وهو يقلد صـوت القطار مـرة . . . والسيارة مرة أخرى . . .

« انت لازم خايف تسقط؟! » .

ولا بد أن الجميع داخل المكتب يستمعون لنقرات آلة التلغراف في صمت وانتظار ، وعما قليل سيناديـه عم سعداوي وينبئـه بالخبـر ، فماذا يفعـل لو كـان راسباً ؟!. . . تعـود « أوظة » إلى الجلوس بجـواره وتضع خدها المبتل بالعرق فوق ركبته وتضحك على « بعضشى » وهو يقلد بائع الـدندرمـة . . . وبعد دكـان محجـوب الفكهـاني يمتـد السـوق بغلقـانـه وعرباته ، ورائحة الخضار واللحم وبخار الخبز الساخن ، وما زال الوقت مبكراً فالإنجليز لا يظهرون في البلدة إلا مع نسمـات العصر . . . شـاهد نشارلي مرة في البار المواجه لبيت طنط جانيب ، وعندما ابتسم لـه وناداه لوى عنقه ومضى في طريقه دون أن يرد ابتسامته وسمعه ينـادي عليه مـرة أخرى ، وثانية ، وثالثة ، ورابعة فأطلق لساقيه العنان ودخل البيت .

« ويكا . . . ويكا . . . البكيت جه . . . البكيت أهه. . . » .

وينتفض ملتفتاً وتدير « أوظة » رأسها نحو بداية الرصيف من ناحيـة المزلقان . . .

« وإيـه يعني البكيت ، يلعن أبوه ابن كلب . . . ده أبـويـا بيقـول تلاقيه بيشتغل خدام في بلدهم! » .

عند أول الرصيف كان البكيت يسير بقبعته الحمراء والشريط الأحمر حول ذراعه وقدماه تدقان الأرض . . . وعيناه تنفثان الشـر ، وكل النـاس يعلمون أنه يحب ابنة خريستو صاحب البار ، ولقد رآه معها عدة مرات في

الظلام خلف الطابية ، وقال أبوه ذات مرة إنه سيتزوجها ويأخذها معاه إلى بلاد الإنجليز بعد انتهاء الحرب ، وإذا كان البكيت يعمل خادماً في بلاد الإنجليز . . . فكيف يفعل كل ما يريد دون أن يعترض طريقه أحد . . . وجهه الشديد الاحمرار . . . وأنفه الكبير . . . وعيناه الزرقاوان . . . وحتى عساكر الإنجليز يخافون منه ويعملون له ألف حساب ، يقف « بعضشى » في مكانه جامداً محملقاً وتعتدل « أوظة » في جلستها وتتشبث بساقه فقد وقف البكيت عند البوفيه . . . وراح ينظر نحوهم ، ويهمس « بعضشى » بصوت مرتجف ! .

« ده كان في البلد من شوية يا ويكا . . . بيقولوا فيه حاجات اتسرقت وحايفتشوا البيوت! » .

وتظهر ماريكا صاحبة البوفيه من الداخل . . . فيبتسم « البكيت » ويختفي خلفها ويعود كل شيء إلى حاله ، وإذا فتش « البكيت » كل بيوت البلدة . . . فهل يستطيع أن يفتش بيتهم ؟ . . . لماذا يخاف الناس من الإنجليز ؟ . . . ولماذا يفعل الإنجليز كل ما يريدون ؟ . . . ولماذا يخطفون الفتيات في الإسكندرية كما تقول « أوظة » ؟! . . . ولماذا لا يأمرهم الملك بأن يتركوا البلدة ؟! . . . ولماذا يستطيع البكيت أن يفعل كل شيء ؟ . . . ولماذا يخافه الكبار والصغار . . . ويقدم له خريستو الخمر بلا ثمن كما يقول أبوه ؟! . . . زحام السوق والهرولة والصرخات . . . ولكمات البكيت المنهالة فوق وجه جابر ابن الجزار ، الضربات الموجعة والمدى الحادة وصنج الميزان والعصى . . . والجسد الملقى فوق الأرض مذبوح الوجه ، والدم السائل بغزارة ، والناس تهمس وتتراجع : « بيقولوا إن جابر سرق صندوق شاي!! » .

الخوذات والسيارات والصفارات والصرخات . . . طلقات

الرصاص تدوي في عز النهار ، الذعر والخوف والدكاكين المغلقة وأقدام الناس تلهف الأرض والشوارع الخالية . . . وهو يعدو بين السيقان إلى بيتهم ، يدفعه رجل يجري ويدوس فوقه آخر ، لكنه ينهض . . . وعند نهاية السوق وقف العجلاتي والحداد وفي أيديهم قطع الحديد ودماؤهم تسيح وملابسهم ممزقة ، يدلف إلى شارعهم مرتعباً ويعدو صارخاً فيسأله الحلاق . . . وتطل زوجة الكناري . . . وتصرخ أم النواجي . . . ويغلق بيت عم علي سراج . . . وفي النهاية بيت الفرازي صامتاً . . . وكل النوافذ مغلقة ، ومن عند ميدان الكنيسة هبت الأحذية الغليظة ورأى النار في فوهات البنادق ودوت في أذنيه طلقات الرصاص وصرخات النسوة . . . ونحيب العيال ، ثم ماتت الدنيا من حوله في الصمت فبال على نفسه . . . وتعالت صيحات الجنود في الشارع . . . وقال أبوه من خلف النافذة المغلقة :

« سكرانين في عز الضهر . . . سكرانين!! » .

في تلك الليلة عم البلدة ظلام دامس ، ولم يخرج أبوه من البيت ، ولم تفتح أمه النافذة . . . وفي الصباح التالي لم يذهب إلى المدرسة . . . فامتلأ بالسرور ، ثم بكى عندما انطلقت أم بعضشى بالصوت مولولة ، ورأى جثمان « عبورة » شقيق « بعضشى » محمولاً في النعش وكل الناس تبكي . . . وسمع أمه تهمس :

« بيقولوا لقوا في جتته عشر رصاصات يا ثفندي؟! » .

وبدا له أن أباه لم يسمع حديث أمه ، بدا يومها شارداً . . . ودخن كثيراً . . . وكان يتمتم محدثاً نفسه طوال اليوم ، ولم يذهب إلى عمله ، ولم ينم بعد الغداء ، ولم يعد إلى البيت إلا عندما خرجت الجنازة . . . وعاد من المقابر ليجده جالساً مع « بعضشى » عند باب البيت ، فلم

يغضب ولم ينهره ، بل أخرج من جيبه قرشين وأعطى لكل منهما قرشاً ، ثم ربت على رأسه وهو يقول :

« روحوا العبوا يا اولاد . . . روحوا العبوا! » .

وكان الذي أدهشه وأقلقه ، أن عيني أبيه كانتا منتفختين ، وبدا له أن أباه كان يبكي ! . . . ترى . . . هل ينجح ؟! ترى . . . هل ينجح ؟!

* * * *

الفصل الثاني عشر

ماذا لو كان الخبر غير صحيح ؟! . . .

يتكأ بجوار باب المنتزه . . . ثم يتوقف عن السير . . . ويفكر في الدخول ! . . .

تمطره « أوظة » بالأسئلة ، ويلح عليه « بعضشى » أن يجيب وقد بدت عليهما الحيرة . . .

« مش كنت بتقول إنك ناجح يا ويكا؟! » .

يهز رأسه بالإيجاب ، ولكن . . . ماذا لو كان الخبر غير صحيح ؟!

« مش حا تروح تقول لأمك يا اسمك إيه ؟ . . . انت لازم سقطت وبتكدب علينا! » .

يستدير نحوها وينظر في عينيها وتتراكم الكلمات على لسانه ، ولكن ماذا تقول ؟!

« وقفت ليه يا ويكا ، مش النتيجة ظهرت ، مش حا تروح البيت؟! » .

يغلق فمه دون إجابة . . . وتصيح « أوظة » في انفعال وحدة :

« انت لازم ساقط! » .

ويقترب منه « بعضشى » :

« ما لك يا ويكا . . . مش إحنا اخوات؟! » .

« ولا يعرف ماذا يقول . . . فماذا لو كان الخبر غير صحيح؟! » .

وعندما نـاداه عم سعداوي ، وعنـدما دلف من بـاب المكتب . . . تـرك وراءه « أوظة » و « بعضشى » معـاً على الرصيف . . . في الـداخل كانت الوجوه الأربعة تفتر شفاهها عن ابتسامات بلا معنى ، ينـظرون إليه جميعاً ثم ينظر كل منهم إلى الآخر ، ويشرئب الناظر بعنقه نحـو الخارج ولا بـد أنه رأى أوظـة « وبعضشى » في انتظاره ، فصـاح بصـوت كلسـع خيرزانته :

« دي أشكال تمشي معاها يا ولد؟! » .

أُرتج عليه ورفع عينيه إلى عم اسكندر مستنجداً ، وازدادت ابتسامة هذا اتساعاً ، لكنه لم يقل شيئاً . . . فما الذي حدث ؟! . . . وعاد صوت الناظر يشق هواء المكتب :

« تلميذ في ثانوي يمشي مع عيال صياع بالشكل ده ؟ . . . وحافيين وهدومهم مقطعة؟! » .

ارتجف قلبه بعنف حتى ضربت دقاته سقف حلقه . . . جف لعابه وسرت في بدنه رعدة . . . يقول الناظر : « تلميذ في ثانوي . . . » .
فلا بد أنه نجح !

ماذا يفعل ؟ . . . هل يضحك ؟ . . . هل يبكي ؟ . . . هل يصـرخ فرحاً ؟ . . . ها هي اللحظة قد جاءت . . . فمـاذا عليه أن يصنـع ؟ . . . ارتجف وتدفقت الدماء إلى وجهه فالتهب خداه ، وفشلت كل جهوده في السيطرة على ركبتيه المرتعدتين ، ثم حجبت دمـوعه وجـوه الأربعة . . . وأتاه صوت عم مينا من بعيد :

« جوز عمتك اتكلم دلوقت! » .

ظهرت النتيجة إذن . . . وانكشف الغيب . . . فلماذا يصمت الرجل ولماذا تنصهر ملامحه ثم تسيل على بعضها البعض، ولماذا لا يبتلع دمعه . . . ولماذا لا يبتسم ؟!

« وبيقول إن واحد صاحبه كلمه في التليفون وقال له إنك نجحت! » .

« والنبي يا عم مينا ؟ . . . والنبي؟! . . . » .

قالها بفرح . . . واحتقنت رأسه بالدماء أكثر ، ولاحقه صوت الناظر :

« إسمع الكلام للآخر يا ولد! . . . » .

لم يفهم شيئاً وإن أذعن للأمر عن رضا . . . وعاد مينا إلى الحديث :

« ده صاحبه اللي بيقول . . . إنما هوه نفسه مش متأكد لسة ، وبيقول إنه بعت يشتري الجرنان علشان يعرف بنفسه ويتأكد . . . ولما يعرف ، حا يكلمني! . . . » .

ما معنى هذا كله ؟ . . . هل هو ناجح أم راسب ؟! . . .

ترددت عيناه فيما بين الوجوه متسائلاً في حيرة . . . والتفت إلى عم اسكندر متلهفاً عندما صاح به :

« مبروك يا جن . . . والعدرا أنا قلبي كان حاسس! . . . » .

وشق الناظر هواء المكتب بمنشته ، ثم نهض من مقعده صائحاً :

« بس المهم المجموع . . . عايزين مجموع عالي علشان اسم المدرسة! . . . » .

وازدادت به الحيرة . . . فسأل وروحه تهرب منه :

« يعني أروح أقول لبابا إني نجحت؟! . . . » .

« تقول له إن جوز عمتك مش متأكد! » .

« يعني أقول لبابا إن. . . . . . . » .

وقاطعه عم اسكندر :

« يا ابني روح قول له عايزين الشربات . . . بلا وجع دماغ! » .

ورد الناظر بحزم :

« لا يا اسكندر أفندي . . . الدقة مهمة جداً في نقل الرسائل . . . أنا دايماً أعلم تلاميذي الدقة . . . زي الإنجليز تمام . . . والراجل بيقول إنه مش متأكد . . . إنما يظهر إنه نجح . . . صحيح دي أنباء طيبة ، إنما مش دقيقة . . . زي البلاغات الحربية بتاعة الأيام دي!! » .

وضحك الناظر فجأة ، فضحك معه الجميع . .

وهذه المرة الأولى التي يرى فيها وجه الناظر ضاحكاً أو مبتسماً ، واستمرت ضحكاتهم تجلجل من حوله ، وقال له عم سعداوي : « مبروك يا ابني . . . ربنا أكرمك علشان خاطر أبوك! » . . . ووجد نفسه يضحك مع عم سعداوي بالرغم منه ، حاول أن يوقف الضحك فلم يستطع ، ظل يضحك ويضحك حتى دمعت عينا الناظر لكثرة الضحك فارتجف قلبه بالسعادة ، واختلطت الضحكات في أذنيه بدقات قلبه التي كانت تهدأ لحظة بعد أخرى لأن أحداً لم يعترض على ضحكه ، ولم يقل عنه أنه قليل الأدب ، فلا بد أنه نجح بالفعل . . . وبدا وجه الناظر جميلاً وهو يضحك ، وازداد جمال الوجه ألوف المرات وهو يميل نحوه قائلاً بمرح :

« يالله يا ولد . . . إجري بشر والدك . . . مستني إيه؟! » .

لسعته شعيرات المنشة على ساقيه . . . لكنه لم يتألم . . . قفز من

مكانه مستديراً وعبر الكابينة وواجه عند الباب أوظة وبعضشى . . . ثم أمسكت به صيحات الناظر :

« قول لوالدك إني أنا واسكندر أفندي جايين نشرب الشربات يا ولد! . . . » .

راح يعدو فوق الرصيف بكل قواه فلم تلحق به « أوظة » ولا بعضشى ، أخذ يصرخ في الفضاء بكل صوته :

« أنا نجحت . . . أنا نجحت ! » وسمع صياح أوظة من خلفه :

« صحيح نجحت يا اسمك إيه . . . طب احلف . . . » .

ورد عليها « بعضشى » وكلماته تتمزق :

« أنا كنت عارف . . . ودين النبي أنا كنت عارف! » .

ويجري . . . ويجري . . . ويجري . . . ويصرخ . . . ويصيح :

« أنا نجحت . . . أنا نجحت . . . يا رب! . . . » .

يقطع الرصيف ويهبط السلم إلى الميدان الصغير ولا يجد هناك أحداً فيصرخ إلى السماء :

« أنا نجحت . . . أنا نجحت! » .

وعند بداية سور المنتزه لمح عم فرج الشيال جالساً في ظل شجرة وقد أخلد إلى النوم . . . واستند بسنمه إلى السور ، فصرخ به دون أن يتوقف :

« أنا نجحت يا عم فرج! » .

فتح الرجل عينيه وابتسم وقال كلاماً لم يسمعه ، فبالقرب من باب المنتزه كان حامد يدور بالدراجة وهو يعزف بالأجراس . . . ولا يستطيع الصبر ، لا يستطيع . . .

« أنا نجحت يا حامد . . . نجحت يا ابني وطلعت الأول كمان! » .

تعثر صوته وضاع وتبددت أنفاسه وهو يقترب من حامد . . . كان يصيح ويصيح ويعدو ويعدو ولم يتوقف عند الاقتراب من حامد. . . اندفع بكل قواه نحوه . . . لكنه اصطدم أمام باب المنتزه بمحجوب بك ، فتوقف . . . وارتد إلى الخلف !

« إيه ده يا ولد . . . مش تمشي على مهلك يا ابن الكلاب؟! » .

تراجع والسعادة تملؤه رغم السبة . . . فلا بد أن الرجل لم يعرفه . . . ابتسم وقال بصوت لاهث :

« ازيك يا سعادة البيه . . . أنا نجحـ. . . . . . . » .

« إنت مين يا ولد . . . ابن مين انت؟! » .

محجوب بك نصير العدل . . . الفيلا . . . والأرض . . . والخدم . . . والحشم . . . والوزير . . . والقطار السريع الواقف على المحطة ، صديق والده الذي يجلس في المنتزه ويشرب الخمر مع الإنجليز في عز النهار دون أن يهمه أحد . . . فتح فمه لكن صوته انحبس أمام وجه الرجل الغاضب الذي كان يطل عليه من أعلا ، وتقهقر مدحوراً عندما أتته الصرخة :

« إنت اسمك إيه يا ولد ؟ . . . أبوك مين؟! » .

« أنا ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات يا سعادة البيه! » .

قالها مبتسماً موقناً أن غضب الرجل سينجلي عندما يعرف من هو . . .

« إنت أعمى . . . طالع تجري كده ليه وتتلقح على الناس؟! » .

« أصل نجحت يا عمي . . . أخذت الابتدائية! » .

نبأ سوف يبدد الغضب في الحال . . . سوف يرى الابتسامة ، وقد يُحَمّله التحية إلى أبيه فهو ليس وفدياً . . .

« نجحت والا سقطت . . . هوة اللي زيكم لهم التعليم؟! » .

حلم هذا أم حقيقة ؟! . . .

« إمشي غور من قدامي وابقى فتح ، هم البهايم اللي زيكو حاينفعوا أبداً . . . إمشي غور! » .

خطا إلى الخلف ليتلقفه « بعضشى » و « أوظة » معاً ، وصاح به الرجل مرة أخرى :

« ما تمشي من هنا يا بجم . . . إمشي من هنا! » .

ولا بد أن هناك خطأ . . . ولا بد أن يستغيث :

« أنا ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات! » .

« ثابت أفندي . . . ثابت زفت أنا مالي . . . تبقى تفتّح وانت ماشي في السكة يا حمار! » .

ترك الرجل وهو يسب ويلعن ، مضى مبتعداً والغضب يتناثر من بين شفتيه بلا توقف . . . فماذا فعل ؟! . . . وعندما أخرج البيه منديله ليمسح عن نفسه آثار ارتطامه به ، شعر فجأة أنه شيء قذر . . . تسمرت قدماه في الأرض . . . انطفأت نار الفرحة . . . وتذكر ما قاله الناظر . . . فدار في رأسه السؤال : ماذا لو كان الخبر غير صحيح ؟! . . .

يتلاعب « حامد » بأجراس الدراجة ويعايره بشتائم البيه ويصيح :

« يحيا النحاس باشا . . . » .

يحاول السير أو الجري أو البكاء ، فلا يستطيع . . . يحس فجأة

بـرغبة شـديدة في المـوت ، لماذا لا تنشق الأرض وتبتلعـه . . . تمـطره « أوظة » بالسؤال بعد السؤال وتسب البيه وتشتمه وتدعو عليه وتقول أنه ابن كلب . . . ثم تسأله عن سر صمته فلا يعرف بماذا يجيب . . .

تصرخ فيه :

« إنت لازم سـاقط! » فـلا يهتم ولا يتـأثـر ، ولا يغضب ، ولا يحزن . . . يحيطه « بعضشى » بذراعه ويسأله حائراً :

« مش ده صاحب أبوك يا ويكا؟! » .

ويصيح « حامد » وهو يبتعد بالدراجة :

« ساقط . . . يا ساقط! » .

يحس أنه يتمزق ، فماذا لو كان الخبر غير صحيح ؟! . . . ولماذا لم يكن أبـوه وفديـاً ؟! . . . هو لن يسيـر في مظاهـرات محجوب بـك بعـد الآن . . . ولن يهتف لـه أو يصفق من أجله وسيدعـو الله ألا ينجـح هـذا الرجل في الانتخابات طوال عمره . . . كره الوفد رغم أن « بعضشى » كان وفدياً يحب النحاس باشا مثل أبيه عم علي ولطالما تشاجـرا وتخاصمـا ، لكنه أخذ « بعضشى » إلى الفيـلا ذات مرة وجعله يهتف مع الناس بسقوط الوفد . .

هل هو ناجح . . . أم راسب ؟!

هل يعرف محجوب بك والده أم لا يعرفه ؟!

« مش انت ناجح يا ويكا ؟ . . . ما لك بقى ، ما لك؟! » .

لماذا فعل معه الرجل ما فعل وكيف و . . . و . . . ولا بد أن أبـاه سوف يخذله لو قص عليه ما حدث ، ولا بد أن يلقي عليه اللوم :

« انت لازم سقطت . . . كنت بتضحك علينا! . . . » .

تقول « أوظة » ما تقول فلم يعد يهتم . . . يوم المظاهرة الكبيرة التي شقت البلد من أولها حتى آخرها والناس يحملون محجوب بك فوق أكتافهم ، يوم الهتاف المدوي في الشوارع ، يوم سار مع « بعضشى » وهتف مع الناس باسم محجوب بك . . . يوم ابتسم له وصافحه وداعب شعره . . . ثم قبله في الشارع الواسع أمام كل الناس . . . يوم جرفته المظاهرة فوجد نفسه في حديقة الڤيلا ذات السور الأخضر في أطراف البلدة . . . يوم دخل الناس إلى الحديقة وملؤوها . . . فدخل معهم وبجواره « بعضشى » . . . يوم هجموا على الطعام والأواني والخدم والحشم واللحم والفتة ، وزغاريد وصياح وهتاف . . . « وبعضشى » يلكزه هامساً :

« تيجي ناكل يا ويكا؟! » .

السيدة الجميلة تهبط السلم الرخامي بوجهها المستدير الباهر الجمال ، بملابسها الفاخرة والأوامر تصدر منها فتُلَبّى على الفور . . . ثم « نادية » وهي تهبط السلم الرخامي وتقترب منه تطلب منه أن يلعب معها ، كانت سمراء ولم تكن بيضاء كأمها ، فستانها وشعرها وصوتها الهادىء ، ولم يكن شعرها في مثل اصفرار شعر « أوظة » حقاً لكنه كان أجمل بكثير . . . صاح فيه « بعضشى » أمامها :

« مش حاتيجي ناكل يا ويكا؟! » .

أحس بالخجل ولم يرد وتعثرت عيناه فوق وجهها النظيف ، وكرر « بعضشى » نداءه لكنه لم يرد عليه ، صاح فيه منذراً :

« ده فيه لحمة يا ويكا . . . لحمة! » .

فابتسم لنادية وهو يقول رداً على سؤالها :

« أنا في سنة ثالثة . . . وانتي اسمك إيه؟! » .

كف « بعضشى » عن ملاحقته ، وأمسكت نادية يديه وراحت تصعد معه السلم .

« أنا عندي بسكليت . . . تعرف تركب بسكليت؟! » .

كان يعرف لكنه لم يجب بكلمة ، وكانت يده تحتوي يدها الصغيرة وفي أطرافه كل لذة الدنيا ، راح يصعد معها الدرج الرخامي حتى وصلا إلى قمته . . . خلف الباب الزجاجي الشامخ عالم الڤيلا السحري بكل ما فيه . . . تهب عليه من الداخل رائحة المرايا الضخمة والنجف والسجاد . . . أمام الباب مقعدان ومرآة لم ير مثلهما إلا في منزل خال أبيه في القاهرة ، الخال العجوز الغني وزوجته بنت الباشا الكبير . . .

« أنا خال باباي باشا! » .

نظرت إليه بلا دهشة وتركت يده وراحت ترقب الناس في الحديقة الواسعة المزدحمة بالخلق . . . ألقى ببصره نحوهم فرآهم كالنمل ، الذين هتفوا . . . والذين حملوا محجوب بك . . . والذين ألقوا الخطب بين يديه ، سرت في جسده رعدة . . . فقد كان الجميع يأكلون ، بأطباق وبلا أطباق وأيديهم تنغرس في الطعام وأسنانهم تنهش اللحم . . . وأجسادهم تتلاطم . . . وما زالت السيدة الشامخة تقف عند أول السلم تلقي بأوامرها لتنفذ في الحال . . . كان الناس جياعاً ، فحمد الله أنه لم يكن واحداً منهم ، أحس بالرضا عندما وقعت عيناه على « بعضشى » وكان هذا يقف وسط الحديقة فاغر الفم والدهشة تقطر من عينيه . . . سمع صوت نادية تناديه :

« من هنا يا شاطر . . . تعالى! » .

استدار هارباً من عيني « بعضشى » واندفع خلفها نحو الباب . . .

لكنه اصطدم بمحجوب بك نفسه . . . رفع إلى الرجل عينيه ذاهلاً وسقط قلبه بين ضلوعه عندما تردد بصر الرجل فيما بينه وبين نادية ، وكان يبدو غاضباً ، فانقبض قلبه . . .

« إيه ده يا نادية؟! » .

كيف يسأل عنه وقد قبله في الطريق منذ ساعة . . . وداعب شعره وابتسم له ؟!

« ده صاحبي يا بابا! . . . » .
وازداد الضيق على وجه البك . . . ثم نظر إليه وسأله :
« انت مين يا شاطر؟! » .
« أنا ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات! » .
وابتسم الرجل وهو يربت على كتفه :

« آه . . . ثابت أفندي ده بتاعنا . . . ما تروح تاكل يا شاطر مع الناس! » .

أحس بالألم فقال : « مرسي » ، حتى يتأكد للرجل عدم انتمائه إلى هؤلاء . . . صاحت فيه نادية أن يلحق بها . . . لكنه تردد ، وصرخ رجل في الحديقة وفمه مليء بالطعام :
« عاش محجوب بك نصير العدل! » .

ردد الناس الهتاف . . . وكان هو يقف بجوار البك الذي أخذ يلوح للناس شاكراً ، ثم هبط عدة درجات فهبط معه ، عند منتصف السلم توقف الرجل بجواره ، ازداد حماس الناس وهتافهم وبدا له منظرهم رائعاً وخيل إليه أنهم يهتفون لأبيه . . . لماذا لم يكن أبوه هو محجوب بك نفسه ؟ . . . لوحت الأيدي بقطع اللحم وبحت الأصوات بالهتاف ودوى

التصفيق . . . ثم هدأ الناس وتباعدت صيحاتهم وتشاغلوا بالطعام . . . وبح صوت رجل كان يقودهم فتوقف عن الهتاف ، بحث عن « بعضشى » وسط الجميع لكنه لم يجده ولم يعثر له على أثر ، استدار نحو « نادية » لكنه بهت ، كانت قمة السلم خالية ، وكانت نادية قد اختفت !! . . .

وعندما رفع عينيه نحو محجوب بك أحس وكأنه يراه لأول مرة . . . خيل إليه أن جفون الرجل بلا رموش . . . كان وجهه أبيض شديد البياض ، وهو طويل مسحوب إلى أسفل ، وذراعاه طويلتان وأصابعهما كالعصى الرفيعة . . . وعندما التفت نحوه الرجل ارتسمت على شفتيه ابتسامة ثم سمعه يقول :

« إبقى سلم لي على والدك يا شاطر . . . أوعى تنسى! . . . » .

ثم استدار وراح يصعد الدرج حتى قمته ، ودلف من الباب الزجاجي وأغلقه خلفه . . . ووجد نفسه يقف وحيداً في مكانه ، نظر إلى الباب المغلق ولم يستطع الحراك ، نظر نحو الناس فأحس بخجل شديد ، بحث بعينيه عن « بعضشى » عبثاً ، فراح يهبط السلم في خطا بطيئة ، ثم تسلل من وسط الناس إلى الخارج !

ولكن . . . ماذا لو كان الخبر غير صحيح ؟!

* * * *

الفَصْل الثَالِث عَشَر

« مش هوه صاحب أبوك يا ويكا! » .

« هوه إيه اللي صاحب أبوه يا ابني . . . ده بيه! » .

« طب ودين النبي صاحب أبوه! » .

« يا ابني ده بيه . . . بيبه . . . مصايب إيه دي؟! » .

وينتفض « بعضشى » صائحاً فيها بكل عزمه :

« وتربة أمي أنا شفته . . . كان بيقول لـه سلم لي على أبوك . . . مش كده يا ويكا؟! » .

« ده شتمه دلوقت! » .

« وإيه يعني؟ » .

« ويشتمه ليه؟» .

« مش هوه صاحب أبوه يا « أوظة »؟ » .

« لو أنا كنت شتمته ودعيت عليه كمان! » .

« تشتمي واحد بيه؟! » .

« وإيه يعني . . . يلعن أبوه كمان ، أهه! » .

« سامع يا ويكا . . . دي بتشتم البيه؟! » .

« يلعن أبو أبوه واللي خلفوه . . . ويلعن أبو الملك كمان! » .

يصمت « بعضشى » ، وينتفض هـو بخوف ، تلتقي عينـاه بعينيهـا فتنشب في وجهه نظراتها :

« لو كنت أنا منك كنت شتمت ابن الملك كمان . . . اسم الله . . . مش هو اللي شتمك الأول؟! » .

لماذا يحب « بعضشى » النحاس باشا . . . وكيف تشتم « أوظة » جلالة الملك ؟! . . . يتذكر نادية . . . يتذكر وجهها ، يتمنى في لحظة أن يراها ليقص عليها ما فعله أبوها ، فهل تكره أباها من أجله ؟!

« ما تقول بقى يا اسمك إيه . . . ما لك؟! » .

« مش هوه زعلان لسة؟ » .

« انت نجحت والا سقطت . . . ما تقول بقى؟! » .

يتذكر أباه المنتظر فينتفض مضطرباً ، كيف يغيب أبوه عن ذهنه وكيف ينسى أنه في انتظاره ؟ . . .

يندفع سائراً بجوار سور المنتزه دون كلمة وهو يتساءل : لماذا فعل معه محجوب بك ما فعل ؟ . . .

سيخبر أباه بما حدث فهل ينتخب النحاس باشا ؟!

قال له الناظر أنه نجح فلماذا لا يفرح . . . وأيام ان كان يبيع البيض لتشارلي . . . كانت النقود تملأ جيبه كل يوم ، ولو كان قد ادخر ما صرفه أيامها لأصبح الآن غنياً ولاستطاع أن يشتم محجوب بك ويلعن له أباه . . . ولو أن الكابتن لم يطرده لكان الآن يحمل من النقود ما يكفيه طوال العمر ، ولما كان قد اهتم بالنجاح أو الرسوب . . . عند بداية سور المنتزه كان « حامد » ينتظره بالأجراس العازفة بلا توقف . . .

« ساقط . . . يا ساقط! » .

وكانت « أوظة » أسبق منه إلى الرد على « حامد » . . . وقبل أن يفتح فمه ألقت بنفسها فوق الدراجة ودفعت حامد من فوقها ليسقط على

الأرض ، ويكف عن السير عندما يضع « بعضشى » طوقه حول عنقه ويهجم على حامد مشاركاً في المعركة ، يلتقط من الأرض قطعة حجر ويضرب بها أسلاك الدراجة وجرسها . . . يبتسم بالرغم منه وبداخله السرور عندما يبكي حامد بصوته الغليظ وتنسال دموعه ، ويجد لسانه أخيراً فيصيح بكل صوته الصامت :

« بتعيط ؟ . . . خيبة يا خيبة! » .

« يا ساقط! » .

« ده ناجح يا ابني . . . والناظر هوه اللي قال له قدامنا كمان! » .

يداخله اليقين فجأة بأنه نجح ، فيدق قلبه وكأنه يسمع الخبر لأول مرة من « بعضشى » . . .

« يا ساقط ، يا بايت . . . إن شاء الله يا رب تعيد سنة رابعة عشر سنين! » .

ينقبض قلبه إلا أنه يبتسم صائحاً :

« أنا ناجح يا ابني . . . وكمان حضرة الناظر جاي عندنا البيت دلوقت علشان يبارك لبابا . . . » . .

« يا ساقط! » .

« يا ابن الكلب . . . ياللي أبوك أقرع! » .

« يا ساقط . . . يا ساقط . . . يا ساقط! » .

« وحضرة الناظر كمان بيقول عليك بليد وزي التنبل والحمار . . . وقال إني حاجيب مجموع كبير وحاطلع الأول على القطر كله! » .

« ساقط . . . يا ساقط! » .

« يابو دمعة زي البنات . . . يا اللي « أوظة » ضربتك وخلتك تعيط! » .

يلمح عند الميدان عم سعداوي آتياً نحوهم فوق دراجته . . . النجدة هي ، أم الخبر بخيبة الأمل ؟ . . . تتسمر قدماه فوق الأرض ولا يستطيع الحراك . . . يرتفع صوت حامد بالبكاء حتى يسمعه عم سعداوي ويصبح شاهداً أمام أبيه ولا بد أن يكذب حامد ويقول إنه اشترك في ضربه حتى ولو لم يفعل ، تلتصق به « أوظة » وهي تمسح أنفها بظهر كفها وقد ازداد تذمرها :

« مش حاتقول لأمك بقى يا اسمك إيه إنك نجحت؟! » .

يدور « بعضشى » بالطوق من حولهم وهو يسب « حامد » ثم يصيح في مرح :

« حانشرب شربات دلوقتي . . . اللي عاوز يشرب شربات يا اولاد ! » .

على وجه عم سعداوي ابتسامة ونظرات تتساءل عن سبب بكاء حامد ولا بد أن يطمئن أولاً . . .

« عم سعداوي . . . هوه عم كامل اتكلم من البندر؟! » .

ينظر عم سعداوي إلى حامد ويسأله عما به . . . وعن سبب بكائه .
« اتلموا علي وضربوني هم الثلاثة . . . وكانوا عايزين يكسروا البسكليت! » .

يجذب عم سعداوي من كمه في قلق :
« هو عم كامل اتصل من البندر؟! » .
ويستمع الرجل لشكوى حامد . . . ثم يلتفت إليه :

« وانت عايز عمك كامل يتصل ليه . . . ما تبطل عفرتة وتهتدي بالله بقى! » .

« يعني أنا ناجح صحيح والنبي يا عم سعداوي؟ . . . » .

« إنت مش سمعت الناظر بودنك؟ . . . » .

ينقض «بعضشى» صائحاً وهو يحتضن « أوظة » ويخرج لسانه لحامد :

« مش قلت لك يا بتي . . . نجح . . . ويكا نجح ! » .

ولا يتوقف عم سعداوي عن السير بدراجته . . . فيجري بجواره والدماء تزغرد في عروقه . . . يلتفت إلى الخلف ليرى « حامداً » وهو واقف بجوار دراجته يمسح عن نفسه تراب الطريق ، وينظر إليه بعضشى وهو يعدو صارخاً :

« ويكا نجح يا واد يا حامد . . . نجح وانت سقطت يا ابن الأقرع! » .

على الجانب الآخر لعم سعداوي كانت « أوظة » تجري وقد بدت عليها السعادة ، يمرون بصالون فاروق . . . وقهوة خريستو . . . ولا بد أن عم سعداوي في طريقه إلى أطراف البلدة . . . يداخله إحساس باليقين . . . إنه نجح حقاً . . . يتوقف عن الجريان ويترك عم سعداوي ويلتفت نحو « حامد » الذي كان يتبعهم من بعيد :

« سامع يا بليد . . . أنا ناجح أهه . . . وحاجيب مجموع كمان واطلع الأول! » .

لا يرد عليه « حامد » فتجتاحه الغبطة ويتنفس ملء صدره . . . يحس بنشوة النصر تدفع قدميه نحو البلدة بكل ما في جسده من قوة وفرح . . . تهب من الشارع نسمة ترطب وجهه الملتهب فينتفض بانتعاش يشمله كله . . . ويتعالى من خلفه صوت « بعضشى » وهو يقلد السيارة

فتزداد سرعة جريانه . . . يتذكر ضحكة الناظر وكلماته فيرتجف لهول السعادة . . . لقد نجح ، فكيف نسي كل هذا . . . وكيف أصابه محجوب بك بالألم ؟ . . . يلعن أبوه وأبو نادية معاً . . . يصرخ فجأة . . . بعلو صوته :

« يحيا النحاس باشا! . . . » .

ثم يقرر أن يصبح وفدياً . . . فيصرخ حتى تنتفخ رقبته :

« **يسقط محجوب بك نصير العدل!** » .

يندفع إلى الشارع الطويل فيلمح عم ياقوت على البعد وبجواره عم رزق وهما جالسين عند الناصية ، دكاكين الشارع مفتوحة . . . والناس على الأرصفة وفي الداخل والخارج . . . وبجوار عم رزق مقعد أبيه . . . الخالي . . . يلمحه عم ياقوت فينهض إلى عرض الشارع مهرولاً ليستقبله بذراعيه وصوته الجهوري :

« **عملت إيه يا ابني . . . طمنا ربنا يطمن قلبك!** » .

« **نجحت!** » .

يقولها وكأنه يقذف بكل جسده إلى آذان الناس جميعاً . . .

« **صلاة النبي . . . ميت فل عليك يا حسن** » .

« **نجحت يا عم ياقوت . . . أنا نجحت!** » .

يبلغ به الفرح حداً يدفع بالدمع إلى عينيه فيرتجف صوته . . . يدق قلبه بعنف شديد وتدور رأسه بنشوة تستولي عليه تماماً . . . ينهض عم رزق لينضم إليهما في عرض الشارع وتلتفت نحوهم كل الرؤوس . . . ويتوقف في عرض الطريق عربجي كان يقود عربته وحصانه ليتفرج ، ويسأل عم ياقوت في فرح :

« **جوز عمتك اتصل يا وله؟!** » .

« وقال إني نجحت . . . وعم مينا قال لي أقول لبا . . . . . . » .

ويقاطعه صوت عم ياقوت مجلجلاً في الشارع :

« فرقع قزازة شربات يا جدع . . . ابن ثابت نجح . . . وأخد الابتدائية ! » .

« وحضرة الناظر وعم اسكندر جايين عندنا يشربوا الشربات كمان! . . . » .

ينقض عليه عم ياقوت فيحمله من تحت إبطيه . . . ثم يقذف به في الهواء إلى أعلا . . . يرتفع ويرتفع وكأنه يطير ، وإذا الناس من تحته كلهم ينظرون إليه ، وإذا كل الأفواه تبتسم . . . وإذا الرجال يتركون أعمالهم ودكاكينهم ويخرجون إلى الرصيف ليتفرجوا ، وإذا هو يهبط من جديد . . . وإذا بيدي عم ياقوت تتلقفانه وصوته يدوي :

« حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي . . . إجري يا واد بَشّر أبوك » .

وعندما يضعه على الأرض يصيبه الدوار ، ويغرق جسده العرق وتتحول الدنيا إلى لحن يعزف عليه قلبه بدقات موجعة . . . يهلل الرجال ، ويتحدث كل الشارع ، وتطل العيون وتنطلق التهاني فيندفع عدواً نحو السوق وهو يرد على كل من يسأله بصرخة تملأ فمه :

« نجحت . . . نجحت . . . أنا نجحت! » .

شارعهم الطويل والوجوه والنوافذ وبخار مياه الغسيل المدلوقة على الأرض . . . وتلمحه أم أوظة فيتدلى جسدها من البلكونة سائلة . . . عم علي يبتسم له والحلاق عند الناصية يسأل . . . لكنه لا يرد فلا بد أن يزف الخبر بنفسه إلى أبيه . . . فماذا يقول ؟!

تفتح النوافذ في بيت النواجي فيندفع إلى داخل بيتهم قبل أن يصيبه سؤال ، ويصل إلى أذنه صوت أم أوظة وهي تنادي على ابنتها :

« أوظة . . . يا بت يا أوظة! » .

لكن أوظة لا ترد بل تصيح فيه وهو يضع قدمه على أولى درجات السلم :

« نازل تاني يا اسمك إيه؟! » .

ويتوقف عن الصعود وكأنه تسمر فجأة في مكانه ، يرتجف قلبه بالرغبة ويلتفت نحوها وكان « بعضشى » بجوارها يرقب . . . فهل يستطيع ؟!

يملؤه الإحساس بحبه لأوظة . . . فإذا به حقيقة أثبت من حبه لأبيه وأمه وإخوته والأولياء جميعاً . . . يشير إليها فتنفلت بسرعة إلى بئر السلم . . . وبعد لحظات يلفهما الظلام . . . ويصيح عم علي سراج في الخارج بصوته الرائق :

« يا ولد . . . بعضشى . . . إنت يا ولد يا بعضشى! . . . » .

وتعطيه خدها فيلصق به شفتيه ويهم بالسير . . . لكنها تمسك به . . . صدرها ملتصق بصدره ، وبطنها ينام فوق بطنه ، وشفتاها أمام شفتيه . . . وأنفاسها تدثر كل وجهه . . .

« تتجوزني يا اسمك إيه؟! » .

ولا يدري ماذا يقول . . . فيضطرب ويخفق قلبه ويتلعثم . . .

« حاتروح البر الثاني بعد ما تقول لأمك؟! » .

قبل أن يجيب كان « بعضشى » يقف بينهما في الظلام متسائلاً :

« وأنا يا ويكا . . . مش حاتاخدوني معاكم؟! . . . » .

ينفلت من الجب المظلم إلى فناء البيت ويندفع نحو السلم وهو يهمس :

« لما أقول لبابا الأول. . . » .

يقفز الدرجات وقلبه يدق ووجهه تغرقه قطرات العرق . . . وسيحاسبه أبوه لو لم يكن هناك نجاح ، لكنه ناجح ولسوف يفاجئه بالخبر . . . فماذا سيقول ؟! . . .

باب الشقة مفتوح ، والصالة خالية ، ولا صوت . . . فلا بد أن اخوته غادروا البيت في الوسعاية عند الكنيسة . . . أو بجوار الجامع الكبير . . . يدق قلبه ويدق وهو يخطو داخل الشقة متلصصاً على أطراف أصابعه وتصل دقات القلب إلى الحلق والأذنين عندما يأتيه صوت أمه في الداخل :

« ولكن إفرض يا ثفندي الشر بره وبعيد . . . إن الولد سقط؟! » .

يقترب من باب الغرفة . . . فيسمع صوت أبيه وهو يسعل ويزفر . . . ثم يقول :

« وحاعمل إيه يعني . . . هوه ونصيبه بقى؟ . . . » .

« والنبي ده كان بيذاكر يا ثفندي! » .

« بطلي الكلام الفارغ ده يا ست هانم . . . لو كان ذاكر يبقى حا ينجح ، هوه كل من قعد ومعاه كتاب يبيص فيه . . . يبقى بيذاكر . . . أدي إحنا عملنا اللي علينا . . . والباقي على الله! » .

« يعني يا ثفندي . . . لو الولد . . . بعد الشـ. . . . . . » .

لا . . . لا يريد أن يسمع . . . قفزة واحدة فإذا به وسط الغرفة ، وإذا بأمه تشهق :

« بسم الله الرحمن الرحيم! » .

وإذا بأبيه جامد كالتمثال لا يتحرك . . .

« إيه ده يا سيدنا الأفندي؟! » .

« نجحت! » .

تصرخ أمه بفرح طاغ :

« إيه؟! . . . » .

« نجحت يا ماما . . . نجحت يا بابا! . . . » .

« والنبي ؟ . . . عرفت إزاي يا ابني؟ . . . » .

ويزمجر أبوه قائلاً :

« إيه اللي انت عملته ده؟ . . . » .

يوقن أنه أخطأ في شيء لا يعرفه ، ولكن هناك ما يشفع . . .

« نجحت . . . أنا نجحت يا بابا . . . نجحت! » .

لا شفيع عند العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحاجبين والغضب الزاحف على الملامح ليكتسحها والصوت يزأر :

« إيه اللي انت عملته ده؟! » .

العرق البارد والأطراف المثلجة والرغبة العارمة في القيء والدنيا التي تميد . . . وصوت أمه :

« هوه عمل إيه بس يا ثفندي . . . » .

« مش عارفة عمل إيه يا ست هانم ؟ . . . دي طريقة يدخل بيها الأوضة؟! » .

« ده أنا نجحت يا بابا . . . أنا نجحت النهاردة! » .

يتوسل ويتحرك . . . ارتجف صوته وفي قلبه كره لكل شيء . . . حتى نفسه ، يسود الصمت لثوان تسرح فيه دقات قلبه وتخفت ، يعود أبوه

إلى جلسته فوق الكنبة بعد أن هم بالنهوض . . . ساق مثنية وأخرى ترتفع ركبتها أمام صدره ليستند عليها الذراع الممتد إلى أمام . . . السيجارة بين أصابعه ترسل دخانها في شريط رفيع يتلاعب في الهواء كثعبان . . . ثم يتجمع أمام الوجه في كرة تظلل العينين الحمراوين وثنية اللحم فيما بين الحاجبين . . . والأنف العظيم . . .

« هيه! » .

جاءه الإذن بالكلام . . . لكنه لا يستطيع . . . يعوم الوجه بسحابات الدخان أمام عينيه ويشعر وكأن شيئاً يُكبّله ، يقيد يديه وقدميه وها هو القيد يعتصر صدره . . . كان يريد السفر ويريد ركوب الدراجة ويريد الذهاب مع أوظة . . . لكنه لا يريد الآن شيئاً ، فهل يأتيه الموت ؟!

يزحف الاختناق من ساقيه بجيوش نمل بلا عدد ، النمل الكبير الذي يطارده في الأحلام ويجثم على صدره عندما يكون في مثل حجم الفيل . . . الوجه الصارم لن ينفعل ولن يفرح ولو أصبح ملكاً . . . الفم القاسي لن يسمع منه سوى السباب . . . نجح أم لم ينجح فليس هناك مفر . . . تتراكم الدموع في صدره وتصعد إلى حلقه وكم يود لو استطاع أن يصرخ . . .

« اتكلم يا سيدنا الأفندي . . . وقول إيه اللي حصل؟! » .

يفتح فمه للحديث . . . ، لكن لسانه يلتصق بسقف حلقه فمتى يستطيع الفرار ؟

« ما تتكلم يا بيه . . . إنت اتخرست؟ . . . » .
« وبعدها معاك يا ثفندي . . . حرام عليك . . . الولد مخضوض! » .

« مين اللي قال إنك نجحت؟ . . . » .

« ما تتكلم يا ابني! . . . » .

« عمك مينا كلم البندر؟ . . . » .

« يوه . . . إيه اللي جرى لك يا ولد؟ . . . » .

« مين كان هناك؟ . . . » .

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . ما تنطق يا ولد وترد على أبوك! » .

« من ساعتها وانت في المحطة؟ . . . » .

« ما تنطق يا ابني . . . يا ندامة! . . . » .

« ويكا . . . ويكا . . . عايزين الشربات يا ويكا! . . . » .

« أهو ده اللي انت فالح فيه . . . « بعضشى » ؟ . . . مش كده؟ . . . » .

« يا ثابت أفندي . . . ثابت أفندي! . . . » .

« طبعاً فضحت الدنيا قبل ما تيجي . . . أيوه يا اسطى علي! » .

« والمرسي أبو العباس يا نينة نجح . . . أنا كنت معاه في المحطة! » .

« أوظة » كمان ؟ . . . صلاة النبي أحسن . . . بتلعب مع « أوظة »؟ » .

« ويكا . . . يا ويكا . . . عايزين الشربات! » .

« شايفه يا ست هانم . . . سامعه؟ » .

« يا واد ما ترد . . . ما تقول حاجة يا ابني . . . رد على أبوك . . . إيه اللي جرى لك؟! » .

ترى . . . ماذا يفعل لو كان الخبر غير صحيح؟! . . .

* * * *

الفَصْل الـرَّابع عَشَر

لا أمل . . . لن يستطيع الذهاب إلى البر الثاني مع أوطة . . . يبدو له الأمر كله وكأن حلم من تلك الأحلام التي تحيره ، النمل الكبير الجاثم فوق الصدر ، الجب العميق . . . والباب العالي . . . والسور الشاهق . . . واليد الممدودة من أعلا . . . لكنها لا تلحقه . . . صرخاته المكتومة ، حديثه الذي بلا صوت ، والبساط السحري الطائر به إلى ما فوق المئذنة حيث يتركه هناك وحده ، وجسد النبي المنبسط في البياض أمام عينيه ، والصوت الذي يذكره جيداً :

« **ناجح بإذن الله؟!. . .** » .

فتحت كل النوافذ والأبواب في الشارع . . . وأطلت كل الرؤوس وذاع الخبر . . . وتجمع العيال أمام البيت . . . ووقف المارة يسألون عن الحكاية ؟ . . .

« **فرح مين ده؟!. . .** » .

ويضحك الأسطى علي سراج وهو يرد على السائلين بصوت عال :

« **دي شهادة عقبال أولادك . . . ابن ثابت أفندي أخد الشهادة!** » .

كانت زغرودة أم النواحي التي أطلقتها وهي تعبر الشارع إلى بيتهم هي البداية :

« **يا ألف نهار أبيض . . . ألف ليلة بيضة . . . عقبال ما نفرح بعروسته إن شاء الله. . .** » .

وعند الباب تستقبلها أمه بعد أن غيرت ملابسها وهي تردد :

« دلوقت البلد كلها تعرف . . . والبيت يمتلىء بالناس ، مش تلبس مدومك يا ثفندي؟! » .

نظرة من أبيه يذهب بعدها إلى البلكونة ليرد على عم علي سراج :

« والله لسة يا اسطى علي محدش يعرف . . . أهم بيقولوا . . . وكله كلام مش أكيد! » .

يعلم يقيناً أن أباه على حق . . . ولا بد أن يزداد الخوف اضطراماً في صدره . . . يقبع فوق مقعد في الصالة ويدس ساقيه تحت المائدة ويرقب ما حوله في سكون وترقب . . . نظرة من أمه فيها ابتسامة تغمر الوجه كله ، تبدو له وكأنها في مثل سنة فيبتسم رغماً عنه . . . ولو كان قد ولد في زمن أبيه لما تزوج أمه حتى ولو دفعوا له ألوف الجنيهات ، يتمنى لو ضمته إلى صدرها ليدفن رأسه فيه ، تتوقف أمامه وكانت تروح وتجيء بلا سبب ، تبتسم له ولا تتقدم منه خطوة فيرتجف وهو يستشعر دفء صدرها من بعيد . . . لكنها ترفع كفيها إلى السماء دون أن تمسه . . . ويرتجف صوتها بالانفعال داعية :

« يا رب . . . يا رب . . . انت عالم وغيرك لا يعلم . . . يا رب! . . . » .

وتغزو عينيه موجة من الدموع ، هو يعلم عن يقين سبب هذا الدعاء المتوسل ، فلماذا تختار أمه هذا الدعاء بالذات ؟ . . . لماذا تردده ليل نهار . . . يزداد خوفه من الله فجأة فيشعر أنه يكرهه . . . ومنذ شهور والحديث دائر حول النتيجة وأبوه يردد :

« مصاريف الثانوي اتناشر جنيه . . . ربنا يستر . . . والبيه يجيب

مجموع كويس علشان المجانية! » .

ثم الصمت ـ دائماً ـ لثوان يحدجه فيها بنظرة تعقبها تنهيدة :

« والا حتى نص مجانية . . . وحياة عزة الله وجلاله أنا مستعد أمشي معاه لحد آخر السكة . . . الثانوي . . . والجامعة . . . ولو كان فيه حاجة بعدهم كمان . . . وربنا يقدرني! » .

وعندما يبتسم أبوه ، يصبح على استعداد لأن يحبه حتى الموت !

الشتاء . . . والوحل في الشوارع . . . والطرقات الزلقة . . . والمطر . . . والبرد . . . وسعال أبيه طوال الليل . . . ولو مضت به ألف سنة فلن ينسى يوم حرق الجاز جسد أبيه وسلخ جلده . . . الليل والنور الخافت . . . والشبح الجالس فوق السرير مكفئاً . . . وجه أمه المذعور ودموعها . . . وصوتها المرتجف يوقظه من عز النوم . . .

« ولد . . . انت يا ولد . . . قوم إلحق شوف أبوك! » .

قفز من مكانه وقد شله الرعب . . . عيناها الدامعتان ووجهها الشاحب ويداها المرتجفتان والأنين الصادر من غرفة النوم والصوت صوت أبيه !

« ماما . . . بابا ماله يا ماما؟! . . . » .

اعتصره الفزع اعتصاراً . . . واندفع نحو غرفة النوم يتخبط في الحيطان والباب وأعمدة السرير . . . الجسد المحني إلى الأمام . . . والوجه المحتقن . . . والظلال تملأ الحيطان . . . الجريدة الملقاه فوق الأرض . . . ورائحة الجاز تملأ أنفه وتنتشر في البيت كله ، مد يده يهز أباه المنكفىء فالتصق باليد شيء لزج بعث الرعب إلى قلبه ، تراجع إلى

الخلف واستيقظ تماماً وكان أبوه عارياً . . . حملق في الظهر العاري فرأى اللحم سائلاً ولون الجسد أحمر كالدم ، شهق وتراجع وصرخ :

« بابا! . . . » .

فاجأه الأنين المدفون مع الوجه في الغطاء :

« البودرة . . . هات البودرة! . . . » .

الشتاء قرين السعال الطويل والظهر المريض . . . والصدر المتعب ، الملابس الصوفية . . . وورق الجرائد . . . لكن البرد ينفذ إلى العظام . . . وفي كل عام يسمع أباه وهو يقول :

«الشتاء السنة دي عمره ما حصل! » .

ولا ينفع معه أي دواء يصفه الطبيب . . . وقال أبوه ذات مرة : إن الطبيب منعه من التدخين . . . لكنه لم يمتنع ، وظل يدخن ويسعل ! . . .

جلسة المساء حول راكية النار . . . وحبات أبو فروة . . . وأعواد القصب . . . والوجوه المحمرة بالدفء والابتسام والكلام اللذيذ . . . والحكايات الباهرة في أمسيات الخميس . . . ويوم اشترى أبوه الراديو تجمع أهل الشارع في البيت ليسمعوا غناء عبد الوهاب . . . وترتيل الشيخ محمد رفعت . . . وكان يتذكر « أوظة » كلما غنى عبد الوهاب « حبيبي ياللي حياتي فيك » . . . وذات مساء سهرت « أوظة » مع أمها عندهم . . . وكانت تنظر إلى الراديو في شغف . . . ثم لم تعد تهتم به ، وغنى عبد الوهاب ليلتها :

يا لوعتي يا شقايا يا ضنا حالي . . . فمصمصت أمه استحساناً وقال أبوه : إن عبد الوهاب ليس مثل سيد درويش . . . فانتابه الغضب وقال :

« إيه ده يا بابا . . . عبد الوهاب أحسن دشليون مرة! . . . » .

ونظر إليه أبوه نظرة . . . ثم سأله :

« انت سمعت سيد درويش؟! . . . » .

فلم يرد . . . ولم يستطع أن ينظر إلى « أوظة » بعد ذلك . . . وكره سيد درويش دون أن يسمعه أو يراه . . . وجاء الدور ذات ليلة على أم النواجي فجاءتهم بعد أذان العشاء ، ثم طبت طنط جانيت ليلتها مع عم ألبير وهما يحملان لبشة قصب . . . فغمر البيت كله بالسعادة وامتلأ بالضحكات والمرح وارتفع قشر القصب وسط الغرفة مثل تل كبير ، ومصت أم النواجي عوداً كاملاً رغم فمها الخالي من الأسنان . . . وسعال أبيه يشتد كلما أشعل سيجارة ! . . . واحتقن الوجه العظيم ذات مرة . . . حتى أصبح في لون اللهب في الراكية وكانت أمه تتحدث ، وأم النواجي تتحدث . . . لكن طنط جانيت هي وحدها التي كانت ترقب أباه :

« ما تبطل الزفتة السجاير دي يا ثابت! . . . » .

ويستمر أبوه في السعال . . . ويستمر الراديو في الغناء . . . وأم النواجي في الثرثرة . . . ويوغل الليل . . . ويغط إخوته في النوم . . . ويرين على الغرفة ذلك الهدوء الذي يعشقه في آخر كل سهرة . . .

« وحياة النبي يا سي ثابت أفندي دي وصفة ما تنزلش الأرض أبداً . . . جرب وابقى اديني الحلاوة! . . . » .

ويرفع أبوه وجهه إلى أم النواجي بعد أن ذهبت النوبة ، وابتسمت طنط جانيت ودارت ضحكتها بكفها . . . المرأة تصف الدواء :

« تجيب جرنان قديم يا خويا . . . وترشرشه بالجاز لما يستوي . . . وبعدين تحط الجرنان اسم الله على مقامك ما بين الفانلة وضهرك ليلة واحدة . . . تصبح الصبح تدعي لي! » .

القعدة فوق السرير . . . ومص القصب . . . وساعات الصفاء الرائعة . . . وتحيطه طنط جانيت بذراعها فتملأ خياشيمه رائحتها فيرتعد بالسعادة وهو يدفن رأسه في صدرها ، وإذا تذكرها طردها عن ذهنه وانتابه الضيق والاشمئزاز . . . ولماذا ؟! . . .

وعندما تغادرهم أم النواجي لا بد أن تطيل الدعاء لأبيه بطول العمر والصحة ، وتكتم طنط جانيت وعم ألبير ضحكاتهما حتى يغلق باب الشقة فينفجران فيه :

« انت مجنون يا ثابت تسمع كلام الولية دي؟ . . » .

ابتسم أبوه ساخراً وهو يتمتم :

« انت بتقولي فيها يا جانيت؟! . . . » .

« يا راجل انت اتجننت . . . والا جرى لعقلك حاجة؟! . . . » .

« والدكاترة عملوا لي إيه ؟ . . . مش يمكن الوصفات البلدي تجيب نتيجة؟! . . . » .

« حد يحط على ضهره جاز طول الليل؟ . . . » .

ودائماً ما يبدأ بينهما النقاد اللذيذ ، ولا تكف أمه عن الابتسام والتعليق ، ولا يكف عم ألبير عن الضحك والتريقة ، ولا بد أن تحمر العينان ويتجمد فيما بين الحاجبين ، ولا بد أن يقول أبوه :

« إنت مش ناوي يا سيدنا الأفندي والا إيه؟! . . . » .

ولا بد أن ترد طنط جانيت في غضب جميل :

« ثابت . . . ما لك وماله . . . هوه أنت شايله على دماغك يا أخي؟ » .

ابتسم أبوه ولم يرد . . . ففاض قلبه بالراحة ودفن نفسه في صدرها أكثر . . . ثم استنام هناك . . . مدد ساقيه بين أجساد إخوته المبعثرين من حوله فسرت الحرارة في بدنه . . . وراح يفكر لحظتها في شيء بدا له شديد الغرابة :

هل تتزوجه طنط جانيت لو طلب منها ذلك ؟!

تمرغ في الإجابة بلا رقيب . . . تاه ولم يصح إلا ساعة الرحيل والقبلة الدافئة وطعم الروج في شفتيه . . . وخدر النوم يسري في مفاصله . . . وصوتها يدغدغ أذنيه ، وصوت أمه وهي تقول ضاحكة :

« **ما تشدي حيلك بقى يا جانيت وتجيبي لنا ولد! . . .** » .
ويلقيه ردها الضاحك في هاوية من الأحلام . . .
« **كفاية هوه علي . . . ما هو ده ابني تخلي بالك منه!** » .

ثم الكابوس والنمل الكبير والفزع والسباحة في النهر حتى الشاطىء الآخر خلف « أوظة » .

« **ولد . . . انت يا ولد . . . قوم الحقني . . . شوف أبوك! . . .** » .

الدقائق الملهوفة ورائحة البرودة النفاذة والآهات والهمسات . . . والسعال ولحم أبيه السائل . . . القلق والأنات وبرد الليل والترقب والأنفاس المتقطعة، وذلك الشيء الذي ينغرس في قلبه فيدميه بعذاب لا قبل له به . . . الجبل العالي ليس تلاً ، التل جبل صغير فكيف يضعف أبوه وتخرج من فمه الأنات متلاحقة . . . وهل يضعف الجبل أو يمرض ذات يوم . . . وهل يمرض الله إذا دخن كثيراً أو تعرض للبرد الشديد !؟ . . .

ومع أذان الفجر السابح إلى الغـرفة عبـر الحواري والشـوارع . . . كانت الحياة تعود إلى وجه أبيه المتقلب بالألم . . . وإذا جاء الموت فهل يخاف أبوه ويتأوه كما فعل في تلك الليلة ؟!. . .

« أعمل لك شاي يا بابا؟ . . . » .

أراد أن يهرب من يقين بداخله ويمـلأ رأسه بـأن هذا الـرجل ليس أباه . . .

« اعمل لي كباية تليو! . . . » .

جاءه الصوت ضعيفاً متقطعـاً . . . ويوم احتقن زوره والتهب ورقـد في الفراش وبكى من شدة الألم . . . صاح فيه أبوه :

« هوه فيه رجالة تعيط وتقول آه . . . يا سيدنا الأفندي؟ . . . » .

لهب النار في رأس الوابور تحرق في نفسـه شيئاً خفيـاً ، الدخـان الأسود المتصاعد إلى السقف . . . والدفء الساري إلى اليدين والسكون يلف الكون ، ثم يقطعـه صياح الـديك فـوق السطح ، وكيف يتـأوه أبوه ويتـألم وهو رجـل ؟ . . . وعندمـا تصاعـد بخار التليـو أمام عينيـه كـانتـا دامعتين . . . وعندما قـدم لأبيه الكـوب الساخن لاحت في العينين نـظرة غريبة ، الصوت العريض يتصاعد وكأنه يحيا من جديد :

« ما لك يا سيدنا الأفندي؟! » .

انسابت دموعه رغماً عنه ، وقالت أمه وهي تشهق :

« وهوه اللي جرى لك ده شوية يا ثفندي . . . يا ندامة! . . . » .

واختنق صوتها . . . ودمعت عيناها . . . وساد الصمت تماماً . . .

وإذا كان أبو حامد بخيلاً فكل الناس تشهد بكرم أبيه . . . وإذا كان

أبو حامد يصلي بسرعة ويخطف الركعات . . . فأبوه يتمهل كلما صلى ويتم الآيات . . . ويوم أن تعارك رجلان على الرصيف وكاد أحدهما يقتل الآخر . . . تحدثت البلدة كلها عن أبيه وكفه الرادع للطرفين ، صفعة واحدة لكل منهما فتوقفا عن العراك حائرين دون أن يجرؤ أحدهما أن يرفع عينيه إليه . . . فلماذا يتأوه إذا مرض ؟ ولماذا ينكفىء على وجهه ؟ . . . ولماذا لم يسمع كلام طنط جانيت ؟ وهل لو كان أبوه قد ولد مسيحياً لأصبح هو الآخر كذلك ودخل النار ؟ . . . وكيف تدخل طنط جانيت النار وقد ولدت مسيحية لا تعرف الحقيقة ! . . .

« كل ده من السفرية الأخيرة! . . . » .

الصوت القوي يستعيد مكانه فوق العرش وترفع أمه خدها عن قبضتها وهي تتمتم دامعة العينين :

« ما بلاش السفريات يا ثفندي؟! . . . » .

ويتصاعد الصوت الساخر من باطن الغرفة :

« لا ياشيخة . . . بالذمة إيه؟! . . . » .

القرى البعيدة . . . ومكاتب التليفون . . . والتفتيش والبطانية . . . والبرد يهري العظام . . . وبدل الوسادة كتابان أو ثلاثة . . . وعندما يهطل المطر يصبح الموت شبحاً يتلصص فوق رؤوسهم . . . وكلما عاد أبوه من رحلته . . . حكى عن السيارات التي تنزلق كل يوم إلى الترع والمصارف . . . وترعة الملوانية تمر من هنا ، لكن ترعة التوفيقية تذهب إلى الاسكندرية . . . والرياح شيء والمصرف شيء آخر . . . وقد كان يعرف هذا من كتاب الجغرافيا . . . لكن عزوز أفندي مدرس التاريخ يقول إنها « هبة الفقر » . . . والشيخ بسيوني يحب الشغل وهو يكرهه . . . ولو كانت كل العلوم مثل الحساب لجاء ترتيبه الأول على الدنيا كلها . . .

ولمـــاذا يخـاف أبـــوه من وقـوع السيــارات في التـرع ، ألا يستــطيــع العوم ؟! . . .

« بابا . . . حضرتك بتعرف تعوم؟! » .

حدجه أبوه بنظرة فأيقن أنه لن يتلقى رداً . . . اعتدل في جلسته ثم استدار نحو أمه قائلاً :

« وحانعيش إزاي من غير السفريات دي يـا ست هانم ؟ . . . إنتي عارفة بدل السفر الشهر ده كام؟! . . . » .

« وصحتك يا ثفندي . . . صحتك يا خويا! . . . » .

« أربعة جنيه . . . إلا بريزة! » .

« هوه يعني الشر بره وبعيد لـو جرى لـك حاجـة كده والا كـده ، حا تنفعنا السفريات!؟ » .

« ومصاريف البيه؟! » .

« تتدبر! . . . » .

« منين يا ولية؟ . . . » .

« ربنا ما بينساش عبده المؤمن! » .

« ما دي إحنا مؤمنين وموحدين بالله! » .

« يبقى ربنا مش حينسانا! » .

« هيه السما بتمطر فلوس؟ . . . » .

« هوه مش يا خويا قال : « ويرزقكم من حيث لا تعلمون؟ » .

الضحكة الساخرة . . . والنظرة الغريبة . . .

« ما هو قال كمان : إسعى يا عبد . . . وأنا أسعى معاك! » .

« ما هو يا ثفندي. . . . . . » .

ثم أعادت قبضتها إلى رأسها من جديد . . . فعم الصمت ، لم يرد أبوه على سؤاله وهـو لن يفعل . . . تنتـظم الأنفاس الـلاهثة مـع رشفات التليو . . . ورغم البرد كان جسده دافئاً . . .

« بتذاكر كويس يا سيدنا الأفندي؟ . . . » .

وجاء صوته من بعيد :

« أيوه يا بابا وحياتك! . . . » .

« والنبي يا خويا بيذاكر . . . الحق كده! » .

وتستند الرأس إلى سياج السريـر وتسرح العينـان في ظلال السقف العالي :

« ذاكر كويس عشان المجموع ، أديك شايف اللي بيه . . . انت مـ بقيتش صغير ولازم تشيل معايا شوية وتساعدني علشـان أقدر أعلمـك ، وانت لو جبت مجموع يدخلك المدرسة مجانـاً حا اقـدر أربي أخواتـك وأدخلهم المدارس زيك . . . سهـام وساميـة لازم يخشوا ابتـدائي السنة دي . . . وكلها سنة والا اتنين . . . وأخوك سامي يدخل المـدرسة هـوه كمان . . . » .

صمت . . . لكن أمه تساءلت :

« قلت إيه يا ثفندي؟ . . . » .

« مصاريف الثانوي اتناشر جنيه! . . . » .

« ما بلاش السفريات دي يا خويا . . . صحتك! . . . » .

« غير ثمن الكتب والكراريس والأقلام . . . . . . » .

« يا خويا قول يا رب! . . . » .

« حا اقطع لك أبونية في القطر عشان تروح البندر! . . . » .

« ده حتى أنا باتشاءم من العربيات اللي بتقع في المية دي! » .

« وحابقى أديلك كل يوم قرش علشان تتغدى بيه هناك! » .

« وهو ما فيش طريقة غير السفر يا ثفندي؟!. . . . » .

« وقرش تاني مصروف إيدك . . . وأديـك شايف . . . قـالوا عـد غنمك يا جحا! » .

« حا تقعد تقول لي . . . قالوا في المثل؟!. . . . » .

« لازم تهدى وتعقل علشان تفهم كويس. . . . » .

« مـا هم قالـوها في المثـل يا خـويا . . . مش عـارفة إيـه قالـوها إيه؟! » .

« بس على الله تنجح وتجيب مجموع . . . ربنا يستر!. . . . » .

وامتدت اليد الهائلة بالكوب الفارغ نحوه ، وعندمـا نهض طقطُقت عظامه ، أخذ الكوب فظلت اليد ممدودة ، انحنى عليها ورفعها إلى شفتيه وقبلها ، لم ينظر إلى الوجه أو العينين ، بل أسرع دون كلمة ليدس نفسه في دفء الفراش . . . لكنه لم ينم حتى مطلع الشمس . . . وكان يتساءل طوال الوقت : هل يستطيع أبوه أن يعوم ؟!. . . .

وماذا يفعل كـل هؤلاء الناس الـذين تحدثـوا وجاءوا وبـاركوا . . . وزغردوا . . . لو كان الخبر غير صحيح ؟!. . . .

* * * *

الفَصْلُ الخَامِسْ عَشَر

. . . ولو كان الخبر غير صحيح فما الذي سيفعله به أبوه بعد كل هذا الذي حدث ؟!

يمتلىء البيت بالنسوة وتنطلق في الغرفة الكبيرة زغاريد الفرح ، وتتعالى أصواتهن وضحكاتهن وهن يتحدثن مع بعضهن ، وأمه تحدثهن جميعاً وتضحك معهن ، وتضم ذراعيها أمام صدرها مرددة :

« الله يبارك فيكي يا اختي ، عقبال ما نفرح بأولادك! » .

يعود أبوه من البلكونة مقطب الجبين ، ويدخل غرفته . . . ثم يغلق على نفسه الباب :

ويجد نفسه مع نفسه وحيداً في الصالة !

يجلس على مقعد ويسند ذراعه إلى المائدة ورأسه إلى كفه ويرقب ويسمع ويهز ساقيه في الهواء ولا يرد على نداءات « بعضشى » وصيحات « أوظة » ، ثم يتلو في سره كل ما حفظ من آيات القرآن ويدعو الله ألا يسمعها أبوه . . . ولا تدخل امرأة إلى البيت إلا وتقبل أمه ، لكن إحداهن لم تنظر إليه ولم تقبله ولم تقل له مبروك . . . مع أنه هو الذي نجح . . . ثم تغلق عليهن الغرفة الكبيرة فيقع المحظور ويفتح أبوه باب غرفته ويطل من الباب رأسه الغاضب ونظراته الحمراء ويأتي صوته هامساً منذراً :

« عاجبك كده يا سيدنا الأفندي؟! » .

ينكمش في نفسه وتتداخل أعضاؤه ولا يرد . . .

« ما فيش حاجة نقدر نعملها في السر أبداً؟! » .

ويختفي الوجه الغاضب خلف الباب مزمجراً ويرتفع في الشارع صوت عم إسماعيل المحولجي من البلكونة المقابلة :

« يا ثابت أفندي . . . يا ثابت أفندي! » .

يوقف هزات ساقيه وتتجمد أعضاؤه فلا بد أن أباه سيخرج الآن ، ويضطرب قلبه عندما يعلو صوت « بعضشى » من الشارع متذمراً :

« ويكا . . . انت يا سي ويكا!» .

وتدهمه على الفور نظرات العينين الحمراوين وكان أبوه قد ارتدى بنطلونه :

« كلم يا سيدنا الأفندي . . . كلم يا سي ويكا! » .

« ثابت أفندي . . . ثابت أفندي! » .

« أيوه حالاً يا اسماعيل أفندي . . . حالاً » .

وليس أبو رأفت أفندياً ، إنه محولجي وقد رأى اسمه في كشوف العمال مع عم اسكندر . . . وكان اسم أبيه في كشف الأفندية ، فهل يرقى ذات يوم ليصبح بك ؟!

سأل أمه مرة : « بابا ماهيته كام جنيه يا ماما؟! » .

بان عليها الجزع وراحت تمطره بالأسئلة في قلق :

« بتسأل ليه يا ولد ؟ . . . فيه حد سألك السؤال ده ؟ . . . كنت بتلعب مع مين النهاردة ؟ . . . عايز تعرف ماهية أبوك كام ليه ؟ . . . ما تخافش ، قول لي يا ابني دانا أمك . . . مين اللي سألك السؤال ده ؟ . . .

وعـايز تعـرف ليه يـا ضنايـا . . . هه ؟ . . . مـا تتكلم يا ولـد ؟ . . . مـا تقو . . . . . . » .

كان يهز رأسه بالنفي بعد كل سؤال . . . فلم يكن أحد قد سأله عن مـرتب أبيـه ، راح ينفي ويقسم ويغلظ في القسم ويـدعـو على نفسـه أن تصدمه سيارة أو يفرمه قطار أو تحرقه نار جهنم لكنها لم تصدقه . . .

« وبتسأل على ماهية أبوك ليه؟! » .

لم يكن يعلم لماذا سألها ، وقد كـان يعرف كم جنيهـاً مرتب أبيـه فأصابته الدهشة وأرتج عليه . . .

« إذا حـد سـألـك . . . قـول خمستـاشـر جنيـه في الشهـر . . . فاهم؟! » .

لماذا تكذب أمه ؟! . . . ولماذا سألها وهو يعلم أن مرتب أبيـه ستة جنيهات . . . رآها بنفسه في الكشف الكبير أمام عم اسكندر . . . ويـوم استدان أبوه من عم سعداوي وقع في الحيرة والدهشة وأصابـه الاشمئزاز وكاد يتقيأ كل ما في أحشائه . . . فكيف يستدين أبوه من السـاعي ؟ . . . وكيف يصبح عم سعداوي مـالكاً لبيت يسكن فيـه بلا أجـر ؟ . . . ولماذا يصبح السـاعي ـ وهو ساع ـ صـاحب ملك . . . والأفندي ـ وهـو أفندي ـ مديناً ؟! . . . وإذا كان عم علي سراج هو الآخر عاملاً في مصنع الصابون يذهب كل صباح إلى عمله . . . فكيف تأتى لـه هو الآخـر أن يسكن في بيت ملك ؟! . . . وللناظر بيت في أطراف البلدة بجوار الڤيـلا ، بالقرب من نادية . . . ومحجوب بك الذي سيدخل النار حدفاً فهو يشرب الخمر علناً وأمام الناس دون خوف من الله !

يفتح باب الغرفة الكبيرة فتتعالى أصوات النسوة وتلعلع ضحكاتهن

في أنحاء البيت . . . يطل بعينيه مختلساً نظرة . . . فيرى فخـذ أم رأفت عارياً ، ويصيبه القرف . . . وتهرول أمه سائلة عن أبيه :

« أبوك فين يا ولد! . . . » .

تميل أم النواجي داخل الغرفة فتراه من فرجة الباب وتصيح فيه :

« والنبي لأبخرك بعين العفريت! » .

ويعود أبوه من البلكونة ليلتقي بأمه في منتصف الصالة :

« إيه يا ست هانم المولد ده؟! » .

« يا خويا تنك طيب! . . . » .

« إيه اللي جاب الناس دول كلهم؟ . . . » .

« يا اختي . . . جرى إيه يا ثفندي؟ . . . » .

« قلتي لهم إيه؟! . . . » .

« ويعني حا اقول لهم إيه يا اخويا ؟ . . . » .

« طبعاً قلتي لهم إن البيه خلاص نجح؟! » .

تلتفت إيه أمه :

« مش بتقول إن الناظر قال لك يا ابني؟! . . . » .

« وما لك مش ملمومة على نفسك كده؟ . . . » .

« يا ابني ما تنطق . . . هوه الناظر مش قال لك؟! . . . » .

« الناظر ما قالش كده يا ست هانم . . . إبقي فتحي ودانك كويس للكلام! . . . » .

« مش بتقول يا ولد إن عمك اسكندر كان هناك كمان؟! » .

تنطلق في الداخل زغرودة ، فتصب عليه العينان احمرارهما . . .

« عاجبك كده يا سيدنا الأفندي؟ . . . » .

« يا ابني ما ترد انت جرى لك إيه ؟ مش بتقول الناظر قال لك؟ » .

وتأتي من الشارع صيحة « بعضشى » !

« ويكا . . . يا ويكا! . . . » .

يستـديرِ بـالرغم منـه نحو البلكـونـة فيلمـح « أوظـة » في بلكـونـة بيتهم . . .

« مش نازل يا اسمك إيه؟! . . . » .

ولعلعت ضحكة أم النواجي وهي تصيح في الداخل :

« والنبي . . . ومن جعل النبي نبي ما انا نازلة من هنا إلا لما اشرب الشربات . . . وآخـذ الحلاوة كمـان . . . اسم الله . . . دي الشهادة يـا ادلعدي! . . . » .

تخترق عينا أبيه قمة رأسه :

« كويس كده؟! . . . » .

وتزيط الغرفة بالضحكات . . . وتصفق المرأة بكفيها في مرح :

« الشربات يا أهل البيت! . . . » .

ويجيء الصوت المزمجر وسط صليل الضحكات :

« عاجبك كده يا ست هانم؟! . . . » .

وقبل أن تفتح أمه فمها ، تنقر باب البيت أصابع متلهفة مرحة . . . ينتفض في مكانه وقلبه يدق ، ها هو الفرج قد جاء ، يملأ صدره بالهواء وينفذ فيما بين أمه وأبيه غير عابىء ، ويصيح بلا إرادة :

« طنط جانيت!! » .

* * * *

الفصل السادس عشر

لن ينقذه اليوم إلا هي ، وستكون أول من يقبله . . . صوت « أوظة » يناديه . . . لهفته على لقاء طنط جانيت أقوى . . . فاح عطرها فصاح قبل أن يراها :

« **طنط جانيت . . . أنا نجحت!** » .

يطالعه وجهها الباسم بكل روعته ، تنحني عليه لتضمه إليها فيغرق في صدرها مغمضاً عينيه :

« **وأنا جاية علشانك مخصوص يا حبيبي! . . .** » .

القبلة . . . والضمة الحانية . . . والهواء المعطر يملأ صدره . . . ورائحتها تغزو كيانه ، وعندما قبلته . . . قبلها ، وعندما ضمته إليها . . . لف ذراعيه حول عنقها . . . وصدره يجيش بالانفعال . . . يفور الدمع من عينيه ، ينخرط في بكاء صامت فيترك لنفسه العنان دون مقاومة . . . ورغم دهشة الجميع إلا أنه استشعر للبكاء لذة عجيبة ! . . .

« **والله عال . . . إيه ده يا سيدنا الأفندي؟! . . .** » .

ولا بد أن يكون أبوه هو السباق لاستقبال طنط جانيت ، وتنشغل أمه بغلق باب الغرفة الكبيرة على النسوة والاعتذار لهن . . . أما هي فكانت راكعة على ركبتيها لتحيطه بذراعيها وتضمه إلى صدرها وتقبله . . . يزمجر أبوه من خلف ظهره فتصيح فيه منذرة :

« ثابت . . . خلي عندك دم . . . ده بقى راجل وأخد الابتدائية خلاص! » .

« وعرفتي منين يا ست هانم . . . الخبر لسة مش أكيد! . . . » .

ويرتجف . . .

فماذا لو كان الخبر غير صحيح بالفعل ؟! . . .

« سيبي الولد يا جانيت ، بلاش دلع! . . . » .

الصوت منذر وغاضب ، ولكن . . . هل يستطيع الاقتراب منه طالما كانت هي موجودة ؟!

. . . وعندما أراد أبوه ذات مرة أن يضربه في حضورها منعته وسدت عليه الطريق وفردت أمامه ذراعيها وصاحت فيه ضاحكة :

« اتفضل عدي لو كنت تقدر يا سي ثابت! . . . » .

وكانت أمه تقف بعيدة عنهم وهي تفرك كفيها وقد بدت عليها الحيرة . . .

« خلاص بقى يا ثفندي . . . علشان خاطر جانيت! . . . » .

لم يرد أبوه على طنط جانيت ، وإنما زأر في وجه أمه :

« إنتي تخرسي خالص . . . فاهمة! . . . » .

بعد الزئير أطلقت الحبيبة ضحكتها المزغردة في أنحاء البيت كله :

« خوفتني . . والنبي انت ما تنفعك واحدة زي مراتك دي أبداً! . . . » .

وقالت أمه وهي تتراجع نحو الحائط :

« عاجبك كده يا جانيت . . . آهه دايماً يشخط فيه بالشكل ده! » .

لماذا لا ترد أمه على أبيه ؟ . . . ولماذا تخاف منه ؟ . . . ولماذا لا تقول له يا ثابت فقط مثلما تفعل طنط جانيت وهي ليست زوجته ؟!

« ما هو الحق عليكي يا عبيطة . . . ساكتة ليه؟! » .

وهو لم يحب أحداً من أصدقاء أبيه قدر حبه لعم ألبير زوج طنط جانيت . . . وليس هناك من يشبهه منهم ، لا عم ياقوت ولا عم أبو فرخة ولا عم رزق ولا الناظر ولا عم مينا . . . هو دائماً يبتسم . . . دائماً طيب الوجه هادىء الملامح خافت الصوت . . . وفي كل مرة ذهب فيها إلى بيتهم تمنى لو لم يغادره حتى آخر العمر ، الصالة الواسعة والأرض اللامعة والضوء الخافت والستائر الرقيقة والجدران والأثاث وكل شيء . . . غرفة النوم من الخشب وليس لسريرها ناموسية ، وفي البيت دائماً ذلك العبير الذي يتسلل إلى عظامه ؟! . . . ولطالما تساءل : لماذا لم يكن لطنط جانيت ولد أو بنت ؟! . . . وكلما جلس في بيتها أحس برغبة شديدة في الصلاة . . . وهم ذات مرة أن يفعلها ثم تراجع متسائلاً :

ـ أليس حراماً أن يصلي في بيت نصارى ؟! . . .

« وإيه اللي عرفك بالخبر يا جانيت؟! . . . » .

« العصفورة! . . . » .

تقولها بدلال وهي تجلس في الصالة دون أن تتركه . . . يجلس أبوه أمامها وتتراجع أمه إلى الغرفة الكبيرة ، تغيب لثوان . . . ثم تعود لتقف بباب الصالة ترقب الحديث الدائر وذراعاها معقودان أمام صدرها ، الضحكة بضحكة ، والكلمة بكلمة . . . وطنط جانيت لا تكاد تستقر من الفرحة :

« كنت في زيارة لزوجة مينا أفندي . . . بقى لي شهر ماردتش زيارتها ، كنت مكسوفة يا ثابت وفي نص هدومي منها . . . أنا دخلت من هنا ، وسعداوي طب من هنا . . . جايب الخبر! » .

« خبر إيه يا جانيت . . . ده مش أكيد ، ومحدش لسة يعرف! » .

« صدقني يا ثابت ما قدرتش أقعد عند الست أكثر من خمس دقايق ، لما بقيت في نص هدومي وأنا نازلة من عندها! . . . » .

شيء كالوخز يصيب قلبه . . . وعندما تململ زفلت يده من يدها فلم تشعر . . . يتراجع قليلاً إلى الخلف عندما تقول أمه :

« مالكيش حق يا جانيت ، دلوقت الست تزعل! . . . » .

« تقفز الحبيبة واقفة وهي تضع يديها في خصرها . . . فتتمسح نظراته بجسدها بطول الظهر . . .

« إسمعي يا بت إنتي . . . اللي تزعل تزعل. . . . . . . » .

وترد إليه الروح عندما تلتفت نحوه في مرح . . . ثم تنحني لتضمه إليها قائلة :

« حبيبي نجح . . . وافضل أنا قاعدة في بيت مينا أفندي أقول سلامات . . . الله يآنسك؟! . . . » .

« يا جانيت اعقلي . . . الخبر لسة مش أكيد! . . . » .

« فين الشربات أمال؟! . . . » .

« شربات على إيه يا مجنونة انتي . . . على حاجة لسة ما نعرفهاش؟! . . . » .

وتقول أمه هامسة في تخاذل :

« أنا مش قلت لك يا ثفندي؟! . . . » .

« بطلي زن يا ست هانم . . . إنتي فالحة إلا في كدة؟! . . . » .

« ثابت! ! » .

« مش لما نتأكد يا جانيت؟! . . . » .

« يرضيكي والنبي يا اختي كده ؟ . . . أم النواجي قاعدة جوه وطلبت

تشرب شربات بلسانها!! » .

« وافرضوا إن إحنا جبنا الشربات . . . والبيه سقط!! » .

تميد به الأرض ويختنق صدره ، يرفع عينيه إلى أبيه ولم يكن هذا ينظر إليه ، يرفعها إلى طنط جانيت ليجدها لاهية عنه وإن كان ذراعها يحيط به ، يستدير نحو أمه ليراها فاغرة الفم حائرة :

« تف من بقك يا ئفندي . . . الشر بره وبعيد يا أخويا! . . . » .
ولا تختفي الابتسامة . . . ولا تزول النظرة التائهة ويأتي الصوت كالحلم :

« إخص عليك يا ثابت ، يهون عليك تقول كلمة زي دي؟! » .

« يعني أم حامد تفرق شربات واحنا لا يا خويا ؟ . . . طول ما حسك في الدنيا نفرق الشربات على كيفنا . . . فيها إيه دي؟! » .

« ثابت . . . انت ما ينفعشي معاك الطيب ، قزايز الشربات حاتيجي . . . تعالى يا حبيبي روح عند بنداري وهات قزازتين شربات! . . . » .

يرتد بعينيه إلى أبيه في تساؤل خائف . . . يشعر فجأة برغبة شديدة في القيء ، يضع يده على فمه ويتأوه . . . النمل الزاحف من الساقين إلى البطن . . . ثم الصدر . . . والثلج اللابد في الأطراف وركبتاه ترتجفان . . . وينهار السقف هاوياً إلى الأرض . . .

« ما لك يا حبيبي؟! . . . » .
« ما لك يا ولد . . . بسم الله الرحمن الرحيم . . . » .
« جرى إيه يا سيدنا الأفندي . . . إيه ما لك؟! . . . » .

العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين والأنف العظيم ولا صوت ، الأفواه والأسنان ولا بد أن أمه الآن تصيح لكن صوتها لا يخرج ، الحيطان والأبواب وجسده السابح في الهواء ولا شيء يسنده مهما امتدت يداه لتلحقا قشة طائرة على بعد . . . يريد الكلام لكن يداً تقبض على عنقه وتحبس أنفاسه . . . شفتاه تنتفخان ولا بد أن لسانه قد مات ، فهل حل الأجل ؟! ذراعاه مشدودتان وساقاه امتلأتا بالحديد ويعود السقف إلى السقوط وتصعد الأرض إلى السقف والأيدي والوجه والعيون وليس لحديثهم صوت . . . وعندما قالت له « أوظة » ذات مرة وهما نائمان على فراشهما في العربة الخالية :

« أنا مش باحب أبوك! . . . » .

نهض وارتدى ملابسه وطلقها في الحال وعاد إلى البيت وحيداً ليجد العصا في انتظاره لـذنب لم يعلم عنه شيئاً . . . ولو ظهرت النتيجة ولم يكن ناجحاً . . . ويختنق صدره برائحة البصل النفاذة وتتسلل المياه إلى عنقه وصدره وهو راقد على فراش أبيه . . . والوجه الجميل يطل عليه بابتسامة . . . خلف طنط جانيت يقف أبوه مقطب الجبين وهو يقول في صوت صارم :

« ضربة شمس طبعاً . . . من لعب الشوارع واللف طول النهار مع الست « أوظة » و « بعضشى » أفندي! » .

يتمنى لو استطاع أن يصرخ . . . لكنه يعرف المصير فيما بعد ، تمتلىء عيناه بالدمع ويتحرك لسانه فيطلق لسحابات الدمع المختزنة في صدره العنان ، تحيطه الحبيبة بذراعيها فيدفن رأسه في صدرها وهو يشهق وكل جسده يرتجف ، تدب أقدام أمه على أرض الغرفة ويعم الصمت تماماً ويأتيه همس أمه خافتاً :

« عين . . . عين وصابت . . . من قبل ما نعرف! . . . » .

ثم تملأ أنفه رائحة البخور . . .

« إيه ده يا ست هانم؟! . . . » .

« بخـور . . . بخـور يـا خـويـا . . . الـواد كـان حـا يـروح من إيدينا! » .

ينسحب الـدمع من عينيـه ويصفو وجـه طنط جانيت . . . لكن في عينيها الواسعتين دمعاً لا يخفى . . .

« عـاجبك كـده يا سيـدنا الأفنـدي ؟ . . . علشان تبـطل جـري في الشوارع ! » .

« ثابت؟! . . . » .

هكذا كانت تناديه دائماً ، لكن الصوتَ الآن مختلف . . .

« وبعدها وياكي يا جانيت؟! . . . » .

« ثابت . . . والمسيح الطاهر ما ادخل لك بيت بعد كده! . . . » .

وتدق أمه على صدرها :

« إنتي بتعيطي يا اختي ؟ . . . » .

ويضحك أبوه وهو يعود إلى الكنبة ويشعل سيجارة . . . وفي الغرفة المجاورة كانت الأصـوات خافتـة ، تميل عليـه حبيبة القلب وتقبـل رأسه وتربت على كتفه . . . ثم ترفعه بذراعيها فينهض معها وهو يمسح دموعه وينظر فيما حوله في دهشة . . . إذن ، فهذا هو هو الإغماء ؟!

« صلاة النبي أحسن! . . . » .

القول المتهكم الساخر له وقع العصا الرفيعة . . .

« شد حيلك يا حبيبي علشان تروح تجيب الشربات! . . . » .

ولا ينطق أبوه حرفاً وتخرج أمه بالمبخرة فينفذ الدخان من النافذة إلى الشارع . يرفع عينيه إلى أبيه هذه المرة ويتمنى لو رآه ميتاً . . . تجف دموعه ويهدأ قلبه ثم يتنفس ملء صدره وكل عظامه تتفكك . . . ينزلق من السرير هابطاً إلى الأرض ويدها تحيط به . . .

« انت كويس دلوقت يا حبيبي؟! » .

يهز رأسه فتبتسم وهي تمسح دموعها . . . ثم تدفعه برفق نحو الباب . . .

« تروح على مهلك وتيجي على مهلك ، تجيب الشربات من عند بنداري ، وتجيب لنفسك شيكولاتة كمان! » .

ولا يستطيع الحركة فكأن شيئاً يجذب عينيه نحو الوجه الجاثم بجوار الشباك ، ترتفع اليد بالسيجارة إلى الفم ، ويندفع عمود الدخان حتى منتصف الغرفة ، وتهتز الرأس في استسلام :

« اتفضل يا سيدي . . . اتفضل! . . . » .

وتصيح أمه في فرح :

« تجيبهم برتقال وفراولة يا ولد . . . برتقال وفراولة . . . أوعى تنسى! . . . » .

يغادر باب الشقة وكأنه يسير فوق سحاب . . . يغلق الباب وراءه فيرتج جسده كله بالراحة . . . وإذا كان هذا هو الإغماء فما الذي يؤلم فيه ؟ . . . يتنفس ملء صدره وهو يهبط السلم على مهل . . . قبل أن يصل إلى الفناء يندفع إخوته من باب الشارع صائحين مهللين وهم يتزاحمون ويتسابقون . . . ما أن يرونه حتى يتوقفون وهم يتحدثون إليه في صوت واحد . . . عيونهم الواسعة . . . وأفواههم تفتح وتغلق بلا توقف . . .

تقترب منه سـامية وتتقهقـر سهام مبتعـدة . . . ويبقى سامي في مكـانه ، وتصيح سامية في فرح :

« انت مادريتش؟! . . . » .

ويرد عليها بصوت ما زالت آثار الدموع تبلله :

« بإيه ؟! . . . » .

وتصيح سهام وهي تقترب من باب البيت وتستعد للفرار من وجهه :

« انت نجحت يا عبيط . . . حتى اسأل العيال في الشارع!! » .

الفَصْل السَّابع عَشَر

يستقبله « بعضشى » عند باب البيت مهللاً :

« **حاتركب بسكليت يا ويكا؟!. . . .** » .

وتلمحه « أوظة » فتخطف حذاءها بأصابعها وتندفع إليه :

« **تيجي نروح اللي بالي بالك يا اسمك إيه!؟. . . .** » .

ويهتف « بعضشى » بعلو صوته :

« **تاخدوني معاكم!؟. . . .** » .

فيرد عليهما بفخر واعتزاز :

« **أنا رايح أجيب شربات!** » .

* * * *

ينفلت إلى الشارع المزدحم وهو يتلقى نظرات الناس بخجل . . . وعيناه إلى الأرض ، تصيح أم بعضشى وهي من نافذة بيتها العلوية :

« **اسم النبي حارسه وصاينه يا اختي . . . إن شالله عقبال ما نفرح بيه يوم فرحه!** » .

. . . ويقف العيال صفين وظهورهم إلى حيطان البيوت وهم يتطلعون إليه بعيون مبهورة ، ويزعق من خلفه عم علي سراج :

« **مش تيجي لما نبارك لك يا ابني؟!. . . .** » .

عند الناصية يستقبله الحلاق أمام باب دكانه محدثاً رجلاً امتلأ وجهه

بالصابون في الداخل :

« ده ابن ثـابت أفنـدي بتـاع التليفـونـات . . . أخـد الشهـادة النهاردة! » .

ويتـوقف رجل كـان يمر بـالشـارع لينـظر إليـه ويحملق في وجهـه مبتسماً ، وتزداد ابتسامته اتساعاً وهو يداعب شـاربه . . . ثم يمضي عنه دون كلمة . . . وعندما يقترب من السوق يحيطه بعضشى بذراعه قائلاً :

« آجي معاك وتديني كباية شربات يا ويكا!؟ . . . » .

وتتبـرم « أوظة » وهي تسبقهمـا . . . ثم تستديـر نحـوهمـا سـائـرة بظهرها :

« أنا رايحة البر الثاني! » .

يتوقف عن السير وينظر إليها في غضب ويقول :

« مش أنا سورقت النهاردة!؟ . . . » .

كيف أغمي عليه ؟ . . . وما الذي حدث منذ كان في الصالة حتى أفاق فوق السرير الكبير ؟ . . . هل حمله أبوه . . . أم أن طنط جانيت هي التي حملته ؟ . . . عينـا « بعضشى » الـدهشتـان . . . وشفتـا « أوظـة » المقلوبتان . . . ومن حولهم زعيق السوق ونداءات الباعة ولطالما تمنى أن يصيبه الإغماء حتى يكتشف ما يحدث للناس أثناءه ، وعندمـا كـان « عبورة » أخو « بعضشى » يصـاب بالإغمـاء كانت أمه تطق بـالصـوت ويتجمع الناس وتدس في أنف ولدها بصلة كبيرة وترش على وجهه الماء وتقرأ في أذنه القرآن ، . . . يهتف « بعضشى » في قلق :

« انت سورقت صحيح يا ويكا!؟ . . . » .

فيهز رأسه إيجاباً ، ثم تنتابه الـرعشة عنـدما تصيـح « أوظة » وهي

تلتصق به :

« يبقى عليك عفريت!!. . . » .

يلمح « حامداً » على البعد فلا يهتم ، وتضع « أوظة » ذراعها حول كتفه ، ويلتصق خدها بخده :

« أبقى آجي لكم لما أمك تعمل لك زار . . . يا اسمك إيه !؟» .

يوقعه سؤالها في الحيرة فلا يرد . . . يقترب منهم حامد وكانت « أوظة » لا تزال تحيطه بذراعها فلا ينظر إليه ، ويصيح « حامد » وهو يبتعد بدراجته : « ساقط . . . يا ساقط! . . . » .

. . . فلا يلتفت نحوه ولم تغضب ، ابتسمت له وتوقفت عنده وانحنت عليه وقبلته . . . ثم أعطته قرشاً ، فلماذا يغضب أبوه كلما رآه يلعب مع « أوظة » أو « بعضشى » . . . لماذا؟! .

« أنا رايحة البر الثاني! . . . » .

يغمره الغضب فجأة فيطلب منها أن تفعل ما تشاء . . . ورغم كل شيء فلن يتزوج إلا هي . . . وعندما يأخذ التوجيهية سيصبح مهندساً أو ضابطاً وسيكون له بيت مثل بيت عم ألبير ، وستكبر « أوظة » ولا بد أن يجعل لها رائحة طنط جانيت ، وسيناماان على سرير من الخشب ، ولن يضع فوقه ناموسية . . . في زحام السوق تتشبث به وهي تطلب منه أن يسير على مهل ، تزوم وتغضب وتدق أرض الطريق بقدمها وهي تسأله إن كان سيذهب معها إلى البر الثاني فلا يستطيع الإجابة . . . ولو استطاع الآن أن يذهب معها لكان أسعد الناس ولأيقن أن الله يحبه . . . ولو مات أبوه فلن يمنعه أحد عن صنع شيء يريده ، ولن يخاف إذا سهر في الخارج حتى منتصف الليل ، وسيذهب إلى المولد ويلعب مع العيال . . . ويركب

ـمراجيح . . . ويـأكـل الحلوى . . . ويشــرب الشـربــات ويصحب بعضشى » إلى المقهى ليشربا شاياً . . . ويلعبا الطاولة . . . وسيعود إلى لبيت ليجد « أوظة » في انتظاره . . . وهي ترتـدي قميصاً أحمـر كالـذي رتديه طنط جانيت . . . ولا يـراها بـه إلا هو وعم ألبيـر . . . ينظر إليهـا بتسمــاً . . . لكنهــا تعبس في وجهــه ، يــدور بعضشـى حــولهـمــا يسبقهما . . . ثم يعود إليهما كقطار مـرة . . . وكسيارة مـرة أخرى . . . سيصعب عليه من الآن أن يفعل مثل هذا ، سيصبـح طالبـاً في الثانـوي ليس تلميذاً في الابتدائي ، ولا بد له أن يصلي كل يوم وسيحاسبه أبوه لو أخر عن أداء فرض ، ولو لعب يوماً مع « بعضشى » ستكون الطامة ، ولو آه أبوه مع « أوظة » بعدها لكانت هـذه هي جريمـة الجرائم . . . يتمنى لحظة ألا ينجح فيدق قلبه لهول ما سيحدث . . . تبتعد ضجة السوق من خلفه عندما ينثني إلى شارع بنداري البقال ، ويلوح لـه النيل عن بعـد ، وتبتعد « أوظة » عنه فجأة وهي تندفع نحو المياه التي بدت من بعيد وهي نضوي تحت وهج الشمس . . .

« **أنا رايحة نعوم!** » .

يتشبث بها وقد اقتربا من دكان بنداري :

« **أوظة!** . . . » .

« **أنا عاوزه نعوم!** . . . » .

تفلت منه فيصيح وهو يعدو خلفها متوسلاً :

« **مش عاوزة تشربي شربات نجاحي!؟** » .

« **ما نحبوش!** . . . » .

ويهتف بعضشى :

« **وأنا يا ويكا . . . وأنا!؟** . . . » .

يغزوه الحزن ظاهراً . . . فيتوقف عن العدو ويقول :

« مش أنا نجحت يا أوظة؟ . . . » .

« أبوك بيقول ما حدش لسة يعرف حاجة! . . . » .

« حضرة الناظر وعم مينا قالوا! . . . » .

« انا عاوزة نروح البر الثاني! . . . » .

« لو أنا رحت معاكي . . . بابا يزعل ويضربني! . . . » .

« وأنا مالي! . . . » .

« طب لما أجيب الشربات . . . » .

« تديني كباية يا ويكا!؟ . . . » .

« قلت لك . . . أنا ما نحبش الشربات! . . . » .

« علشان نشيل القزايز سوا! . . . » .

« أنا عاوزة نعوم! . . . » .

« مش هوه جوزك يا بنتي؟ . . . » .

« أنا مالي . . . أنا مش زوجة حد! . . . » .

« حا خاصمك! . . . » .

« خاصم! . . . » .

« وأنا كمان حا خصمك! . . . » .

« طظ ! . . . » .

« طلقها يا ويكا! . . . » .

« هوه الجواز دلوقت ينفع يا ابني . . . داحنا لسة صغيرين! » .

« أوظة . . . . . . » .

« أنا مالي . . . أنا عاوزة نعوم! . . . » .

تنفلت عدواً نحو النيل . . . فتتسمر قدماه في الأرض وبركان الغضب يزمجر في صدره ، تظل تعدو وتعدو حتى تختفي هناك . . . يلتفت نحو بعضشى . . . فيقبل هذا عليه :

« ولا يهمك يا ويكا ، بكرة تلاقي أحسن منها! . . . » .

يشجعه حديث صديقه فينفجر :

« والله العظيم . . . والله العظيم . . . تلاتة بالله العظيم ما انا لاعب معاها بعد كده . . . حا طلقها . . . واتجوز واحدة تانية! . . . » .

ولسوف يفعلها ، حتى ولو كان الخبر غير صحيح ! . . .

* * * *

الفَصْل الثَامِن عَشَر

يملؤه الحزن والغضب وهو يوسع الخطا . . . يقترب من دكان بنداري ولا تزيل صيحة الرجل المرحة غضبه ، تتسمر قدماه في الأرض وهو يرتجف . . . الوجه العريض . . . والشعر القصير والجسد المكتنز . . . والضوء الخافت في الدكان والرائحة النفاذة وابتسامات الرجل في الداخل :

« ألف مبروك يا عفريت يا أزرق . . . ألف نهار أبيض! . . . » .

تركته في يوم نجاحه لتلعب مع العيال . . . بلغ الخبر عم بنداري ولا يدري كيف ، ولا بد أن كل الناس تعرف . . .

« بابا بيقول لك عاوزين قزازتين شربات . . . واحدة برتقال . . . وواحدة فراولة! . . . » .

الوجه الضاحك والصوت العالي . . . وإذا الصيحة تملأ الشارع فتلتفت إليه كل الرؤوس :

« وحياة النبي لو كان ابني نجح ما كنت أفرح له بالشكل ده . . . ده علشان ربنا بيحب أبوك! . . . » .

وإذا كان الله يحب أباه . . . فهل لا يحبه هو؟ . . . وإذا كان قد نجح . . . فهل فعل الله ذلك من أجل أبيه . . . لا من أجل هو !؟ . . .

« هات له قزازتين شربات على الحساب يـا زكي ، وقزازتين على حسابي! . . . » .

يلمح حامداً وهو آت من أول الشارع فينتفض قلبه بالسرور ، وما أن وقف « حامد » بدراجته أمام الدكان حتى يصيح في عم بنداري :

« وشيكـولاتـة كمـان . . . بـابـا بيقـول هـات بـاكـو شيكـولاتـة كبير! . . . » .

يغمر الغيظ وجه حامد فيزداد سروره ، ويتذكر أوظة عندما يصيح عم بنداري في التليفون :

« ده ابن ثابت أفندي يا سعادة البيه ، أخد الشهادة! . . . » .

يدق قلبه فربما كان عم بنداري يحدث محجوب بك نفسه ، ولا بد سيذكره الـرجل وسيشتمـه وسيقول عنـه كلامـاً حدث وكـلاماً لم يحـدث وسيصدقه الناس ويكذبوه ، ويضحك عم بنداري صائحاً :

« يوصل إن شاء الله . . . حا بلغ ثابت أفندي . . . عقبال ما نفرح بالهانم الصغيرة ، يا سعادة البيه! . . . » .

تخطر « نادية » بباله ويتخيل « أوظة » وهي تعدو فوق الكوبري إلى البر الثاني وحدها ، ينتابه الضيق عندما يقترب « بعضشى » من « حامد » ويضع يده فوق الدراجة قائلاً :

« تديني لفة يا وله يا حامد؟ . . . » .

يضع عم بنداري زجاجات الشربات بين يديه :

« كفـاية كـده دلوقت ، وابقى تعـالى خد بـاكو الشيكـولاتة كمـان شوية! . . . » .

يلمحــه « بعضشى » بحمله . . . فينـدفـع نحـوه ليحمـل عنـه زجاجتين . . .

« بلاش عفرتة لحد ما تروح ، وتخللي بالك من القزايز كويس ، انت بقيت راجل أهه! . . . » .

يمضي بجوار « بعضشى » في السوق « وحامد » يتبعهما ، يشعر مع الضيق بنشوة شديدة ، ولو كانت « أوظة » معه الآن لحملت زجاجة شربات وطردت حامـد وضربتـه وأوقعته من فـوق الدراجـة لكنها الآن تعـدو فوق الكوبري . . . هي لا تذاكر ولا تُضرب ولا يسمع لها الجيران صراخاً إلا إذا طلبت شيئاً ومنعوه عنها . . . ويوم عاقبتها أمها ولم تعطها قرشـاً ظلت تبكي من العصر حتى أذان المغرب . . . فقذفت لها أمهـا بالقـرش حتى تسكت . . . يتمنى لو أصبح بحاراً ثم تاه في البحـر مع أوظـة وعثرا معـاً على جزيرة روبنسون كروزو وعاشا فيها وحدهما . . . وعندمـا قص على « أوظة » قصة « مدام اكسفورد » قالت له إنها بايخـة . . . وطلبت منه أن يحكي لها حدوتة . . . فلم يستطيع . . .

« هوه أبوك مش بيحكي لك حواديت! . . . » .

يسيل العرق فوق وجهه وعنقـه ويتسلل إلى ظهره . . . لكم اشتـد زحام السوق، يرفع رأسه فيرى أمامه عم أبو فرخة والد حامد فيصيح متلهفاً:

« أنا نجحت يا عم أبو فرخة! . . . » .

يبتسم الرجل ويتمتم بكلام لا يسمعه ، ثم يمضي نحـو ولده . . . فيشتمه في سره ويـدعو عليـه أن يموت وأن يـدخل النـار . . . ولا بد أن « أوظة » قد وصلت الآن إلى نهاية الكوبري ، ولا بد أنها تنزلق إلى بحر الرمال الممتد على شاطىء النيل وسحابات التراب تتصاعد من حـولها ،

ولو كان معها لتصايحا وراحا يتسابقان وقدماه حافيتان وحذاؤه في يده . . . لاندفعا إلى كثبان الرمال وخلع كل منهما ملابسه حتى يسبق الآخر إلى المياه ، وهو لا بد سيسبقها لكنه لم يتعلم العوم حتى الآن . . . لغسل جسده من العرق وتمرغ في المياه واحتضن أوظة . . . وذهبا عند الغروب إلى ما تحت الكوبري . . . حيث الظلال الداكنة والهدوء . . . وأصوات الجنود وصيحاتهم الآتية من كل صوب . . . ومهما حدث فلن ينسى المرة الأولى وكل منهما يقرأ الفاتحة ، عيناها ووجهها الملتهب وشعرها المبتل وابتسامتها . . . ثم :

« مش حاتبوسني . . . يا اسمك إيه؟! . . . » .

وتضرب دقات قلبه في حلقه . . . ويجف لعابه . . . وتلتهب أذناه وتتثلج شفتاه وهما تلامسان خدها . . . وإذا هما يستحمان في بحر الرمال تحتهما ، وإذا هما يستحمان في بحر الرمال الدافىء ، وإذا هي تهمس وعيناها في عينيه :

« بوسني هنا! . . . » .

لم تخطر له الجنة ولا النار على بال ، تذكر أباه . . . ثم تذكر الله . . . ثم نسيهما في الحال . . . هو شيء وقع له ولن يحدث مرة أخرى ، وكلما ذهب معها إلى البر الثاني بحث . . . وانتظر . . . وترقب . . . ودق قلبه . . . لكن المرة الأولى لا تتكرر ، وكلما استحم معها صاح واضطرب . . . ثم أخذها إلى كثبان الرمال وتمرغ معها . . . ولكن هيهات ، وعندما يغلقون عليه الباب ويفتح الكتاب ويستعد للمذاكرة ، وعندما يسود السكون إلا من أنفاسه مع خضرة الستائر المسدلة ، وعندما تتسلل إلى عقله « أوظة » والبر الثاني وطعم الشهد فيستغفر ويتوب . . . وعندما تخلع ملابسها مرة أخرى وقد عفرتهما الرمال

من رأسيهما إلى أقدامهما . . . يسرع هو الآخر فيخلع ملابسه دون وعي . . . وإذا هو عار تماماً تحت سماء شديدة الزرقة . . . وإذا نسمة تهب فكأنه يطير فوق البساط السحري ، وتدفعه « أوظة » ضاحكة فيتمرغ فوق الرمال بجسد عار وتغزوه لذة تطلق الصيحات من حلقه عالية تملأ الفضاء الساكن من حولهما . . . وإذا هي تستلقي بجواره فيمر بأصابعه على جسدها الأبيض وتسري في جسده رجفة ، حملق في صدرها النابت . . . ثم ابتسم وهو يلمسه بأصبعه قائلاً :

« مشمش! . . . » .

فدفعته أوظة وهي تضحك :

« أمي بتقول رمان! . . . » .

ولو خرجت جنية من أعماق المياه لتخطفه يومها لما استطاعت . . . وإذا حديث أوظة يقطر في فمه كقطرات عسل شديد الحلاوة :

« لما تخلص الحرب نرجع اسكندرية! . . . » .

« إحنا لنا قرايب هناك! . . . » .

« لما تروح لهم حاتيجي عندنا؟! » .

« لما اكبر حا اشتغل هناك! . . . » .

« وتتجوزني؟! . . . » .

« ونسكن في بيت زي بيت عم ألبير! . . . » .

« لما نتجوز حا نسكن في الرمل! . . . » .

« نسكن على الكورنيش ، قدام البحر! . . . » .

« أنا عاوزة أودة نوم خشب! . . . » .

« أنا عاوز إبقى ، يا اما ضابط يا مهندس! . . . » .

« ونجيب أمي تعيش معانا! . . . » .

« وحا اشتري لك قميص أحمر! . . . » .

« وحا نطبخ لك كل يوم مسقعة ، أنا بنعرف نطبخ! . . . » .

« أنا باحب الملوخية! . . . » .

« وأنا مش عاوزة نخلف ، خالتي رقية ماتت وهي بتولد! . . . » .

« أنا ما احبش العيال! . . . » .

« أمي بتقول العيال نعمة! . . . » .

« تيجي نسافر بلاد برة! . . . » .

« أنا عاوزة نسافر اسكندرية! . . . » .

« انت بتخافي من الغارات؟! . . . » .

« نوسة أختي ماتت في الغارة! . . . » .

« هوه فيه قنابل بصحيح في اسكندرية؟! . . . » .

« أنا عاوزة نروح . . . عاوزة نروح بيتنا . . . أنا مروحة! . . . » .

قرب ناصية الشارع يسير حضرة الناظر مع عم اسكندر ، يسيران متجاوزين وقد انثنيا من السوق ناحية شارعهم . . . يجمد في مكانه وهو يحملق فيهما ، وإذا كان عم اسكندر قد جاء مع حضرة الناظر فلا بد أن عم ألبير قد حل محله . . . ولا بد أن الساعة الآن الخامسة وعشر دقائق ، ينظر إلى بعضشى ويقول بلسان مرتجف :

« الناظر! . . . » .

« الناظر! . . . » .

يرددها « بعضشى » في وجل وهو يقدم له زجاجتي الشربات ، يأخذهما منه فيثقل حمله . . . لكنه ينطلق عدواً وفي قلبه ألف صرخة . . . ظهرت النتيجة حتماً وعرفها الناظر وعم اسكندر . . . تحدث عم كامل من البندر . . . وزف إليهما الخبر ، يبتلع لعابه ويخفف من

سرعته وهو يجاورهما ويرفع إلى وجهيهما عينيه . . . وكانا يبتسمان . . . يراه الناظر فيتوقف وتسقط عيناه على زجاجات الشربات فتزداد ابتسامته اتساعاً . . . يبدو وجه الناظر جميلاً طيباً ، أجمل مما كان في المكتب ، وعندما يتحرك شاربه الكث يتلوى قلبه باللهفة :

« إجري يا ولد على البيت وقول لوالدك إننا جايين نشرب الشربات! . . . » .

إذن فهو اليقين ! . . .

« هو عم كامل اتكلم من البندر يا عم اسكندر!؟ . . . » .

ويصيح عم اسكندر :

« إجري يا جن . . . إسمع كلام حضرة الناظر! . . . » .

* * * *

الفَصْلُ التَاسِعْ عَشَرَ

فـات الكثير ولم يبق إلا القليـل ، ومهما طـال الزمن فيستـطيع أن يلحق « أوظة » في البر قبل عودتها . . . سيكون معه مصروفـاً يشتري بـه شيئاً أو يستأجر دراجة إن أحب ، وسيستحم معها في المياه ويتزوجها . . . ثم يأخذها معه أينما ذهب بعد ذلك . . . وسيكون معهما « بعضشى » إذا عاد قبل العشاء . . . الشارع الممتد حتى الوسعـاية . . . وبـرج الكنيسة بأجراسه . . . ومئذنة الجامع . . . الجدران والبيوت . . . والوجوه المطلة عليـه بعيـون ملؤهـا الابتسـام . . . وسيشـرب كـل منهم كـوبـاً من الشربات . . . الأشيـاء تتطايـر من حولـه وهو يـطلق لساقيـه العنان . . . أنفاسه تتقطع ، ولسانه يتمتم بشكر ملهوف :

« **الحمد لله . . . الحمد لله . . . الحمد لله يا رب! . . .** » .

وإذا مر بشخص يعرفه فلا بد أن يسمع نفس السؤال : « هيه النتيجة ظهرت؟! . . . » ولا يستطيع سوى أن يردد في لهفة :

« **حضرة الناظر ، حضرة الناظر! . . .** » .

وبعد دقائق سوف يعود إلى الشارع . . . وعلى الأولاد أن يفسحوا له الطريق وهم يحملقون فيه وفي زجاجات الشربات بين ذراعيه . . . تطارده النـظرات والأسئلة لكنه لا يستـطيع إلا أن يـردد : « حضرة النـاظـر . . . حضرة الناظر! » . . . يقفز السلم قفزاً وينفذ من الباب المفتوح مندفعاً إلى الداخل ليصطدم بأبيـه وسط الصالـة . . . يرفـع عينيه إلى أعلى ليـطالعه

الشــرر المنبثق من العينين الغـاضبتين دائمــاً . . . وليست طنط جـانيت هنـاك ، لكن الحبيبـة تخـرج إليـه من غـرفـة النـوم قبـل أن يفتــح فمـه بكلمة . . .

« حضرة الناظر . . . حضرة الناظر! . . . » .

وتشهق أمه من خلفه :

« حضرة الناظر؟! . . . » .

ويختفي شـرر الغضب وتنفـرج ثنيـة اللحم ويـأتيـه الصـوت مليئـاً بالاهتمام :

« ما له حضرة الناظر يا سيدنا الأفندي؟! . . . » .

وتنحني عليه طنط جانيت فيغرقه عطرها ويأتيه صوتها :

« إيه الحكاية يا حبيبي . . . هات القزايز دي الأول! . . . » .

وقبل أن تمد يدها إلى الزجاجات . . . يجد صوته يقول :

« حضـرة الناظـر يا طنط جـانيت وعم اسكنـدر . . . دول جـايين ورايا! . . . » .

« مين اللي قال لك الكلام ده يا سيدنا الأفندي؟ . . . » .

« دول زمانهم طالعين على السلم يا بابـا . . . حضرة النـاظر هـوه اللي قال لي دلوقت! . . . » .

هذه أول مرة يقول فيها شيئاً لأبيه فيبتسم . . . يندفع نحو البلكونـة يـطل منها بينمـا أمه تنقض بلهفـة على الزجـاجات ، وتهـرول بهـا نحـو المطبخ :

« يا دي الحوسة يا اختي . . . دا ما فيش ثلج! . . . » .

« إسمعي يا بنت إنتي بطلي لبخة ، إيه يعني الناظر ، هيـة القيامـة

قامت كل حاجة على مهلنا . . . إيه يا ثابت ، دخلوا البيت؟! . . . » .

يعود أبوه من البلكونة وقد انبسطت كل أساريره وبدت في عينيه فرحة طغت لها جوانحه بالألم . . .

« ادخلي انتي وجانيت أودة النوم! . . . » .

« حاضر يا اخويا ! . . . » .

تقولها أمه وهي تتجه إلى غرفة النوم ملبية في اهتمام . . . وتضحك طنط جانيت في وجهه :

« ومين يعمل لك الشربات يا سي ثابت! . . . » .

« خلي الستات اللي جوة يوطوا صوتهم شوية . . . الناظر طالع على السلم! . . . » .

وتعود أمه إلى عبور الصالة وتتجه نحو باب الغرفة الكبيرة مرددة :

« حاضر يا اخويا ! . . . » .

ويتسرب أخوته بلا صوت . . . ثم يقفوا بجوار بعضهم البعض ، وتندفع سهام نحو باب الشقة لتغلقه . . . فيصيح فيها :

« ما تقفليش الباب . . . حضرة الناظر جاي! . . . » .

« إخرس انت! . . . » .

يقولها أبوه بجفاء . . . فترتد نفسه إلى الخلف متوارية . . .

«تعملوا كبايتين شربات كويسين يا جانيت وابعتي حد من الولاد يشتري ثلج بسرعة يا ست هانم . . . وتطلعي الطقم المذهب من دولاب الفضية! » .

وتدب على السلم أقدام تقترب في بطء . . . وسعلة ترتفع من

خلف الباب ، معلنة وصول الضيوف . . . ويتحرك البيت كله باهتمام ، اخوته والخادمة وأمه . . . وطنط جانيت . . . والمقاعد والستائر والأحذية والشباشب . . . ويخفت صوت النسوة في الداخل . . . ثم يعود صمت كصمت الجامع بعد صلاة العشاء . . . وانفضاض الناس من حول الشيخ وتخلو الصالة تماماً وتبدو الأبواب وكأنها تحبس أنفاسها . . . وما يكاد يتحرك نحو الباب حتى يسمع نقراً وقوراً قوياً واضحاً يدق له قلبه بعنف ، ويصدر أبوه الأمر بصوت واضح النبرات عظيم ، وكأنه يتحدث في الراديو :

«افتح الباب يا ولد! . . .»

وقبل أن تمتد يده إلى باب الشقة يسمع صرير باب الغرفة الداخلية، فلا بد أن أمه تريد رؤية الناظر من ثقب رفيع بين الضلفتين:

«اتلمي واقفلي الباب يا ست هانم ! . . .» .

يأتيه صوت أبيه هامساً كصوت العصا وهي تشق الهواء، وقبل أن تمتد يده لتفتح باب الشقة، يلتفت إلى الخلف ليطمئن أن آخر الأوامر قد نفذ. . . كل شيء ساكن وليست هناك سوى قامة أبيه تكاد تصل إلى السقف، ونظراته الثابتة، وتدهمه الرهبة فترتجف يده وهي تمتد نحو الباب لتفتحه وما أن يتعالى صريره حتى تدوي في سكون البيت كلمات أبيه:

«أهلاً وسهلاً حضرة الناظر. . . ده شرف كبير لنا. . . أهلاً وسهلاً. . . أهلاً وسهلاً. . .».

ويحس أن شيئاً عظيماً قد حدث. . . وكان هو سبب حدوثه!

* * *

الفَصْــلُ العِشْــرُون

الباب المغلق دونه والأصوات المنبعثة من خلفه وأين هو من الحقيقة الآن ؟!

يعلو في الداخل صوت حضرة الناظر وصوت أبيه . . . لكنه لا يستطيع تفسير ما يقولان . . . المقاعد الخضراء والستائر السميكة المسدلة على النوافذ كالحيطان ، السجاد الناعم كالحرير . . . وجو الغرفة المعبق بالسكينة . . . ولا بد أن الحقيقة تقبع خلف الباب واضحة . . .

نجح أم لم ينجح ؟!

لم يعد السؤال الآن سؤالاً ، أصبح جواباً . . . فقد ظهرت النتيجة وخط القدر كلمته . . . وإذا كان ناجحاً ، وإذا كان عم كامل قد أرسل رسالته من البندر ، وإذا كان هذا مقدراً في اللوح المحفوظ منذ ولد . . . ففيم كان التعب والعذاب إذن ؟! . . . لماذا ذاكر وسهر الليالي ، وخاف حتى الموت وانتابه القلق ؟ . . . الله قادر على كل شيء فلماذا لم يخلقه بعينين تخترقان الأبواب وأذنين تسمعان ما خلف الحيطان ؟ . . . أمه لا تتعدى باب الصالة خوفاً ، تفتح الحبيبة دولاب الفضية وتحمل الأكواب المذهبة والصينية الفاخرة . . . ولا تخرج هذه الأشياء من الدولاب إلا صباح كل عيد . . . وهي التي فتحت باب الغرفة الكبيرة لتتسلل منه النسوة خارجات وهن يطلقن الدعوات والتمنيات في همس . . . تقبله أم أوظة وهي تقول إنها ستزوجه لابنتها حتى يصبح زيتهم في دقيقهم ، ويمتد

الطابور من باب الغرفة حتى باب الشقة ، وتتسرب النسوة واحدة بعد الأخرى حتى يخلو البيت ، فتستدير أمه نحو طنط جانيت قائلة في أسى :

« **نزلوا يا اختي من غير ما يشربوا الشربات يا دي الفضيحة!** » .

وتزجرها الحبيبة وهي تندفع نحو المطبخ :

« **كلها نص ساعة ونبعث لهم الشربات في بيوتهم . . . الناظر جوة والبيت لازم يفضى للرجالة!** » .

يسود السكون وتخلو الصالة إلا منه فيجلس على مقعد ويهز ساقيه . . . لا يدري ماذا يفعل . . . وينفرج باب الغرفة الكبيرة وتطل سهام محملقة فيه بعينيها الواسعتين ولكنها لا تجسر على الحركة ، تخرج له لسانها فيبصق في الهواء ويشيح عنها بوجهه فيأتيه صوتها عالياً :

« **انت بتف على خلقة ربنا ؟ . . . طب ودين النبي لانا قايلة لبابا!** » .

ويسمع صرير الباب وهو يفتح . . . فيضطرب . . . ترتد عيناه ليجد سامية وهي تغادر الغرفة وتتجه نحوه في خفة وتقترب منه وعلى وجهها ابتسامة :

« **انت نجحت؟!** » .

يهز رأسه دون كلمة . . . فتلتصق به متسائلة :

« **أبوسك! . . .** » .

يهز رأسه مرة أخرى ويشعر بشفتيها فوق خده فيقبلها هو الآخر ويتنهد في ارتياح ، وعندما تستدير عائدة . . . يحاول أن يوقف اهتزاز ساقيه فلا يستطيع ، تجلل الرهبة حواسه جميعاً ويكتم أنفاسه عندما يصيح « بعضشى » منادياً :

« ويكا !!! . . . . ويكا . . . » .

ولا بد أن أباه قد سمع النداء ، ولـولا وجود الناظر لنخسه بكلمة في عظامه . . . وذات يوم حيره الأمر . . . فسأل أباه :

« هـوه ربلنا لـو كان عـايزني أمـوت دلوقت يـا بـابـا مش بـرضـه أموت! » .

خبطت أمه على صدرها صائحة :

« بعد الشر عليك يا ابني! . . . » .

ونظر إليه أبوه متسائلاً دون كلمة . . . فأعاد السؤال مرة أخرى . . . وجاءه الجواب بلا جديد :

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . . . يا سيدنا الأفندي! » .

« يعني لو كان ربنا عاوزني أنجح . . . مش أنجح على طول؟! » .

العينان الحمراوان وثنيـة اللحم فيما بين الحـاجبين . . . والصوت الحاسم كحد سكين :

« طبعاً يا سيدنا الأفندي . . . وهيه دي عاوزة سؤال! » .

« حتى لو ما ذاكرتش؟! » .

وطقت العينان بالنور . . .

« عاوز تقول إيه! . . . » .

أُرْتِجَ عليه وابتلع لعابه وعاد يسأل . . . فقد كان يريد أن يعرف :

« يعني يا بابا بعد الشر . . . لو كان ربنا عاوزني أسقط مش برضه أسقط ؟! . . . » .

« انت عاوز تقول إيه؟! » .

« حتى ولو حفظت كل دروسي وموت نفسي في المذاكرة؟! » .

« جبت الكلام ده منين؟! » .

« **مش أنا باسأل حضرتك؟ . . .** » .

« **نعم . . .** » .

قالها أبوه بتبرم ونفاد صبر وهو ينفث الدخان في وجهه . . .

« **يعني لو كان ربنا مثلاً يعني مثلاً . . . عاوزني أنجح ، مش برضه أنجح؟!** » .

« **من غير مذاكرة؟!** » .

لم يكن سؤالاً من أبيه بقدر ما كان زئيراً ونذيراً . . .

« **ما هو يا بابا. . . . . . .** » .

وقفز إلى الخلف مذعوراً فقد كان الكف يهوي نحو وجهه . . . لكنه أفلت في آخر لحظة . . . ارتطم جسده بالسرير وتمرغ على قضبانه حتى اصطدم بالحائط فسقط على الأرض متداخلاً في نفسه والزئير يلاحقه هاجماً عليه :

« **ما لك انت ومال الكلام الفارغ ده ؟ . . . انت حاتكفر على آخر الزمن يا سيدنا الأفندي؟ . . .** » .

« **أبداً والله العظيم يا بابا . . . أنا أصلي. . . . . .** » .

يطل عليه الوجه الهائل من أعلا محتقنا بدماء الغضب . . .

« **انت تذاكر وبس ، تذاكر وبس . . . فاهم؟!** » .

« **حاضر . . .** » .

« **وإذا كان عليك فرض تقوم بيه من غير ما تسأل . . . فاهم؟!** » .

ابتلع لعابه وهز رأسه وازداد تداخله والتصاقه بالحائط . . . وتبعثرت أفكاره وراح يردد :

« **حاضر . . . حاضر . . .** » .

ووقفت أمه عند باب الغرفة لكي تعلمه :

« مـا هـو يـا ابني ربنا قـال . . . إسعى يـا عبـد وأنـا أسعى معاك . . . ! » .

لم يعـرف الجواب . . . وظـل السؤال يلاحقـه ويحيـره . . . ولـو استطاع الآن لقام وتوضأ وذهب إلى الجامع فصلى واستغفر وقام وسجـد وركع تائباً . . . فهل يستطيع أن يترك الناظر في الداخل وعم اسكندر حتى ولو كان الله هو سبب ذهابه ؟! وإذا كان النبي قد جاءه في المنام وقال له إنه سينجح ، فقد قال الشيخ زهران نفس الكلام فهل يصدقه . . . ؟!

وفي ليالي رمضان يطربه صوت الشيخ الشجي في المديح ويبكيـه مـع الناس . . . لكن دمـوعه لم تعـد تستجيب منذ تلك الليلة حتى ولـو أراد . . . اللحية البيضاء . . . والطربوش الأسـود الذي تحيـطه هالـة من القماش الأبيض الناصع . . . العينان الصافيتان . . . والوجه المليح يبدو وكأنه الملاك هبط من السماء ليهدي الناس في الأرض ، ويـوم تضيق به الحـال كان يتـوهم أنه !! . . . أنـه ليس ابن أبيه . . . لكن قبلة على يـد الشيخ كانت تمسح عن نفسه الحزن ، وركعتان لله تصيبانه بالسكينة . . . سطح الجامع والنجم اللامع والسماء الصافية والبحث عن الله والدعوات والابتهـال الصـادر من أعمـاق القلب البـريء وأصـداء ابتهـالات الشيـخ زهران . . . وإذا ضحكات الناظر ترده إلى نفسه فيتنفس ملء صدره . . . وإذا جلجلة الضحكات في الغرفة الخضراء تصفق في مرح فيبتسم . . . وإذا صوت أبيه يتصاعد من خلف الباب المغلق :

« وحياة عزة الله يا حضرة الناظر . . . أنا غلبت معاه! . . . » .

يدهمه الانقباض فتسود أحاسيسه بلون الليل ، ويوم قـال لأمه إنـه

سيصوم رمضان . . . صاحت خوفاً عليه . . . لكن أباه زجرها قائلا :

« سيبيه يصوم ، هوه صغير؟! . . . » .

أسقط في يده يومها . . . وأصبح الصوم فرضاً لا يستطيع التراجع عنه ، تمنى لو أنه لم يقل ما قال ، فقد تمنى الصوم دون أمر . . . فلماذا يحب عصيان الأوامر ؟ . . . ولماذا يحلو له الشيء إذا منع عنه ؟ . . . كان السحور الأول مزدحماً بالأحداث ، سبقته ليلة لم يُـزْجر فيها ولم يُضرَب وأُعْطِيَ مصروفاً وطالعته الدنيا بابتسامة جللت وجه أبيه . . . وظل في الشارع حتى أوغل الليل ، وطاف مع « بعضشى » و« أوظة » بالفوانيس ، وطرقوا أبواب البيوت صائحين مهللين : « حالو يا حالو . . . رمضان كريم يا حالو! » وامتلأت جيوبهم باللوز والجوز وقطع قمر الدين الشهية . . . وأراد أن يظل يقظاً حتى مطلع الفجر لكن النوم أخذه أخذاً ، وعندما أيقظته أمه رأى إخوته جميعاً وهم جالسون من حوله فوق الفراش وعيونهم مفتوحة ، وعندما غادر الغرفة تزاحموا حول المائدة وكان الظلام في الخارج دامساً وأصوات الخفر تتصايح عن بعد وعن قرب :

« طفي النور . . . طفي النور! . . . » .

وعندما توقف المسحراتي أمام باب بيتهم ذكر اسمه ودعا له بالهداية والنجاح . . . وارتفع صوت الراديو في سكون الفجر يقرأ القرآن ، وعلا في المطبخ صوت الوابور ، وراحت أمه وجاءت ، ورغم حبه الشديد للفول المخلوط بالزبادي إلا أنه أكل بمعدة مغلقة شرب شاياً ولم يشعر بالعطش إلا عندما أذن الفجر وأصبح الصوم واجباً . . . توضأ ومضمض فمه مرات ومرات . . . لكن عطشه كان يزداد في كل مرة ، أقام أبوه الصلاة فوقفوا جميعاً من خلفه وصلى الفجر بذهن غائب فقد كان العطش يطارده . . . نام الجميع وتمدد وسط إخوته وبان في الخارج أول بصيص

لضوء النهار وأصبح العطش عذاباً ، وإذا كان يوم الحساب يبدأ من سن الثامنة عشرة فليس الصوم عليه واجباً فلماذا يفعل ؟! قال الشيخ زهران كما قال أبوه : في القرآن : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفر ﴾ . . . فلماذا لا يمرض . . . وإذا أفطر فعليه أن يطعم عشرة مساكين . . . فمن أين يأتي بالمال ؟ . . . ولماذا يصوم من الآن وما زال أمامه ستة رمضانات أو سبعة . . . ولماذا أصبح الملك ملكاً ؟ ولماذا لم يكن هو ابن بك ؟ . . . ينهض من مكانه ليشرب ولن يعرف سره مخلوق . . . تسلل من تحت الغطاء حافي القدمين . . . وتخطى جسد الخادمة ثم انفلت من باب الغرفة إلى الصالة وهو يكتم أنفاسه ، واحتبست دقات قلبه خلف أذنيه وأصبح لها دوي الطبول . . . الظلام والسكون وصوت الأنفاس المترددة في سكون البيت يلقي بالرهبة إلى نفسه فيرتجف . . . خطوة إلى اليمين ويصبح داخل المطبخ ، وخطوة إلى الأمام ويصبح في مواجهة صينية القلل وعليه ألا يشرب منها فلو رفع إحداها لاهتزت كالعادة وأحدثت في البيت صوتاً سيدوي في سكون الفجر هذا . . . عن يساره كان الصنبور ويعب من المياه كيفما شاء . . . لاحت منه نظرة إلى نافذة المطبخ . . . وإذا النهار في الخارج يطلع . . . ودق قلبه بعنف فإن لم يره أبوه فالله حتماً يراه أينما كان وإذا كان الصوم واجباً على من يبلغ الثامنة عشرة فهو يعرف أن الإفطار حرام ! . . .

« **الصوم واجب على كل عاقل يا بني!** » .

هكذا قال الشيخ . . . وهكذا دب الرعب في قلبه . . . فلا بد أن الله يرقبه . . . فأين المفر ؟ . . . تسمرت قدماه فوق بلاط المطبخ وجمدت حركته ونفذت البرودة إلى عظامه وكان الضيق ينهشه وكل ما فعله مع « أوظة » رآه الله . . . لكن تشارلي يوم أعطاه « تشارلي » قطعة من لحم

الخنزير لم يستطع أن يرفضها فقد كان جائعاً وقد دخل الحرام جوفه ودنسه . . . عاد إلى الفراش واندس تحت الغطاء ونام . . . لكنه استيقظ قبل الجميع بحلق جاف وصدر منقبض . . .

« ما لك يا ولد؟! » .

نظر إلى أمه . . . ولم يرد . . . فصاحت سهام وهي تبتعد عنه :

« عاوز يفطر يا ماما! . . . » .

استولى عليه الغضب وهم بضربها فصرخت وولولت وبكت وتذكر ساعتها أن أباه لم يخرج إلى عمله بعد . . . وجاءه الصوت من الغرفة المجاورة قبل أن يرتد إليه طرفه :

« اصطبح على الصبح وقول يا فتاح يا عليم الدنيا صيام يا ابن الكلب! ! » .

وقبل الغروب ستأتي ساعة المغربية . . . عندما يضيق الخلق وتصبح أقل حركة كافية لتفجير بركان الغضب . . . وفي النهار لم يشعر بالجوع لكنه تمنى لو استطاع أن يأكل دون حرج . . . استغفر الله . . . وتوضأ . . . وعندما وقف ليصلي أيقن أن الشيطان كان يحرضه ، توقف عن الصلاة وتذكر الجامع والشيخ زهران فإذا بقلبه يرقص طرباً فهناك الملاذ دائماً . . . في الجامع توضأ مرة أخرى وصلى وقرأ قرآناً وسبح الله حتى جف لعابه ، وعندما وقف خلف الشيخ زهران لصلاة العصر كان الصف خلفه طويلاً . . . وعندما قال الله أكبر أحس أن الله قد غفر له وأنه سيدخل الجنة . . . بعد الصلاة جلس بجوار الشيخ وقبل يده وراح يستمع مع الجميع إلى الدرس وقصص الأنبياء والمرسلين وحديث الشيخ عن النبي وسيدنا عمر ، وأبي بكر ، وعثمان . . . أحبهم جميعاً . . . لكن حبه لعلي بن أبي طالب فاق حبه للجميع ، وكم تمنى لو أن الله خلقه في

زمانهم لينجو من النار ، كم تمنى ذلك حتى إذا كبر أصبح شجاعاً وامتطى جواداً واستل حساماً . . . وراح يقاتل الكفار . . . وسماه الناس سيف الله المسلول . . . بعد الدرس قبل يد الشيخ وقد زايله الجوع والعطش وأحس ساعتها أنه يستطيع رؤية الله لو أراد . الشوارع المزدحمة . . . والأطفال . . . وباعة الفول ونداءات رمضان . . . وصفاء السماء العظيم . . . على الأرض وجد لقمة فالتقطها وقبلها ثم وضعها بجوار حائط وهو يتمتم :

« **نعمة ربنا . . .** » .

وعند ناصية الشارع رأى « بعضشى » . . . فقال له في حماس :

« **إن ما جيتش تصلي معانا العشا في الجامع حاخاصمك!** » .

ورد عليه « بعضشى » وهو يجهز مدفعه الصغير لساعة الإفطار :

« **خاصم وإيه يعني . . . أنا « وأوظة » حانقول حالو بعد الفطار! . . .** » .

ووجد شيخاً أعمى يعبر الطريق فقاده من يده إلى الرصيف الآخر ، ودعا له الشيخ بالنجاح والفلاح فاستكانت نفسه راضية ، وعند باب البيت قابلته سهام وصاحت فيه :

« **انت فطرت ؟ . . . حاقول لبابا! . . .** » .

« **أنا ما فطرتش! . . .** » .

« **أمال إيه اللي في بقك ده؟! . . .** » .

فتح لها فمه عن آخره . . . ثم أخرج لها لسانه . . . فصاحت وهي تعدو مبتعدة عنه :

« **هيه . . . أخذت صيامك يا عبيط! . . .** » .

ولم يغضب ، ولم يهتم . . . راح ينظر إليها حتى توقفت عن العدو

واستدارت نحوه وأخذت تحملق في وجهه ، ثم أخرجت له لسانها وقالت :

« يا فاطر! . . . » .

فقال : « الله يسامحك! . . . » .

ثم دخل البيت وهو يداعب مسبحة أبيه القديمة ويتمتم بذكر الله الذي هداه . . . وقبل أن يصل إلى منتصف السلم لحقت به سهام منادية . . . نظر إليها وانتوى ألا يمد يده عليها مهما قالت ومهما فعلت ، لكنها لم تخرج لسانها . . . ولم تغظه . . . وعيناها تزدادان اتساعاً :

« انت مش حاتضربني. . .؟ » .

أنوار المئذنة لا تضاء منذ قيام الحرب ، وأذان المغرب في الراديو يدفعه للصلاة قبل أن تمتد يده إلى لقمة أو كوب ماء . . . بعد الصلاة كان سعيداً وفرحاً وكأنه دخل الجنة ، وإذا نفسه تعاف الطعام . . . فكيف انتابه العطش الرهيب في الفجر وقد ذهب الآن تماماً ؟

« ما تاكل يا سيدنا الأفندي . . . ما لك؟ » .

يرى الله أمام قبلة الجامع عند صلاة العشاء والتراويح . . . وعندما دخل الجامع كان العيال يتزاحمون عند باب المئذنة يريدون الصعود للتهليل والتكبير قبل الأذان . . . وكان يعلم أن الشيخ زهران لا يسمح بالصعود معه إلى السطح لأحد من الأطفال حتى لا يزيطوا ويفسدوا المديح . . . كان واقفاً وسطهم بطربوشه الأسود وهالة البياض من حوله ولحيته الناصعة ويده الممتدة إلى الشفاه تلثمها في خشوع ، وكان موقناً أنه يستطيع رؤية الله لو أراد ، ازداد تزاحم العيال حول الباب عندما فتحه الشيخ فوجد لنفسه منفذاً فتسلل من تحت ذراع الشيخ دون أن يراه ، وسمع صياح صبي فوق أصوات الأطفال جميعاً :

« إلحق يا عم الشيخ . . . فيه واحد دخل! . . . » .

لكن الشيخ ظل ينهرهم ويزجرهم ويبعدهم دون أن ينتبه إليه . . . توقف في ظلام السلم اللولبي الناعم الحيطان وأنفاسه تتردد وحذاؤه في يده ، وعند باب السطح توقف مرة أخرى وأخذ يصيخ السمع ، خوفاً من أن يلمحه الشيخ ، ويمنعه من الصعود إلى الدرج متخبطاً في الظلام . . . عندما أغلق الباب وعم الصمت ، عند شرفة المئذنة الأولى توقف . . . حمد الله ووقف في الشرفة الأولى يختلس النظر إلى الشارع فرأى العيال متجمعين وهم يهللون ويتصايحون . . . نظر إلى السماء وتمنى لو أن الله خلقه ملاكاً ليطير إليه ويسبّح بحمده ، وخفتت خطوات الشيخ وسعاله من سلم المئذنة فأيقن أنه خرج بدوره إلى السطح وأن المديح سوف يبدأ . . . انطلق يصعد الدرجات مسرعاً إلى الشرفة الثانية فهناك سيكون أقرب إلى الله . . . ارتمى عند بابها لاهثاً وهو يكتم أنفاسه ، وطالعته السماء بنجومها وبريقها فنهض مترنحاً وخرج إلى الشرفة وفرد ذراعيه وملأ صدره بالهواء وهدأت دقات قلبه عندما تطلع نحو نجم بدا له شديد اللمعان ، أين يكمن الله الآن ؟! وإذا كان الله في كل مكان فلا بد أنه الآن في مكان ما !

« يا رب . . . يا ااا رب ترضى عني وتهديني وتنجحني وتبعد عني الشيطان يا ااا رب! » .

كان موقناً أن الله يسمعه ، تعلقت عيناه بالنجمِ اللامعِ وتمنى لو كان هذا النجم في السماء السابعة وبدا له الله بعيداً بعيداً . . . شديد البعد . . . يجلس فوق عرشه الذهبي المرصع ، تحف به الملائكة والأنبياء والكل ينظرون إليه ويبتسمون . . . وإذا نسمة تهب فتلف جسده وتغسل وجهه ، وإذا النجم العالي يقترب ، وإذا ذراعاه مفرودتان في

الهواء ، وإذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون . . . وإذا نور يغطيه من كل مكان ، وإذا آيات القرآن تنسال من بين شفتيه في يسر ، وإذا به يسبح في السماء ومن حوله النجوم والقمر والشمس وقلبه يخفق ، وإذا صوت يأتيه من بعد سحيق :

« ناجح بإذن الله ! . . . » . . . فارتجف! . . .

« والنبي تقرأ لي آية الكرسي! . . . » .

واشتد ارتجاف مفاصله وفكه . . . أصابته الرعشة وسرت في بدنه قشعريرة . . . وانتفض مذعوراً والصوت يأتيه من قلب الفضاء ! . . .

« ناجح . . . ناجح . . . إن شاء الله. . . » .

ازداد ارتجافه وأصابه الهلع فانهمرت دموعه . . . وراح يقرأ آيات تساقطت من بين شفتيه وهو يتخبط في الظلام عائداً ، أخذ يهبط السلم بقدمين تسبحان فوق بحر من الفزع الرهيب ، درجة بعد درجة . . . ولم يتمهل عند باب الشرفة الأولى ، وهل يصدقه أحد إذا قال إنه سمع صوتاً يحدثه من السماء ، أو أنه تحدث دون أن يفتح شفتيه . . . اقترب من باب السطح فداخله الاطمئنان قليلاً لكنه لم يكف عن قراءة القرآن ولن يخبر أحداً بما حدث . . . سمع الصوت آتياً من السماء وتحدث دون أن يفتح فمه أو يحرك لسانه ولو قتلوه فلن يتراجع . . . عند باب السطح كان قلبه يضرب جدران صدره بعنف أوجعه فارتد ملتصقاً بالحائط وطقطقت عظامه . . . وظل ينتفض . . . حاول القراءة لكن لسانه لم يقو على الحركة ، وإذا كانت الشياطين حرة تفعل ما تشاء فالله يقيدها تحت الأرض في رمضان ففيم خوفه إذن ؟

وإذا قدماه تهبطان السلم وجسده يبرد كالثلج . . . تمتد يده لتفتح باب المئذنة . . . والناس في الجامع والأضواء الزرقاء كنجوم قديمة

صدئة . . . وإذا الابتهالات كدمدمات تخنقه . . . وعندما كان صوت الشيخ زهران يؤذن لصلاة العشاء كان هو يطلق لساقيه العنان في الشوارع وهو يهتف باكياً والدموع تغرق وجهه :

« بابا . . . بابا . . . الحقني يا بابا! . . . » .

* * * *

يفتح باب الصالون فجأة . . . فيهتز قلبه اهتزازاً . . . يطل عليه أبوه بوجه ضاحك . . . لكن ثنية اللحم فيما بين الحاجبين كانت لا تزال معقودة ويتصاعد صوت الناظر في الداخل وهو يتحدث مع عم اسكندر ، ولا تختفي الابتسامة من الوجه العظيم وإن كان الحاجبان يلتقيان فوق الأنف تماماً . . . يحس بالرهبة تملؤه فلا بد أنه نجح . . . إنه نجح . . . ويقول أبوه :

« الشربات يا ولد! . . . » .

فيتنفس الصعداء ، وهو يبتسم متهللاً ، وينتفض واقفاً والسؤال على أطراف شفتيه ، وما يكاد يسأل حتى يختفي الوجه في الداخل ويغلق الباب دونه من جديد . . .

* * * *

الفَصْـلُ الحَادِيَ وَالعِشْرُونَ

يستدير نحو المطبخ ليطالعه الوجه الحبيب بابتسامة واسعة ، يغص حلقه ويتمنى لو قبلته في فمه . . . فطعم الروج يعجبه . . . وتعاوده الرغبة في البكاء بلذة ، وتنحني عليه فيغرقه عطرها . . .

« مبروك يا حبيبي . . . تحب أجيب لك إيه؟ ! . . . » .

طالما كره دموعه ومقتها مقتاً ، إنه يقاوم . . . ويقاوم . . . ويقـاوم دون جدوى ، ينبع الدمع من قلب صدره ، يشعر بسريانه من الصدر إلى العنق . . . ثم الـرأس والعينين . . . وكأنـه يرى مسـاره بعينيه ، وعنـدما يتحدث يأتي صوته مرتعشاً رغم كل محاولاته :

« بابا عاوز الشربات ! . . . » .

تغادره ساعية إلى المطبخ وهي تهمس لأمه بصـوت سمعه دون أن يتحرك من مكانه :

« يالله يا ست إنتي . . . جوزك عاوز الشربات ! . . . » .

وتبح أمه بصوتها في السكون السائد في البيت كله :

« فين الولد . . . كل حاجة جاهزة أهيه ! . . » .

ثم يصبح أمام الباب وجهاً لوجه ، وسيعبره بعد خطوة واحدة ويعرف الحقيقة ، الصينية بين يديه . . . وأكواب الشربـات تتلألأ على أسـطحها قطع الثلج اللامعة ، وعندما يخرج من الغرفة الخضراء سيملأ لنفسه كوباً

مذهبة ويشربها على مهل . . . يغطي جسدها ظهره ويدغدغ دفء بطنها حواسه . . . وتشتد يداه على الصينية . . . تمتد يدها من فوق رأسه فيرى أظافرها المطلية بالمانكير ، نقرة واحدة هامسة يفتح بعدها الباب . . . وتهب عليه رائحة أبيه ، يرفع رأسه فيرتجف ، ويتمنى لو مات الآن وبقي الوجه على ما هو عليه ، اجتاحته الدهشة اجتياحاً وهو يرى تلك البسمة المضيئة فكان الوجه يشع بالنور ، وهل من الممكن أن يكون لأبيه تلك النظرة التي قال بها : « ادخل يا ولد؟ . . . » .

وهل من الممكن أن يكون له هذا الصوت الذي همس به من فوق رأسه : « خلاص . . . روح انت؟! . . . » .

يغلق باب الغرفة من خلفه . . . ويهبط الصمت على رأسه كقطعة حجر ، يطل عليه ضوء الشارع من فرجة الستارة الساقطة من السقف حتى الأرض ، ولا بد أن « أوظة » قد وصلت الآن إلى البر الثاني ، ولا بد أنها خلعت ملابسها وغطست في المياه . . . يخف الحمل عن ذراعيه فيستدير بالصينية نحو عم اسكندر ، وتخف الصينية أكثر . . . ولا بد أنها الآن تسبح موغلة في المياه ، جسدها الأبيض المبتل ورداء الرمال يغطيه . . . ثم السعي إلى ما تحت الكوبري عرايا ويداهما متشابكتان . . . وعندما يستدير تلتقي عيناه بعيني أبيه ، يتقدم نحوه خطوة فيوقفه الصوت الواثق بالأصبع المصوب نحو جبهته تماماً :

« أنا قبل ما اشرب الشربات مع حضرة الناظر . . . أحب أقول لك كلمتين! . . . » .

يترقرق الصمت فوق سطح الثلج العائم في الكوب الباقي ، وإن كانت « أوظة » قد سبحت مع العيال وحدها فلن يكلمها حتى الموت ، يتنحنح الناظر خلف ظهره وتهتز أصبع أبيه أمام وجهه منذرة :

« أنـا أحب أقول لـك إن الفضل الأول في نجـاحك ـ ده إذا كنت نجحت ـ يرجع لحضرة الناظر! » .

إذن فعم كـامل لم يتصـل من البندر بعـد . . . وما زال الخبـر غير أكيد . . . هل تعود « أوظة » لتصحبه بعد خروج الناظر؟! . . .

« وإذا كنت أنا ربيتك وصرفت عليك ، فحضرة الناظر خيره عليك أكثر مني لأنه علمك وخلاك بني آدم! . . . » .

وتشق شعيرات المنشة هواء الغرفة من خلفه . .

« وقالوا في المثل يا سيدنا الأفندي . . . من علمني حرفاً صرت له عبداً! . . . » .

ويقول الناظر من خلف ظهره أنـه شاطـر ونبيه وذكي . . . غيـر إنه معجون بماء العفاريت . . .

« وانت مهما كبرت وعلا شأنك حضرة الناظر زيـي بـالضبط . . . عينك ما تترفعش فيه أبداً » .

تعود الشعيرات لتصفر من خلفه ، ويقول الناظر إنه مؤدب . . . لكن شقـاوتـه لا تــطاق ، ويخيـل إليــه أنـه يسمــع صـوت « بعضشى » في الشارع . . . فهل تكون « أوظة » قد عادت؟! . . .

« أنا شفت وكيل وزارة بيـوطي على إيد واحـد شيخ ضـرير وراح بايسها! . . . » .

ويقول عم اسكندر . . . إن هذا الرجل لا بد أصيل . . . ومن عائلة كريمة ، فلماذا؟! . . .

« وعزة الله يا حضرة الناظـر . . . وطى على إيده في وسط النـاس

كلها . . . وباسها! . . . » .

يتنحنح الناظر . . . ويردد عم اسكندر أن ناس زمـان لا وجود لهم هذه الأيام . . . فلماذا؟! . . .

« عارف يا سيدنا الأفندي الشيخ الضرير ده كان يطلع مين؟! » .

كان السؤال موجهاً إلى عينيه . . . فخفض بصره إلى الأرض حتى يصبح أكثر أدباً ! . . .

« ده كان مدرس اللغـة العربيـة بتاعـه في ابتدائي . . . فمـا بالـك بحضرة الناظر ذات نفسه؟! . . . » .

وتدق في أذنيه نقرات أصبع الناظر على حلق طربوشه من الداخل ، ويتمنى لو استطاع أن يستدير ليرى الناظـر مرة واحـدة بلا طـربوش . . . يحرك قدميه . . . ثم يهم بالـدوران إلى الخلف والشوق يـأكله ، غير أن الصوت يوقفه بحسم فتجمد في مكانه :

« وإذا كان حضرة الناظر شرفنا النهاردة في البيت ، فده فضل كبير منه . . . لازم تحفظه في قلبك طول العمر! . . . » .

يتوقف نقر الأصبع . . . ويسود الصمت . . . فلا بد أن النـاظر قـد لبس الطربوش وضاعت منه الفرصة . . . وسيقول لحامد أن الناظر زارهم في البيت ، وسيغتاظ عم أبو فرخة . . . و . . . و . . .

« حاتخش الثانوي لو ربنا أراد لك النجاح صحيح ، وربنا يقدرني وأدخلك الجامعة كمـان وتبقى بني آدم . . . لكن انت مهما عليت والـلا وطيت ، حضرة الناظر هو كل شيء . . . هو الأصل! » .

عندما تحرقه شمس الـظهيرة . . . يهـرب لينام تحت الكنبـة . . .

حيث يجلس عم اسكندر ، الظلام الرطب وذيل الكسوة يصنع ستارة تحجبه عن العيون . . .

« أنا أبوك . . . ومفيش حد في الدنيا غير الأب يحب لابنه انه يكون أحسن منه! » .

يسعل الناظر ويسري الألم من قدميه إلى ساقيه . . .

« وإذا كانت الظروف منعتني من إني أكمل تعليمي . . . فلازم انت تتعلم ، ومن كام يوم يا حضرة الناظر كنت ماشي في باب الحديد ، في مصر . . . لقيت أمامي راجل عجوز ماسك عصاية بيتعكز عليها. . . » .

يستريح في وقفته ويملأ صدره بالهواء ، يرخي ذراعيه بالصينية ويسرح بعينيه إلى الستارة الخضراء . . . والمحطة . . . والقطار . . . وباب الحديد . . . بزحامه وصفير عربات الترام فيه ، وفي كل مرة يشير أبوه إلى التمثال قائلاً :

« ده تمثال نهضة مصر يا سيدنا الأفندي ، واللي عمله المثال مختار ، ده مصري ومن أعظم المثالين في العالم! » .

الشيخ العجوز . . . والعصا . . . والزحام . . . والسيارة تكاد تدهمه . . . لولا أن جذبه أبوه إلى الرصيف . . .

« وأخذته من إيده . . . وعديت به الميدان . . . وسألته هوه رايح فين؟! . . . » .

ضريح الإمام الحسين بمقامه وميدانه . . . ورائحة الطعام . . . والناس . . . والمسجد الهائل . . . والسجاد الفاخر . . . وعندما خلع أبوه حذاءه ، وعندما حمل حذاء الشيخ . . . وعندما تبعه إلى المقام ، وعندما

سأله الرجل عما يريد ، وعندما قال أبوه : « عاوز أصلي وراك العشاء! » . . . وعندما أديا الصلاة ، وعندما استدار الشيخ وراح يحملق في الوجه الغريب ، وعندما سأل الشيخ : « انت مين يا ابني؟!» . . . وعندما رفض أن يذكر اسمه ؟ . . . « لأنه مش حايعرفني . . . ده كلام عدى عليه خمسة وعشرون سنة يا حضرة الناظر! » . . . وعندما نهض أبوه ، وعندما انحنى على يد الشيخ وقبلها . . . وعندما خرج من الجامع ، وعندما ركب الترام . . .

« ولما تقابل حضرة الناظر بعد كده لازم تفهم إنه هو المعلم الأول في حياتك ! . . . » .

وتخف الصينية بين يديه ، ويرفع أبوه كوب الشربات إلى شفتيه . . . وإن كانت « أوظة » لم تعد حتى الآن فلا بد أنها تتمرغ فوق سطح المياه ، ولا بد أنها تنتظره ، ولا بد أن يذهب إليها ، ولا بد أن يستدير نحو الناظر في أدب ويمد له يديه بالصينية الفارغة . . . ولا بد أن ينكس عينيه أدباً ! . . .

« أبوك راجل أصيل يا ولد . . . لازم تحط دا في دماغك من الآن فصاعداً . . . من عيلة أصيلة وكريمة . . . وتبطل لعب مع أولاد الشوارع! » .

لا فكاك ولا مفر ، فحتى لو كان ناجحاً فسيصبح عليه أن يخاف الناظر ويحترمه وأن يعمل له ألف حساب ، ولقد تمنى أن ينجح حتى لا يضرب للناظر سلاماً كلما رآه في الشارع . . . وحتى يرتاح من حديثه وأذاه ، لكن . . . ها هو عليه أن يطيعه مدى الحياة . . . فأين المفر ؟!

« وتبطل شقاوة وعفرتة . . . وتخليك محبوب زي والدك! . . . » .

تثقل الصينية فيستدير بها نحو عم اسكندر ، ثم يعود وجهه إلى وجه أبيه . . . فيعم السكون . . . ويثقل الهواء ويتمنى لو مزق الستائر وكسر النافذة وقفز إلى الشارع ، وخارج باب الغرفة همس . . . لا بد له أن يكف ، يشير له أبوه وهو يرد على الناظر فيزحف إليه بقدمين خشبيتين ، ويكاد يصطدم بالباب المغلق عندما تشق شعيرات المنشة هواء الغرفة من جديد ، ولاحقه صوت الناظر محدثاً إياه :

« ابنك ولد كويس يا ثابت أفندي ومستقبله عظيم . . . بس هوه اللي . . . . » .

ينهض أبوه ليفتح له الباب وتتساقط الكلمات فوق رأسه كقطع الطوب وهو يعبر العتبة :

« يا حضرة الناظر أنا غلبت معاه ، تصور إني قررت مرة إني . . . إني أوديه الصعيد علشان . . . . . . » .

يغلق الباب من خلفه واختنق الصوت في الداخل ، ويصبح وحيداً في الصالة فيتنفس ملء صدره :

تهب من البلكونة نسمة فيدير نحوها وجهه ، ويأتيه صوت « بعضشى » منادياً :

« ويكا . . . عاوزين الشربات يا ويكا! » .

يدق قلبه داخل صدره بعنف ، ويقاوم رغبة طارئة في البكاء حتى يقضي عليها ، ويداخله إحساس شديد بالحزن والحيرة ، يتلفت حوله فلا يجد أحداً . . . وتصعد الدموع إلى عينيه بالرغم من كل مقاومة . . . فماذا لو كان الخبر غير صحيح ؟!

* * * *

الفصل الثاني والعشرون

المطبخ المزحوم والعيون المتطلعة إليه في لهفة ، إناء الشربات تحت نافذة المطبخ والهواء يهب منها على وجهه فيسيل لعابه بالعطش الشديد ، على جوانب الإناء تنزلق قطرات ماء شديدة اللمعان ، يستقبله جسد أمه المرتجف بالقلق وصوتها الهامس يتساءل :

« قالوا لك إيه يا ولد؟! » .

تتخاذل ذراعاه بالصينية وتتقدم طنط جانيت ليلتحم جسدها بجسد أمه أمام وجهه في كرة هائلة تسد عليه الطريق ، وتعود أمه إلى الإلحاح بالسؤال فتمتد يدا الحبيبة لتأخذ منه الصينية وهي تقول بحنان :

« ما تطولي بالك عليه يا بنت انتي . . . هات الصينية دي يا ابني! » .

تضحك أمه في وجهه . . . لكنه لا يستطيع الابتسام ، يحرك ذراعيه ويدعكهما بكفيه ويحاول النفاذ بعينيه من الحائط البشري دون جدوى ، عن يمينه يمتد حائط المطبخ ، وعن يساره وجوه أخوته المتراصة وكأنها صور معلقة على ارتفاع منخفض . . . أكواب الشربات في أيديهم ولعابه يملأ شدقيه بالعطش . . . يرقب شفاههم المبتلة . . . وتلح أمه بالسؤال في لهفة :

« أبوك قال لك إيه يا ولد؟! . . . » .

يحاول الحديث دون جدوى فقد قال أبوه أشياء كثيرة ، لكنه لم يقل

شيئاً ، فماذا يقول هو ؟! . . .

« الناظر قال لك حاجة ؟ . . . ما ترد يا ولد! . . . » .

تـلاحقها طنط جـانيت بابتسـامة غـاضبـة ، فتتعلق عينـاه بـوجههـا مستنجداً :

« يا اختي استني عليه شوية . . . تشرب شربات يا حبيبي؟! » .
«عمك كامل اتكلم من البندر؟ » .
« تحب تشرب برتقال والا فراولة؟ . . . » .
« عمك اسكندر بيقول إيه؟! » .
« ناوليني كباية يا سهام ! . . . » .
« الناظر ما قالش حاجة يا ولد؟! . . . » .

« حا يقول إيه يا ست انتي أكتر من كده . . . واحـد جاي يشـرب الشربات ، دي عاوزة كلام؟! » .

« طب انت غبت جوه ليه . . . أبوك قال حاجة؟! . . . » .
« يـا بت الولـد مخضـوض . . . تعـال يـا حبيبي اشـرب الكبـايـة دي! » .

يـزداد جريـان لعابـه في فمه فيغلق شفتيـه أكثر وعينـاه تترددان بين جـدران المطبـخ ونافـذتـه . . . وإنـاء الشـربـات بـظلالـه النـدى الـذي يغطيه . . .

« شايفة يا جانيت . . . آهو تيجي له ساعات يسكت كده . . . زي ما يكون أخرس! » .

بجوار أخوته تقوم المنضـدة الكالحـة وفوقهـا وابور الجـاز والحلل النحاسية ، ولا تزال عيون أخوته تحملق فيه وكأنها بلا جفـون ولا رموش

فكيف يهرب منها ؟ . . . تسري إليهم أصوات حركة في الداخل فتترك طنط جانيت كوب الشربات بجوار الإناء ملهوفة وقد نسيته تماماً ، تتسمر قدماها مرهفة السمع مع أمه عندما تتعالى من داخل غرفة الصالون أصوات ضحكات . . . فتهمس أمه وكأنها تصلي :

« دول بيضحكوا يا جانيت! . . . » .

يتحرك من مكانه نحو كوب الشربات فيسد الجسدان عليه الطريق ، وتنحني فوقه جانيت ملتصقة بأمه كالمظلة ، ويطل عليه وجهاهما وقد تهدلت شعورهما من فوق الأكتاف . . . تترك عيناه صدر أمه لتتعلقا بالشق العميق بين ثديي طنط جانيت ، وتغزو أنفه رائحتها فتتهدج أنفاسه وتعود الأسئلة لتتساقط من فمهما فوق رأسه . . . فيتراجع ملتصقاً بالحائط ويزداد التصاق شفتيه . . . ولن يرد . . .

« ما تتكلم يا ابني . . . انت جرى لك إيه . . . انخرست؟! » .

وتهمس سهام وهي تتقهقر مبتعدة عنه :

« لازم سقط يا ماما؟! » .

وتشهق سامية بعينيها الواسعتين :

« بعد الشر . . . أهه انتي ! ! » .

جف حلقه ، ويفتح فمه بعشرات الألفاظ لكن صوته ينحبس فقد تعالى صوت باب الغرفة وهو يفتح ، ثم تدوي في أرجاء البيت سعلة أبيه الواثقة ، ويشق السكون صوته الهائل :

« اتفضل يا حضرة الناظر . . . اتفضل يا اسكندر أفندي! » .

تمتد إلى باب المطبخ كل الأيدي لتغلقه ، ويسود السكون مرة

واحدة وكأن الدنيا قد ماتت ، ثم تعلو نحنحة الناظر مع رنين خطواته فوق بلاط الصالة :

« ها . . . احم . . . احم . . . يا ساتر ! ! » .

ويختلط صوت الخطوات بالهمسات بحديث أبيه :

« إحنا حصل لنا الشرف يا حضرة الناظر والله . . . نزورك في الأفراح دايماً بإذن الله ! » .

بجوار باب المطبخ . . . يضحك عم اسكندر وهو يقول :

« مبروك يا ثابت . . . عقبال ما تفرح بيه وهو عريس يا ابن الـ . . . » .

تتعالى الضحكات وسط السكون وتسبح طنط جانيت على أطراف أصابعها حتى تلتصق به ، وتمتد يدها لتوارب الباب وتطل من شقه بعين واحدة ، ثم تستريح في وقفتها عندما يتوقف الركب عند باب الشقة ويدور حديث الوداع المرح ، تدفن جسدها الطري في الحائط وتظله غلالة لها رائحة ملأت كيانه بالبهجة . . . ويأتيه صوت الناظر مرحاً :

« عقبال البكالوريا والليسانس يا ثابت أفندي ! » .

« كله بفضلك يا حضرة الناظر . . . » .

تبتعد الأصوات ويسري إليه دفء جسدها ، وتدغدغ حواسه ليونة بطنها . . . فيغمض عينيه ويترك رأسه ليسقط عليه ويستنيم هناك . . . تخفت الأصوات في الخارج ويملأ عبيرها صدره فتجيش نفسه ويكاد يحيطها بذراعيه . . . يرين السكون ويعم الظلام من حوله فيضم شفتيه ببطء وحذر وكأنه يهمس بهما لنفسه ، تنتابه الرجفة الهائلة وتصطك ركبتاه وهو يطبع قبلة صامتة . . . ويدق قلبه بعنف عندما يأتيه صوت الخطوات

العائدة . . . وباب الشقة وهـو يغلق ، ينتفض متردداً بـرأسه إلى الخلف عندما انقشعت عنه فجأة ليندفع الهـواء إلى صدره دفعـة واحدة ، وتـزداد دقات قلبه عنفاً عندما يفتح باب المطبخ وتخرج منه طنط جانيت وخلفهـا أمه وتتعالى الأصوات . . . وتعم الجلبة وكانت هي أول الناطقين :

« ألف مبروك يا ثابت! . . . » .

وترد أمه من بعدها ملهوفة بالفرح :

« ألف مبروك يا ثفندي . . . عقبال ما تفرح بيه وهو عريس! » .

يظل مسمراً في مكانه لا يقوى على الحركة ، رأسه ملتصق بالحائط وظهره مفرود عليه . . . وعيناه تنفذان من النافذة إلى السماء . . . تمـرق سهـام من أمامـه ومن خلفها سـامية يـزاحمهما سـامي ويعلو صـوت أبيـه مزمجراً :

« مبروك على إيه يا ست انت وهيه!؟ » .

تحين اللحظة الحاسمـة وينهار البيت . . . وتمـلأ أذنيه ضجـة لها أصوات المدافع . . . ويأتيه صوت طنط جانيت من خلال صرخات ملأت أذنيه :

« يا بوز الأخص . . . بذمتك دي ردود في يوم زي ده؟! » .

ينتزع رأسه من الحائط وجسده من التصلب ويتسلل بعينيه من الباب ليرى الوجه العظيم قد سبح في بسمة لا تنفرج لها الشفاه :

« إنتي اتجننتي يـا جانيت . . . محـدش لسـة عـرف حـاجـة . . . محدش عنده خبر أكيد! » .

تسـوخ روحه وسط سحـابـة الصمت الـذي ران على البيت كله ، وتعود رأسه إلى الحائط من جديد . . .

« إشمعنى يا أخي أبو فرخة ما قالش اللي انت بتقوله ده؟! » .

« إذا كان أبو فرخة بيقول ريان يا فجل . . . اعمل إيه؟! » .

« هوه مش كامل أفندي اتكلم من البندر يا ثفندي؟! » .

« محدش اتكلم يا ست هانم لسة . . . الراجل بيقول إنه سمع ، وبعت يجيب الجورنال علشان يتأكد ، ويظهر إنهم مشغولين مع مصر ، ويمكن فيه غارة . . . محدش عارف! » .

« إيه الكلام اللي انت بتقولـه ده يا ثابت؟! . . . » .

يتحرك جسده ملتصقاً بالحائط ويخلو له المطبخ وتلتصق نظراته بكوب الشربات بجوار الإناء ، كان ممتلئاً تسبح على سطحه قطعة ثلج كادت تذوب ، يجري لعابه خلف شفتيه فيبتلعه دون أن يتحرك . . . ويقسم ألا يشرب الشربات . . . عندما سألته كان ينطق بالعطش الذي كان يلهب حلقه . . . ولولا سعلة أبيه لما تركته ومضت وقد نسيته كما ينساه الآن كل الناس . . . يتململ في وقفته ويهم بالحركة . . . لكنه يعود فيعدل عنها وقد استعذب الألم ، يتمنى لو سأله أحد إن كان قد شرب شربات نجاحه فتسبح عيناه في الدمع . . . تشتد الجلبة في الخارج ويضج الجميع بالضحك لشيء لا يعرفه . . . ثم يسمع صوت أمه المتوسل :

« يعني الخبر مش أكيد لسة يا اخويا؟! » .

يفكر في كوب الشربات متردداً ، لكن صوت الحبيبة ينتشله :

« ما دام الناظر جه . . . يبقى الخبر أكيد! » .

وتعود أمه إلى الإلحاح :

« ما تبعته المحطة يا ثفندي . . . يمكن يكون كامل أفندي اتكلم ! » .

تطل عليه سهام من الباب وتحملق في وجهه برهة . . . ثم تلقي على الصالة بنظرة . . . تهمس بعدها :

« يا ساقط! . . . » .

ولا يستطيع الحركة ولا الرد . . . ويشتد به الغيظ والعطش معاً ، ويقسم ألا يشرب الشربات وأن يضرب سهام حتى تنقطع أنفاسها حتى ولو حرموه من الخروج والمصروف ، حتى ولو سقط وأدخله الله النار !

« أبعته المحطة يا ست هانم . . . علشان يروح يلعب مع « أوظة » « وبعضشى!؟ » .

« ثابت! » .

لا صوت يحميه إلا صوتها . . . وإذا قالت أمه شيئاً فكأنها لم تقله . . . أما هي فكلمتها تحذر أباه آمرة فيطيع . . . وهو يعرف السبب !!

هل يدخل أبوه النار ؟!

تتحرك المقاعد في الصالة . . . فلا بد أنهم يجلسون . . . ورغم ازدياد الألم في ساقيه وظهره فلن يتحرك من مكانه ، ورغم ازدياد العطش فلن يشرب الشربات ، ورغم أنه رأى ما رأى فلن يخبر أحداً حتى ولو قطعوه إرباً . . . عند شارع السوق ساعة العصر ، المياه المرشوشة ونسمة الهواء الآتية من عند النيل ، الدكاكين . . . والناس . . . والزحام . . . وأصوات الباعة . . . ونداء بائع الجيلاتي الآتي من البندر : تـوبي . . . توبي !

أولاد الخواجات يملأون الشوارع بملابسهم النظيفة ووجوههم البيضاء وشعورهم الصفراء ورطانتهم التي تملأ أذنيه بالرهبة . . . وأولاد العرب بجلاليبهم الممزقة وأقدامهم الحافية وشعورهم المهوشة . . .

وعنـدما يـرى كوستـا بن خريستـو صاحب البـار فلا بـد أن يصيح فيـه : « يا سوكـوستا! » . . . ولـطالما لعب معـه كوستـا في المنتزه بمسـدسه ، وعندما يهز له على جبهته خصلة شعره الناعم ، ويأتيه صياح عكـوش بن عبد الله القهوجي فلا يعيره اهتماماً ، ويطلق لساقيه العنان حتى يلحق بأبيه عند دكان عم ياقوت .

النـاصية والعمـود الأخضر . . . وجلسـة عم يـاقـوت خلف مكتب الأختام الصغير ، ضحكاته المجلجلة وحـديثه الصـاخب . . . ووجه عم رزق يفيض بالابتسام دائماً ، ثم الوجه المهيب عند الناصية يذكره بترتيل القرآن ساعة الفجر كل يوم ، الصلاة في الصباح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . . . واجب لا يحيد عنه مؤمن ، وقراءة القرآن وترتيله في جوف الليل وفي ليالي رمضان . . . يريد التقرب من الله ورسوله . . . ولـطالما حسد أباه لأنه سيدخل الجنة حتماً ولا بد أن الله ـ وإن أدخله النـار بعض الوقت ـ سوف يدخله الجنة إكراماً لأبيه . . . أصوات النداءات في السوق وصيحـات الرجـال وخبطات قـادوم عبد الـرحمن السمكري . . . دقـات قوالب الطرابيش الصفـراء في دكان البـرطومي الـطرابيشي ، وأمام دكـان البلتاجي خطوات امرأتين من الخواجات اللواتي سيدخلن النار حدفاً . . . وخف هـدير الأصـوات وتلفتت كل الـرؤوس وحملقت العيون في اللحم العاري والأذرع الشديدة البياض . . . والجلد النـاعم ولون البشـرة الذي يفتح شهيته للطعام . . . من الرأسين يتدلى شعر ذهبي شديد النعومة ، وما من شيء يخفق له قلبه قدر خفقانـه للون العيون الـزرقاء . . . ومـا زالت أمامه سنوات حتى يحق عليه الحساب ، وإذا كان النظر كالزنا . . . فلينظر كما شاء وقـد يميته الله قبـل أن يبلغ الثامنـة عشرة فـلا يحق عليه دخـول النار . . . وإذا كان الأقباط واليهود سيدخلون النار . . . فلمـاذا خلق الله عم اسكندر قبطياً ؟ . . . ولن يهمه إذا مـات ودخل النـاظر جهنم ، ولكن

لماذا يدخلها عم رزق ؟ . . . وماذا كان يفعل لو أن الله لم يخلق أباه مسلماً ؟ . . . وهل كان يصبح في ذلك الوقت مثله ؟ . . . وهل كان يدخل النار مع هاتين الفتاتين اللتين ذكرتاه بأوظة فلوى شفته . . . وأحب الرجال الذين كانوا يغضون عنهما البصر ، وراح يحصي عدد الذين سيدخلون الجنة . . . ويجتاحه الغضب كلما رأى عينين تلتهمان أرداف المرأتين ، وراح يحصي عدد الذين سيدخلون النار ثم اختلطت الأرقام في ذهنه ولم يعد يعنيه أن يدخل النار كل أهل البلدة ، وليفعل كل هذا وليبتسموا وينظروا ويحملقوا حتى عم ياقوت . . . أما أن ينظر أبوه ويلتوي عنقه ويفتر فمه عن ابتسامة شديدة الاتساع ، ويعلو صوته في الشارع ضاحكاً : « شايف القشطة يا واد يا ياقوت؟! » . . . فهذا لا يستطيع أن يصدقه. . .

العينان الجاحظتان والوجه الضاحك والكلمات الفاجرة تتساقط من فم أبيه ، سرت البرودة في أطرافه ، فارتجف . . . وكاد قلبه يتوقف عن الخفقان واحتجبت الأضواء عنه فكأنها كابوس يجثم على صدره في ليلة شديدة الظلام ، وجلجلت من جديد ضحكة أبيه وامتد العنق من خلف المرأتين واستطال . . . ثم استدار الرأس ببطء . . . واصطدمت العينان المرحتان بعينيه فاحمرتا ، وتقلصت الضحكة وغاضت الابتسامة وصفعه السؤال :

« إيه اللي جابك دلوقت يا سيدنا الأفندي . . . عاوز إيه؟! » .

تصاعدت الكلمات إلى حلقه وتزاحم الدمع فسد عليه طريق الرد ، تمنى الموت وأصابه الفزع . . . فهل سيدخل أبوه النار . . . وصفرت أذناه بصفير كان يعلو ويعلو ، وعاد السؤال يأتيه من بعيد فلم يستطع الرد ، هز رأسه وفتح فمه دون جدوى . . . وإذا دخل أبوه النار فلسوف يحترق جسده ويسيح جلده ويصرخ ، ولو فعل الله ذلك بأبيه لكرهه حتى ولو ألقى به

إلى الزبانية التي تنهش اللحم نهشاً، العينان الحمراوان وثنية اللحم فيما بين الحاجبين . . . ولا بد من الفرار . . . استدار مبتعداً وقد بدا هطول الدمع الغزير . . . فكبله الخجل والعيون تحيط به من كل جـانب . . . والشفاه تتحرك والوجوه تتساءل في دهشة . . . فماذا يقول ؟ . . . اندفع يعدو بكل قواه وراح يخترق الزحام والسوق . . . يرتـطم بالنـاس وقد بـدأ يشهق ، طارده النداء من بعيد فأجلى الصفير عن أذنيه ودهمته صيحات الناس . . . قـطع السوق وانثنى إلى اليسـار . . . وانفتح صـدره للهواء فـازداد تطايـر الناس والأشياء من حـوله . . . ظـل يعدو ويعـدو . . . حتى بلغ شاطىء التـرعة على النـاحية الأخـرى من البلدة ، انثنى إلى اليمين . . . دهمتـه رائحة عفنة . . . ورأى على سطح المياه جيفـة . . . وسمع صبيـاً يصيح وهو يسبح غير بعيد عنها :

« ده حمار ميت! . . . » .

انتابـه القـيء . . . والتوى جسده . . . وازدادت سرعة جريانه حتى لم يعد للناس وجود ، الحقول الممتدة . . . والكوبري الصغير والمقـابر المتناثرة . . . وصوت الذباب يطن عندها بلا توقف ، وفي داخـل القبور ذئاب يتحدث الناس عنها في فـزع إذا ما هبط الـظلام وانقطع النـور عن الدنيا . . . وفي الناحية الأخرى ڤيـلا محجوب بك بسورها الأخضر . . . وأشجارها السامقة وخفرائها ببنادقهم وشواربهم وصيحاتهم الشرسة في كل من يقترب أن يبتعد . . . وقـد تراه نـادية فتـرى دمعه . . . ولا بـد له من الابتعاد . . . عبر الشارع إلى الرصيف الآخر وكان يقترب من بيت الناظر وقد يراه وقد يسأل عما جاء به . . . ظل يجري ويجري حتى غاصت قدماه في طين حقل مزروع بالخضرة . . . توقف عن العدو وصدره يعلو ويهبط وأنفاسه تتعثر . . . وعيناه تتخطبان ما بين السماء والأرض . . . وكان لا بد

له من الحديث مع الله . . . أتاه من بعيد صوت وابور مصفراً في رتابة : « تيت . . . تيت . . . تيت . . . » فارتمى تحت جذع شجرة وانفجر في البكاء وخرج صوته متوسلاً وهو يرفع كفيه نحو السماء متوسلاً :

« يا رب . . . يا اا رب . . . والنبي يا اا رب. . . » .

ماذا يقول . . . ماذا يريد ؟!

توقفت الكلمات في حلقه ولم يعد يعرف ماذا يريد من الله ، داخلته الحيرة والخجل وجففت دمعه وظلت عيناه معلقتين بالسماء. ليلتها لم ينم، وإن تظاهر بالنوم دون أن يتناول عشاءه . . . وعندما سألته أمه عما به . . . قال في اقتضاب :

« أنا شبعان! » . . .

والغريب أنه لم يحس بعودة أبيه إلى البيت ولم يشعر بالجوع طوال الليل ! . . . » .

كوب الشربات اللامع . . . والثلج السايح . . . ونداء أبيه . . . وتحذير الحبيبة يأتيه . . .

« ثابت . . . خلي عندك دم!! » .

« يا سيدنا الأفندي!! » .

ظهرت النتيجة . . . أم لم تظهر . . . نجح أم لم ينجح . . . عليه دائماً أن يرد النداء . . . فماذا لو لم يفعل ؟ . . .

* * * *

الفَصْلُ الثَالِثُ وَالعِشْرُونْ

يستطيع الله أن يجعل منه ابن ملك ، أو يجعله الآن وزيراً ، أو ناظراً ، وأن يميت هتلر والإنجليز معاً ، وهو يستطيع أن يقتل الشيطان في لمح البصر . . . فلماذا لا يفعل ؟!

ينتشر الألم في ظهره ورقبته فيتململ في وقفته . . . ثم يحرك ساقيه وذراعيه ويملأ صدره بالهواء . . . وينظر إلى كوب الشربات فيبلل شفتيه ، لكنه لا يقرب الكوب ، ولا الشربات . . . فلم يعد يريد شيئاً ، ولم يعد يحب أحداً !

يعاود أبوه النداء فلا بد من الرد . . . ولا بد من الطاعة ولا بد من الذهاب إليه . . . وإذا كان كل شيء مقدراً ومكتوباً فما حيلته ، لو كان أبوه تلميذاً وأراد له الله أن يرسب لرسب دون أن يعاقبه أحد . . . يخطو إلى الصالة فتستقبله عيون أخوته المفتوحة ، وترحب به ابتسامة طنط جانيت فلا تهتز فيه شعرة ، وتضحك أمه في وجهه قائلة :

« **ما تقرب يا ولد . . . ما لك عامل نفسك مؤدب كده!؟** » .

تصطاده نظرات أبيه فيملأ الغثيان حلقه . . . وعندما غادر الناظر وعم اسكندر البيت نسيت طنط جانيت أن تعطيه كوب الشربات لتلحق بأبيه ، واندفعت أمه وأخوته خلفها وتركوه جميعاً وحده ، نظر إلى كوب الشربات فعافته نفسه وغص حلقه وكره الشربات وكره أباه وتمنى له

الموت . . . وصاح « بعضشى » من الشارع يناديه :

« ويكا . . . عاوزين الشربات يا ويكا! » .

يشتد احمرار العينين فتنتابه رغبة في الرد على « بعضشى » . . . وليحدث بعدها ما يحدث ، ويكاد يفعلها لولا زمجرة طنط جانيت في وجه أبيه :

« ثابت! » .

ولسوف يكسر وراءه قلة إذا ما غادر البيت، ولا يتحرك عندما تقول أمه :

« روح المحطة . . . شوف عمك كامل اتكلم من البندر والا لسة! » .

هل تتذكر طنط جانيت كوب الشربات بعد ذهابه ؟ . . .

« ما لك يا سيدنا الأفندي؟ » .

وتمصمص سهام بشفتيها بعد أن أفرغت كوب الشربات في فمها ، ولا بد أن يدخل أبوه النار . . . مهما صلى ومهما صام . . . وإن سألته الملائكة فلسوف يخبرهم بكل ما رأى . . . وإذا عادت ليلة الغارة مرات . . . ومرات . . . فلن يندم ، يفيض به الحنين إلى الوسعاية والظلام . . . وشبح الكنيسة يطعن السماء ببرجه المدبب . . . المصابيح الزرقاء تتناثر . . . وصياح العيال يملأ شوارع البلدة وحواريها . . . النسوة جالسات على أبواب البيوت وهن يتبادلن حديث كل مساء . . . كان الحر خانقاً . . . والعرق يسيل من كل مكان في جسده . . .

. . . وعندما دوت صفارة الإنذار . . . كان في الوسعاية . . . فزاط مع العيال وهلل وترددت صيحات الخفر منذرة :

« طفي النور . . . طفي النور . . . » .

وشمل الظلام كل شيء ، وأصبح العيال من حوله كالخيالات . . . واطمأن ساعتها إلى أن أحداً لا يراه . . . فزعق بكل صوته :

« طفي النور . . . طفوا النور يا اولاد الكلب! . . . » .

لم يكن يدري لمن كان السباب . . . لكنه أراد أن يشتم . . . وعندما سمع أزيز الطائرة ، التفت فلم يجد « بعضشى » بجواره . . . وراح يتطلع إلى السماء عندما امتلأت أذناه بأصوات المدافع من كل نواحي البلدة ، وامتلأت السماء بكرات اللهب فازدادت صيحات العيال وتهليلهم ، وانبعثت الكشافات تخترق الظلام كالسيوف اللامعة ، وهوى نجم وسط كرات اللهب . . . فتمتم :

« سيف الله المسلول . . . ينزل على القوم الكافرين . . . » .

الكشافات تروح وتجيء . . . وتلتقي في السماء لتفترق من جديد . . . ثم أحس بيدها تقبض على ذراعه فجأة فارتجف . . . فالتفت نحوها وقد التصقت به هامسة :

« أنا كنت بادور عليك يا اسمك إيه! . . . » .

كان صوتها مرتجفاً ويدها باردة كالثلج . . . فداخله الخوف :

« ما لك يا « أوظة »؟! » .

« أنا خايفة من البمب! . . . » .

« قصدك القنابل! . . . » .

وازداد التصاقها به ، واشتد صياح العيال ، وكثرت طلقات المدافع ، واقترب أزيز الطائرة ، وبذرت السماء بكرات اللهب ، وتشبثت « أوظة » بقميصه والتصقت به أكثر ! . . .

« أنا خايفة يا اسمك إيه؟! » .

دهمته السعادة فانفتح صدره . . . ونظر حوله . . . ثم وضع يده فوق كتفها . . . وهو يقول :

« متخافيش يا « أوظة » . . . الطيارات مش حاترمي قنابل هنا ، هوه احنا في اسكندرية؟! » .

وأصبحت الطائرة فوق الوسعاية ، وصاح العيال مع الكبار مهللين :

« أهيه . . . الطيارة أهيه! . . . » .

وتزاحم الناس بجوار بعضهم البعض . . . وقد بدت الطائرة في السماء كنجمة لامعة وسط الأنوار الكاشفة ، وخرجت النسوة من البيوت إلى الشارع . . . فالظلام كثيف . . . ولن يكشف الرجال وجوههن . . . وزعق الخفراء . . . وتعالت الصيحات . . . واشتد هدير المدافع . . . وازدادت « أوظة » التصاقا به ، ثم غرست أظافرها في لحم صدره . . . لكنه كان سعيداً . . .

« ما تخافيش يا « أوظة » . . . أنا معاكي أهه! . . . » .

سار بها نحو المراجيح بجوار بيت الفزاري . . . وكانت ترتعد . . . بانت له أخشاب المراجيح في الظلام وكأنها خيالات رسمت في الهواء . . . ازداد التصاقه بها وهما يمران من بين الأخشاب حتى وصلا إلى الجدار حيث لن يراهما أحد أو تصلهما قنابل ! . . . وازداد صياح العيال في الوسعاية . . . فمد عينيه من بين ألواح الخشب . . . وأنفاسه تتردد بسرعة . . . وقلبه يدق في حلقه ، رعدت المدافع وتوهجت السماء . . . فازدادت أظافر « أوظة » انغراساً في لحمه وكانت يداها باردتين ، ضمها إليه . . . فأحس براحة . . . لمس جسدها ، ودفنت

رأسها في صدره وأحاطت جسده بذراعيها ، وعندما تحدثت كانت شفتاها تتكلمان في رقبته :

« هيه الطيارة حا ترمي بمب يا اسمك إيه؟! . . . » .

قال مؤكداً ، وكان صوته يرتجف :

« أبداً يا « أوطة » . . . أبداً! . . . » .

« أنا عاوزة نروح! » .

« متخافيش . . . أنا معاكي أهه! . . . » .

« أنا عاوزة نروح لأمي! . . . » .

غامت عيناه في الظلام . . . فجلس على الأرض . . . وجلست « أوطة » في حضنه . . .

« هم الألمان حاينطوا علينا بالباراشوت يا اسمك إيه؟! » .

ولو جاء هتلر . . . فسيخرج الإنجليز من مصر ـ هكذا قال أبوه ـ كالكلاب ، وسيطردون تشارلي . . . والساجن ذا الشعر الأحمر . . . والكابتن ذا الشارب الغليظ . . . وقد يقتلهم الألمان قتلاً ، سمع نداء « بعضشى » عليه في الوسعاية . . . فكتم أنفاسه في كتفها ، وعاد تهليل العيال وصياحهم . . . فقالت « أوطة » في أذنه :

« همه عملوا الحرب ليه يا اسمك إيه؟! . . . » .

التفت إليها . . . لكن قبضتها لم تتركه :

« دي حرب بين الإنجليز . . . والألمان! » .

« وعملوها ليه يا اسمك إيه . . . عملوها ليه! . . . » .

« تيجي نلعب عروسة وعريس؟! » .

« همة عملوا الحرب ليه . . . مش انت في المدرسة وتعرف؟! » .

جف حلقه واضطرب صوته . . . وتذكر أبـاه . . . وظلت « أوظة » على ذراعه قابضة .

« تتجوزيني يا « أوظة »! » .

« عارف البمبة اللي وقعت عند سيدي أبـو الدرداء . . . تيجي قـد البيت ده كله! » .

« شفتيها!؟ . . . » .

« أبويا بيقول إن الطلاينة غشم وأولاد حرام . . . همـة اللي هدوا بيتنا!! » .

« أنا ما احبش موسوليني . . . بابا بيقول إنه حمار! » .

تململ في جلسته ليريح ساقيه وظهره ، لكنها ازدادت تشبثاً به . . . كان يجلس فوق الأرض دون أن يهتم باتساخ ملابسه ولا بما ستقوله أمه ، وأحس بسخـونة وجهـه تمتد إلى أذنيـه ، وقبلته « أوظـة » في خـده . . . فـوصلت دقات قلبـه إلى جنبيه وحلقـه ، وتفصـد وجههـا بـالعـرق . . . فانزلقت على خدها شفتاه ، وقبلها في شفتيها وتمتمت « أوظة » :

« أنا خايفة نموت يا اسمك إيه!! » .

« بعد الشر! . . . » .

نظرت إليه فرأى عينيها الخضرواين وهما تلمعان في الظلام . . .

« بتحبني يا اسمك إيه؟! » .

« ودين النبي . . . وإن شا الله يا رب أموت . . . آه! . . . » .

« أنا عاوزة نتجوزك لما تكبر . . . تيجي!؟ » .

« لمـا اكبـر حـابقى مهنـدس . . . وحـاقـول لبـابـا إني عـاوز أتجوزك! » .

« أبوك مش حايرضى! » .
« ما يهمنيش! . . . » .

قالها وهو يتنهد ويستريح بصدره فوق صدرها . . . وهمست « أوظة » وهي تزيح قطعة طوب بعيداً عنها :

« الولة « بعضشى » يشوفنا . . . ويقول للعيال! » .
« مش انتي مراتي؟! » .

وابتلعت عيناه الظلام ، وأحب « أوظة » حتى الموت ، وقبلها في خدها وفي فمها . . . لكنه لم يقل كلمة . . . وعندما دوت صفارة الإنذار مرة أخرى . . . كانت الأنوار الكاشفة قد اختفت ، وتصايح العيال . . . وصفقوا . . . وعادت الأنوار الزرقاء من جديد . . . وكان يشعر برغبة شديدة في التقيؤ ! . . .

ناداه « بعضشى » . . . فلم يرد عليه ، واقتربت منه « أوظة » بعد أن غادرا مكمنهما . . . وأمسكت بيده ففزع منها . . . تركته ومضت غاضبة فأحس بالراحة لبعدها . . . وهو لا يهمه أن يعلم الله بشيء فلسوف يصلي ويصوم ويتوب . . . ولسوف يغفر الله له . . . ولكن ، ماذا لو علم أبوه بالأمر ؟! . . .

وقد يسأله « بعضشى » أين كان . . . فماذا يقول ؟ . . . وقد تخبره « أوظة » بكل شيء فهي لا تخاف ولا تهتم . . . وقد انتهت الغارة واختفت الطائرة . . . وقد يخاصمه « بعضشى » ذات يوم فيفضح سره وتسمع أمه ويصل الخبر إلى أبيه ! . . . مضى عن الوسعاية وخاض في ظلام الشارع يتخبط جسده في جدار بيت الفزاري . . . غلبه النوم فوضع أصبعه في فمه . . . لكنه ارتد به عن شفتيه وهو يبصق قرفاً . . . واجتاحه

إحساس بالتقزز . . . فقرر أن يستحم ويتطهر . . . ولا بد أن الشيطان هو الذي حرضه وتغلب عليه فما ذنبه ؟ . . . والتقت كفاه ثم افترقتا وكأن كلاً منهما يعاف ملمس الآخر . . . فرد أصابعه في الهـواء حتى لا تتلامس ، وسالت دموعه وهو يقترب من باب البيت . . . وإذا كان أبوه يقرأ قرآناً فلن يقبل يده حتى لا تصيبه نجاسته . . . راح لسانه يتهدج بـالآيات والـدعاء والتوسل ، وجاءته أصوات الناس تملأ الشارع . . . وكان عم علي سراج جالساً أمام بيته وهو يسعل ويبصق ويرد تحية الرائح والغـادي ، وسمع أم النواجي تقول ضاحكة :

« **إلهي ربنا يضلمها عليهم!** » .

وكان النور الأزرق يغمر صالة بيتهم وفرش البلكونة المفتوحة وعندما دخل باب البيت سمع طنط جانيت وهي تودع أمه . . . وصرخ سامي في الداخل فذبذبت أمه عائدة . . . وضحك أبوه ، وتقدم من السلم وهو يقرأ الفاتحة . . . صعـد درجة ورفـع رأسه إلى أعـلا فانتفض قلبـه في صدره وكأنه لكمه . . . وحاول أن يمنع نفسه من التبول فلم يستطع ، وفعلها وهو مفتوح العينين على الشمعة والضوء الخافت والوجهين الباسمين والنـظرة المـروعـة ، خف جسـده فلم يعـد يشعـر بسـاقيـه ، وانـزلق البـول على فخذيه . . . ثم ركبتيه وسرى إلى قدميه وأغرق صندله فكاد يصـرخ . . . ظلال السلم تغطيه ولا أحد يشعر بوجـوده وقلبه يتمـزق راكضاً في حلقـه موجعاً ضلوعه . . . وعندما امتدت يد أبيه نحـو طنط جانيت غشي عينيـه ظلام دامس ، وجاء صوتها الضاحك هامساً كسيخ محمى بالثلج :

« **ثابت . . . وبعدين معاك ، انت اتجننت؟!** » .

لـوى عنقه وحـرك ساقيـه وهبط الدرجـة . . . وعبر الحـوش . . .

وانطلق من الباب إلى الشارع ودموعه تهطل . . . كان خائفاً يرتجف . . . فماذا لو علم أبوه أنه رأى ما رأى ؟! . . .

في تلك الليلة أراد الوصول إلى الله بأي ثمن . . . وعندما نام على طرف الفراش مبتعداً عن نفسه . . . ساد السكون تماماً . . . وكان يفكر في طريقة يقتل بها أباه !

« اتفضل يا سيدنا الأفندي . . . اتفضل ! . . . » .

تلتقي عيناه بعيني أبيه فلا يرتجف قلبه . . .

« اتفضل يا سيدي روح المحطة . . . والعب على كيفك ، بالك انت حاتنفع !؟ . . . » .

« ثابت !! » .

رغم تحذير الحبيبة يظل واقفاً وعيناه في عيني أبيه ، كان يريد أن يبكي ، ولم يكن يريد البكاء ، ولا النجاح !!

* * * *

الفَصْلُ الـرّابِعُ وَالعِشْرُون

ساعة العصر بزحامها . . . وعيالها . . . وصفارة بائع الدندرمة المشروخة . . . ونسمة النيل الندية . . . وسيمتلىء بار مانولي عند النيل بالخواجات . . . وسيذهب محجوب بك إلى كازينو المنتزه ليشرب الخمر مع الكابتن الإنجليزي أمام كل الناس دون خوف أو خجل ، وسيجلس البكيت في بار خريستو ليخيف الرائح والغادي . . . ويصرخ في العيال إن اقتربوا أن يبتعدوا . . . وفي البار الصغير أمام بيت طنط جانيت يستطيع لو أراد أن يرى تشارلي وهو يعب البيرة عباً . . . ويوم رآه وهو يدخل بيت عم ألبير تهلل وابتسم . . . ثم ناداه باسمه أمام الناس وكأن شيئاً لم يحدث فلم يرد عليه . . . وعندما أطل من الشباك ازدادت ابتسامة تشارلي ولوح له بيده . . . وكانت طنط جانيت تقف بجواره ، أخرج له لسانه ثم أغلق الشباك في وجهه . . . فضحكت . . . ورد على ضحكاتها بتمتمة غاضبة : « يلعن أبو الإنجليز . . . أنا مش باحبهم! » . . . فرفعته إلى صدرها وضمته وسحقت شفتيه بقبلة . . . وقالت « انت بتغير علي يا حبيبي! . . . » .

وتمنى يومها لو لم يعد إلى بيتهم ، وتمنى لو نام في حضنها . . . ولولاها لما رضخ أبوه . . . ولولاها لما كف عن نخسه بالكلمات والشتائم . ولولاها لما استسلم وهو يأذن له بالعودة إلى المحطة متأففاً :

« **اتفضل يا سيدنا الأفندي . . . اتفضل!!** » .

ورغم وجودها فقد أنذره الأصبع ملوحاً قبل أن يتحرك من مكانه :

« ومن هنا للمحطة على طول ، وحتلاقي هنـاك عمك ألبيـر . . . تخليه يسأل جوز عمتك في البندر . . . ويشوف إيه الحكاية! . . . » .

قال : حاضر ، دون لهفة . . . أصبح لا يريد نجاحاً ولا رسوبـاً ، ولا يعنيـه أن يدخـل الجنة أو النـار ، ولا يعنيه أن يـرضى عنه أبـوه أو لا يرضى ، وكره أمه والبيت . . . وقرر أن يهرب ويترك البلدة إلى بلاد الله ، تركته الحبيبة للإنذار منشغلة بالبحث عن حقيبتها ، نهضت مسرعـة وهي تنظر إلى الساعة لتزور أم حامد وتبـارك لها . . . نسيتـه كما نسيت كـوب الشربات ولم تعد تذكره ، مضى متباطئاً وعيناه على الأرض . . . فاصطدم بالباب ، سمع صوتها يناديه . . . فتوقف دون رغبة ، انحنت عليه وقبلته ، ثم دست في يده قرشاً . . . فازدادت عيون أخوته اتساعاً ، وصاح فيها أبوه محتجاً :

« مش لما نتأكد من النتيجة يا جانيت . . . الولد حايخسر بالشكل ده! » .

وأيقن أنه لا بد يشبه الشيطان ، وتـأكد أن الله سيـدخله النار . . . وعندما غادر الشقة أغلق البـاب وراءه بعنف حتى يغضب أبوه ، ثم أطلق لساقيه العنان . . . وراح يقفز السلم . . . حتى إذا نـاداه يكون قـد ابتعد فيغتـاظ . . . ولو استـطاع الآن لأكل لحم الخنـزير وشـرب الخمـر حتى يغضب الله هو الآخر وليحدث ما يحدث . . . يندفـع إلى الشارع فتمـلأ الشمس عينيه وهي تطل من بين البيوت وهي الآن فوق النيل تماماً ، يوسع الخطا قبل أن تلحق به طنط جانيت في الطريق فلم يعد يريد أن يراها . . . يتجنب عيون الناس المبتسمة في وجهه أن عم ألبير يجلس الآن مكان عم

مينا ، فوردية الصباح قد انتهت ، ولا بد أنه يبتسم بوجهه المليح وذقنه الحليقة وأصابعه الرقيقة تنقر آلة التلغراف بخفة . . . يتمنى ألا يقابل عم مينا في الطريق بوجهه الذي إذا ابتسم انصهر . . . وعندما يصل إلى المكتب سينبىء عم ألبير أن طنط جانيت كانت عندهم ، لكنه لن يخبره أنها أعطته قرشاً فلو تأكد الخبر وكان ناجحاً فقد يعطيه قرشاً آخر . . . يلحق به « بعضشى » عند الناصية ويلاحقه بنداءاته وصيحاته . . . ودبيب قدميه الحافيتين وهما تعدوان نحوه . . . ينقض عليه صديقه ليحيطه بذراعه وتلفح أنفاسه جانب خده :

« شربت الشربات يا ويكا؟! » .

يتذكر كوب الشربات بجوار الإناء في المطبخ فيبتلع لعابه وهو يقول :

« أنا ما احبش الشربات! . . . » .

يقفز « بعضشى » إلى الأمام . . . ثم يستدير نحوه وهو يتقدم متقهقراً :

« مش حاتديني كباية شربات يا ويكا؟! » .

« أنا رايح المحطة لعم ألبير! . . . » .

« أم حامد فرقت شربات . . أمي بتقول أربع قزايز! . . . » .

« وإيه يعني . . . ما احنا جبنا أربع قزايز . . . مش انت شفت؟! » .

« حاتديني كباية؟! » .

« أنا حا اركب بسكليت! » .

يقولها دون قصد . . . فيقفز « بعضشى » في الهواء مهللاً :

« وتديني لفة ؟ . . . حاتديني لفة يا ويكا. . . » .

« الناظر جه عندنا وبارك لبابا . . . قال له إني نجحت وطلعت الأول كمان! » .

ماذا يفعل لو كان الخبر غير صحيح ؟!

« الولة حامد مش مصدق! » .

« أنا حا أجر البسكليت البيضا أم جرسين. . . » .

سيؤجر الدراجة وليحدث ما يحدث . . . ولن يضربه أبوه . . . فهو لن يعود إلى البيت . . .

« مش حاتروح لأوظة؟! . . . » .

« أنا حا اركب بسكليت! » .

« ومراتك يا ويكا! . . . » .

« مش رايح البر الثاني ، مين قال لها تروح لوحدها . . . وهوة فيه واحدة تروح في حتة من غير إذن جوزها؟! . . . » .

ولا بد له أن يخاصم « أوظة » وأن يطلقها . . . ولو استطاع لضربها وركلها حتى تسمع كلامه بعد ذلك !

« دي ما راحتشي البر الثاني . . . دي عند السلم قدام البلدية! » .

يتنفس ملء صدره ويبتسم رغماً عنه ، ولو مات أبوه اليوم أو غداً فلا بد له أن يجد عملاً . . . وإذا كان ناجحاً فسيعمل بالابتدائية ولن يدخل الثانوي . . . وسيرتاح من المذاكرة . . . ولن يرفع يده بالتحية إذا ما رأى الناظر في الطريق ، وإذا كانت « أوظة » قد استحمت مع العيال . . . فلن يحدثها طوال العمر . . . ولن يتزوجها حتى ولو ماتت من البكاء . . . وإذا استأجر الدراجة البيضاء . . . فلسوف تأتي معه أينما شاء ، وتركب أمامه

ليطوف بها البلدة كلها ، ويعبر الكوبري إلى البر الثاني . . .

« هو فيه عيال عند السلم؟! » .

« عبوره . . . وعكوش . . . والولة حامد . . . رجع البسكليت وقاعد هناك! » .

« أوظة » استحمت معاهم؟! » .

« مارضيتش . . . قالت أنا ما استحماش إلا مع جوزي! » .

يخفق قلبه . . . فيقفز في الهواء صائحاً :

« تيجي نشرب سجاير؟ . . . » .

« أنا سرقت سيجارة من أبويا . . . تيجي يا ويكا؟! . . . » .

ينقض على « بعضشى » فجأة . . . وقد انتابه فرح غامر ، يسدد إلى وجهه لكمة تطيش في الهواء . . . يغادر الشارع إلى السوق ويترنح « بعضشى » راقصاً . . . ويعودان معاً وسط الناس وهما يتصايحان . . . يسبق صديقه بخطوات . . . ثم يستدير نحوه مصوباً أصبعه إلى صدره :

« ويلمان! » .

يصطدم به « بعضشى » فيضحكان . . . ويوم دخل السينما لأول مرة رأى المسدسات . . . والرجال . . . والسيارات . . . وضرب النار . . . وإذا أراد له الله أن ينجح فلسوف ينجح ، وإذا قدر له أن يرسب فما ذنبه ؟ . . . ولماذا لا يستأجر دراجة مثل « حامد » . . . ولماذا لا يغيظه . . . ولماذا لا يذهب إلى « أوظة » ويأخذها أمامه . . . ويركب « بعضشى » خلفه . . . ولماذا لا يلعب حتى أذان العشاء . . . وإذا كان ناجحاً فلن يعنيه أن يتأخر عن موعد عودته ، وإذا كان راسباً فلن يعود إلى البيت . . . ولسوف يهرب . . .

« مش حا تأجر بسكليت يا ويكا . . . » .

تلوح له الدراجة البيضاء ذات الجرسين معلقة عند باب العجلاتي .

« تيجي نطفش يا « بعضشى »؟! » .

وتتسع عينا « بعضشى » وهو يصيح :

« هو انت سقطت يا ويكا؟! . . . » .

« ده أنا حا اشتغل موظف بالابتدائية يا ابني . . . » .

« دا انت لسة صغير يا ويكا . . . » .

« أنا حاطفش! » .

« تبقى ساقط! » .

« ودين النبي أبداً! . . . » .

« حاتروح اسكندرية؟ . . . » .

« لا . . . حاروح مصر . . . عند عمي . . . » .

« أوظة » مش حاترضى! . . . » .

« وإيه يعني . . . نروح سوا . . . أنا وانت . . . » .

« معاك التذكرة؟ . . . » .

« معايا قرش صاغ! . . . » .

يحملق « بعضشى » في وجهه في دهشة . . . ثم يلتصق به قائلاً :

« وريني ؟ . . . وريني يا ويكا؟! » .

يظل قابضاً على القرش وهو ينظر إلى الدراجة المعلقة بباب الدكان القريب . . . الأوراق الملونة . . . والجرسان اللامعان . . . الكشاف الباهر في المقدمة . . . سيدق الجرسين ويملأ برنينهما الأسماع ، ولسوف يغتاظ « حامد » . . . ولو أصبح ملكاً ذات يوم . . . فلسوف يشتري مائة دراجة ، ومائة سيارة . . . وقد يركب الطائرة ذات مرة ويرى

« لـو كان معـاك قرش صـاغ صحيح . . . تعـالي نأجـر البسكليت البيضا! » .

ينـدفع نحـو الـدكـان . . . ويعـطي القـرش للرجـل . . . ويتسلم الدراجة وقلبه يخفق . . . يسير بها وسط السوق وهو يتحسسها حتى يبتعد عن الدكان . . . ثم يقفز فوقها . . . ويدفع البدال بكل قواه وعندما يقفـز إلى المقعد الخلفي يتمرجح وتميل به الدراجة . . . حتى يكاد يسقط . . . يحيطه « بعضشى » بذراعيه . . . فيزداد اندفاعـه وهو يـدق الجرسين بـلا توقف ، ينحني إلى اليمين مخترقاً شارع عم ياقوت . . . فيـطالعه النيـل ومياهه تضوي تحت الشمس ببريق يخطف بصره ، يقتـرب من دكان عم ياقوت الذي يصيح فيه بصوت ملأ الشارع كله :

« مبروك يا جن! . . . » .

ويلوح له الطرابيشي مبتسماً . . .

« مبارك يا عفريت أزرق . . . عقبال الشهادة العالية. . . » .

ولسـوف يخبران أبـاه أنهما شـاهداه يـركب الدراجـة . . . وخلفه « بعضشى » . . . فماذا يهم ؟! . . . وإن لم يطفش اليوم فلسوف يهرب غداً ، وإذا ضربه أبوه فلن يصرخ ولن يبكي . . . وسيذهب إلى تشارلي في الصباح ويصالحه . . . ويبيع البيض . . . ويدخر المال ، ولو أعطاه عم ألبير قرشاً فلسوف يستأجر الدراجة مرة أخرى . . . ولسوف يذهب إلى البر الثاني بعد ذلك ويتعلم العوم ويلحق « بأوظة » في المياه العميقة . . . تخف بــه الـدراجــة وهي تـطيــر طيــرانــاً . . . وتتعــالى صيحــات « بعضشى » . . . وتختلط برنين الأجراس ، وتهب نسمـة ترطب وجهـه

الملتهب ، وعندما يقترب من ناصية الشارع يصيح بكل قواه :

« أنا ناجح ... أنا ناجح يا أولاد الكا اا لب. . . » .

ويخفق قلبه ، ويتفصد جسده بالعرق ، وتتصاعد إلى عينيه دموع سرعان ما تجففها الرياح ! . . .

* * * *

الفَصْلُ الخَامِسُ وَالعِشْرُون

ضـوء المياه الـلامعة يغشى عينيـه ، يهب الهواء ليـداعب قميصـه المفتوح ويجفف عرقـه . . . يبدو ميـدان البلدية سـاعة العصـاري شديـد الاتساع وقد امتلأ بالعيال والخواجات . . . عن اليمين رصيف المقهى وقد ازدحم بالرجال . . . وصوت ستافرو الجرسون يلعلع :

« أونا بوتيري نيرو! » .

ويصيح « بعضشى » من خلف . . . وهو يلوح بذراعه :

« ياسو يا خواجة! » .

وأمـام البار يجلس البكيت بـوجهه الأحمـر وعينيه الغـاضبتين وهـو يشرب البيرة ، ولسوف يحل الليل . . . ثم ينتصف . . . وهو في جلسته هذه يخيف الناس ويصرخ في العيال أن يبتعـدوا إن اقتربـوا . . . تجرفـه النشـوة عارمـة فيتلاعب بجـرس الـدراجـة غيـر عـابىء بنـظرات البكيت الحمراء ، وعندما يقترب منه يصيح بأعلى صوته :

« يسقط الإنجليز! . . . » .

يلتفت البكيت نحوه . . . فيدق قلبه بعنف ، ويزداد التفاف ذراعي « بعضشى » حول وسطه وهو يصيح :

« يحيا النحاس باشا! . . . » .

وتبدو له العيال عند السلم الخرساني عرايا كـالأرانب المسلوخة ، ويــرى « أوظــة » وهي واقفــة بجــوار كــومــة مــلابسهم وهي تنــظر

إليهم وتحدثهم دون خجل فينتابه الغضب . . . يزداد اندفاعه بالدراجة ويهب واقفاً عليها كمن يركب حصاناً ، ويضغط على البدال بكل قواه فتزداد سرعتها ، وتتلاعب أصابعه بالجرسين . . . ويتمنى لو قابل حامداً وكاسره بدراجته وغلبه . . . يميل إلى اليسار فينفذ قرص الشمس إلى عينيه . . . وفي البر الثاني شريط الرمال الممتد بجوار النيل خالياً من الناس تماماً ، ولو ذهب مع « أوظة » لاستطاع أن يعوم وأن يبني بيوتاً وأن يجري ويلعب دون ما رقيب ، من خلفه يبدو الكوبري وقد بدأ يزدحم بالناس ككل عصر ، يقفز « بعضشى » من خلفه ويجري نحو « أوظة » صائحاً :

« ويكا اا . . . ويكا اا . . . » .

تلتفت نحوهما فيظل واقفاً فوق البدال مرة أخرى . . . لكنها لا تحرك ساكناً ، ويبرز رأس حامد من خلف السلم ، كبيراً وكأنه كرة من الحجر . . . تنتابه النشوة فلم يكن مع حامد دراجة ، تتطاير الأشياء من حولهما طيراناً ، يمر بالأجزاخانة . . . والإسعاف . . . والشركة . . . والدكان . . . ثم حافظ بائع الدقيق . . . ثم من بعده موقف العربات والسيارات تملؤه . . . يتدفق قلبه بالسعادة ويسبق « بعضشى » ويندفع أكثر ليسابق نفسه . . . فهل يستطيع أن يسبقها !

يضغط الفرامل بكل قواه . . . فتصرخ الدراجة وتميل به . . . ثم تسكن تماماً . . . يداهمه إحساس بالقوة فينفخ صدره ويقفز إلى الأرض مرفوع الرأس ، ويلحقه « بعضشى » مرتمياً فيما بينه وبين « أوظة » وأنفاسه تتهدج ، ويتقدم منهم « حامد » ويقف على بعد خطوات يرقب الدراجة البيضاء بعين مغيظة ، ويقول « بعضشى » « لأوظة » بصوت لاهث :

« تيجي نطفش يا ويكا!؟ » .

تتنمر « أوظة » وهي تدق في عينيه نظراتها الغاضبة :

« أنا عاوزة نروح البر الثاني! » .

يقدم لها الدراجة مبتسماً وعن طيب خاطر . . .

« تاخدي لفة؟! » .

تهز كتفيها وتضرب الأرض بقدميها محتجة :

« أنا عاوزة نروح البر الثاني! . . . » .

ويصيح « بعضشى » فيها :

« تيجي نطفش ؟ . . . دا احنا حا نروح مصر يا بنتي! . . . » .

ويهز « حامد » رأسه منذراً وهو يقول :

« حاتطفش مع « بعضشى » . . . ودين النبي لانا قايل لأبوك! . . . » .

« أنا مش عاوزة نطفش ، بعد الحرب حا نرجع اسكندرية تاني! . . . » .

« وهية الحرب حاتخلص يا بنتي . . . دا ولا بعد ميت سنة! » .

« أنا عاوزة نروح البر الثاني! . . . » .

« أنا لازم أروح المحطة لعم ألبير يا « أوظة » . . . تيجي معايا المحطة الأول؟! » .

« مش انت نجحت يا ويكا!؟ . . . » .

« ده ساقط يا ابني . . . أنا اللي نجحت! » .

تسقط عيناه على وجه « حامد » فيتذكر المربع الأزرق على سبورة الفصل ، ينتابه الغيظ وتتهدج أنفاسه أكثر . . . ويقفز « بعضشى » نحو حامد متحدياً :

« دول فرقوا شربات يا ابني! . . . » .

« وإيه يعني . . . بابا بيقول محدش لسة يعرف حاجة! . . . » .

« ده الناظر كان في بيتهم! . . . » .

« كدابين! . . . » .

« ورحمة النبي أنا شفته بعيني دول حتى فرقوا عشرين قزازة شربات! » .

وتخبط « أوظة » الأرض بقدميها :

« أنا حا نروح البر الثاني . . . جاي والا مش جاي ! . . . » .

« أنا آجي معاكي يا بت يا « أوظة » . . . تتجوزيني؟ . . . » .

يقولها حامد وهو يقترب منها . . . فيضطرب ويشتد به الغيظ ، ينظر إلى « أوظة » والغضب يتملكه :

« حاتروحي معاه يا « أوظة »!؟ . . . » .

« أنا عاوزة نروح البر الثاني! . . . » .

« وتسيبي جوزك يا بنتي ؟ . . . ما يصحش كده! . . . » .

« مش هوه ناجح . . . حايروح المحطة ليه؟ . . . » .

« أصل بابا قال لي أروح المحطة علشان . . . . » .

تقف الكلمات في حلقه ولا يستطيع الكلام . . . يضغط بأصبعه على جرس الدراجة فيصرخ بالرنين . . . يركل البدال بقدمه ويتذكر كوب الشربات المثلج في المطبخ فيحس بالعطش يكوي حلقه . . . نجح أم لم ينجح فماذا يهم والدراجة بين يديه « وأوظة » معه و « بعضشى » بجواره ، ولماذا يفعل « حامد » كل ما يريد دون خوف وهو لا يستطيع ؟ ولماذا كتب الله عليه أن يصبح ابن أبيه ؟ . . . ومتى يستطيع أن يفعل ما يشاء دون حذر أو خوف ؟ . . . تخبط أوظة بقدميها مرة أخرى . . . ويتطاير شعرها مع هبوب الهواء وهي تصيح فيه منذرة :

« رايح والا مش رايح يا اسمك إيه؟! » .

يصعد صبي درجات السلم عدواً . . . والمياه تسقط من جسده العاري ، ويصيح الصبي في « أوظة » أن تخلع ملابسها لتستحم معه . . . ثم يرقد على السياج الناعم ويترك جسده لينزلق عليه بسرعة . . . بسرعة . . . بسرعة . . . ثم يهوي في المياه ، يهلل العيال وهم يتصاعدون واحد أثر الآخر . . . ويتزاحمون عند قمة السياج لتنزلق أجسادهم إلى المياه بسرعة . . . ويصيح العيال في « أوظة » أن تلعب معهم ، ويشير إليه أحدهم صائحاً :

« هوه ده جوزك ؟ . . . يا خيبتك . . . ده عامل أفندي وما يعرفش يعوم! . . . » .

ويتطاير شعرها من جديد وهي تصرخ فيه :

« جاي والا مش جاي يا اسمك إيه؟ . . . » .

ويقترب منه « بعضشى » :

« تيجي نتزحلق معاهم يا ويكا؟ . . . » .

خفقة القلب . . . وملمس الهواء الناعم على اللحم العاري . . . هل يستطيع!؟ . . .

« مش انت ناجح يا ويكا . . . حاتروح المحطة ليه بقى!؟ » .

دفء المياه ساعة العصر . . . ودغدغة الأمواج الصغيرة لبطنه وصدره وتحت إبطيه . . . ولو فعلها الآن وعلم أبوه بالخبر . . . فلسوف يقطعه إرباً لا محالة . . . فهل يهرب حقاً !؟

« سـاكت ليـه يـا ويكـا . . . روح رجـع البسكليت وتـعـالى نستحمى! » .

« مـا تيالله بقى يـا اسمك إيـه . . . جاي والا مش جـاي . . . إيـه البلاوي دي؟! » .

« مش قلت لكم . . . ده ساقط وخيبه . . . وعبيط كمان! » .

ترتطم كلمات « حامد » بوجهه كقطع الطوب وينفجر صـوته فجـأة بالسباب :

« يلعن أبوك يا ابن الأقرع! . . . » .

« أهو انت يا خواف! » .

« أنا يا ابني مخافش من حاجة ، ولا من العفاريت ، ولا حتى من الغارات! » .

« ياللي خايف من أبوك! . . . » .

« وماله . . . مؤدب . . . ومتربي . . . أمال زيك أقول لمـامتي يا بنت الكلب! . . . » .

يقولها والغثيان ينتابـه . . . فلماذا لا يهـرب ؟ . . . ولماذا لا يقـول لأمه يا بنت الكلب؟! . . .

« تخش لي؟! . . . » .

يقولها « حامد » ولم تكن في حسبانه ، ينحني إلى الأمام ويطل عليه رأسه الكبير كفوهة مدفع موجه إلى صدره ، وتستعد قبضتـاه للنزال . . . فهل يفعل ؟! . . .

« تخش لي يا خواف يا ابن الخواف؟! » .

يضطرب قلبه وتشتد قبضته على الدراجة . . . ويقفـز « بعضشى » صائحاً فيه بحماس :

« خش له يا ويكـا وسيب البسكليت معايـا . . . متخافش ، ده مـا فيهوش زقة! . . . » .

ويقفز صبي من فوق السياج عارياً . . . وهو يسأل :
« حاتخشوا لبعض يا عيال ؟ . . . حا تخشوا لبعض؟! » .

ويصعـد العيال من أسفـل الدرج عـرايا وهم يتقـافـزون بـالسعـادة والمرح :
« حاتخش له يا « حامد »؟! . . . » .
« اللي يغلب فيكم . . . يخـش لي أنا؟! . . . » .
« لا . . . اللي يغلب يتجوز البت « أوظة »! . . . » .
وتصرخ « أوظة » في الجمع العاري غاضبة :
« وانت ما لك وما لي يا ابن الغسالة!! . . . » .

وحتى إذا مزق « حامد » قميصه فلن يهتم . . . وإذا تغلب عليه أمام العيال فلن يروه بعد اليوم فقد قرر الهرب . . . وإذا كان العيال قد تـركوا السياج الناعم والـزحلقة والميـاه الدافئـة وجاءوا مهللين وأحـاطوه زاعقين وداعبوا الأجراس وتحدثوا وتصايحوا . . . فلا شيء يبعث الغيظ في نفسه قدر وجه « حامد » وابتسامته الصفراء . .

« لو كنت راجل من ضهر راجل تخش لي وأنا أوريك! » .

وإذا صاح فيه صبي أن ينازله فأين المفر ؟ . . . وإذ جلست « أوظة » فوق حافة السياج وراحت تهز ساقيها وتتعجل النـزال في نفاد صبـر فماذا يفعل ؟!

« ما تخش له بقى يا اسمك إيه . . . الله! » .

وإذا هو وسط دائرة من العرايا الصارخين بأصوات تثقب أذنيه ، وتتصاعد السخونة من أجسادهم العارية وتملأ رائحة مياه النيل صدره بالاختناق . . . وإذا قدماه مسمرتان في الأرض ، وإذا هو عاجز عن النطق تماماً ، وإذا قلبه يدق بعنف . . . فلماذا ؟!

« ما تخش لي يا ابن العبيطة . . . يا خواف! » .

ويتصدى « بعضشى » وسط الحلقة منذراً :

« إحنا فينا من الشتيمة » .

« ما تخش له بقى يا اسمك إيه . . . انت خايف؟! » .

« أصله عامل تلميذ . . . ومش عاوز يتخانق! » .

« يا ابن الكلب! . . . » .

« اشتمه زي ما شتمك يا ويكا . . . قول له يلعن أبوك على أبو أمك كمان! » .

« تتجوزني يا « أوظة » وأنا أغلب الولة « حامد »؟! » .

« هوه إيه اللي تتجوزك يا ابني . . . هوه فيه واحدة تتجوز اتنين؟! » .

« يا ساقط! » .

« تخش لي أنا يا ولة يا « حامد »؟! . . . » .

« هوه انت مخاصمني؟! . . . » .

« لا . . . بس أنا راجل . . . واقدر أغلبك! . . . » .

« أنا عاوز أخش له هوه . . . أصله عامل نفسه جدع وهوه ساقط . . . ولا فيهوش زقة! . . . » .

ولو أنه لم يستأجر الدراجة ، ولو أنه ذهب إلى المحطة ، ولو أنه لم يأت إلى السلم ، ولو سمع كلام أبيه . . . ولو أنه . . . .

« يا خواف . . . يا جبان! . . . » .

ولو أنه رفع ذراعه ، ولو أنه هوى بكفه على وجه « حامد » ، ولو أنه فقأ عينه وأسال دماءه ، ولو أنه انتصر عليه ، ولو أن « حامداً » بكى كما بكى في المرة الماضية ، ولو أن . . . .

« أخش له أنا بدالك يا ويكا؟! . . . » .

« بس . . . بس . . . بس . . . بس. . . » .

وإذا الصيحات تدهمه من الأمام والخلف . . . واليمين واليسار . . . وإذا صبي يدفعه من جانبه . . . وإذا آخر يجذب قميصه . . . وإذا الأجساد تتكاثف من حوله عريانة لامعة تقطر منها المياه . . . والشعور المبتلة الملتصقة بالجباه ، والأفواه المفتوحة وكأنها أسنان كلاب مسعورة ، فلماذا لم يمت أبوه . . . وإذا كان الله يحبه فلماذا يفعل به ما يفعل ، وإذا الدراجة بعيدة عنه بين يدي « بعضشى » . . . وإذا يد « حامد » ترتفع في الهواء لتهوي على وجهه في لطمة تطير من عينيه الشرر ، فينتفض وكأنه يصحو من كابوس ويصرخ في الجميع :

« شاهدين؟! . . . » .

وإذا « حامد » يدفعه بكلتا يديه ، وإذا مبنى البلدية يرتفع في الفضاء وتسقط السماء على الأرض وترتطم رأسه بتراب الميدان ، وإذا دائرة الرءوس تطل عليه من أعلا ضاحكة . . . وإذا قلبه يدق بغيظ هائل فيقفز واقفاً ويعود مبنى البلدية إلى مكانه ، وترتفع السماء إلى أعلا من جديد ، وتغشى الدموع عينيه ، ويرتد رأسه إلى الأمام ، وتدور الأجزاخانة وموقف

العربات والمقهى والبار والبيوت من حوله ، وتخترق أنفه رائحة « حامد » ، ويملأ أذنه صوت أنفاسه ، وتقترب الأرض من عينيه ، ثم يحجبها عنه رأس « حامد » . . . وتسقط السماء مرة أخرى ، وتصعد الأقدام إلى أعلا . . . وتتلاطم الأجساد العارية ، وترتفع صيحات العيال وصرخات « بعضشى » . . . ويأكل الغيظ قلبه فلن يعود إلى البيت . . . قسماً بالله لن يعود . . . وسيرفع جسد « حامد » بين ذراعيه ويمسك بأذنيه ، ويهوي برأسه إلى الأرض ، وتدب في قلبه الضربات عندما يرى الدم النازف من الأنف الأفطس ، ولن يعود إلى البيت ، قسماً بالله لن يعود . . . وتصفيق العيال من حوله . . .

وصرخات « أوظة » كالسيخ المحمى يخترق أذنيه :

« اضربه يا اسمك إيه . . . اضربه يا « حامد »! . . . » .

وصوت القميص الممزق كحشرجة بطة ذبحتها أمه منذ فترة فوق السطح ، وتعود السماء إلى وضعها ، وتقف الأقدام فوق الأرض ووجه « حامد » بجوارها ، وصدره يعلو ويهبط ، وإذا قدمه تندفع في غل لترتطم بالجسد الممدد . . . وإذا صوت « حامد » الباكي يصل إليه ، وإذا العيال يصفقون ، وتجذبه « أوظة » بعيداً عنهم :

« تعال يا اسمك إيه! . . . » .

ويندفع « بعضشى » راكباً الدراجة وهو يصيح في الميدان بأعلا صوته :

« ويكا . . . يا ويكا . . . يا أجدع راجل! . . . » .

وتغرق الدماء صدره وقميصه الممزق ، وينهض « حامد » باكياً . . . ويبتعد صائحاً :

« يلعن أبوك . . . ودين النبي لانا قايل لأمك! . . . » .

وستقـع الطامـة لا محالـة ، وسيبلغ الخبر أبـاه وسيغضب عم أبـو فـرخة . . . ولن يعـود إلى البيت مهما فعلوا ، قسمـاً بالله لن يعـود . . . ليخلع ملابسه ويقف في الميدان عارياً وليحدث ما يحدث ، ليستحم في النهر مع العيال . . . ويغطس . . . وينزلق لحمه العاري على سياج السلم الناعم ، نجح أم لم ينجح . . . فماذا يهم ، صيحـات العيال تحتـويه ، ويد « أوظة » تجذبه من ذراعه وهي تصيح في وجهه :

« **انت بتعيط يا عبيط . . . ده انت غلبته! . . .** » .

* * * *

الفَصْلُ السَّادِسُ وَالعِشْرُون

« تيجي نروح البر الثاني يا « أوظة »؟! » .

« لا يا خويا . . . أنا حا نعوم هنا! » .

« مش حاتتجوزيني؟ » .

« أنا عاوزة نعوم الأول . . . » .

« أنا ما اعرفشي . . . » .

« تعال وأنا نعلمك . . . » .

« المية غويطة . . . » .

« ما تخافش . . . ما انا معاك . . . » .

« ده جوة غريق . . . » .

« تعال يا عبيط . . . » .

« أنا حاطفش النهاردة . . . » .

« وهوه فيه حد يطفش بالليل؟ . . . » .

« إحنا لسة العصر! . . . » .

« دي المغرب حاتدن بعد شوية! . . . » .

« أنا مش مروح بيتنا! . . . » .

« أمك حاتعيط . . . » .

« ما يهمنيش! . . . » .

« أبوك حايضربك! . . . » .

« ما حدش له ضرب علي ، أنا ناجح ومعايا الابتدائية . . . واقدر أتوظف بستة جنيه! . . . » .

« تعال نام عندنا . . . » .

« أمك . . . تقول لماما . . . » .

« تعال نام فوق السطوح . . . » .

« وتنامي معايا؟! . . . » .

« لا يا اخويا . . . أنا بنام جنب أمي! . . . » .

« مش أنا جوزك؟! . . . » .

« اسم الله . . . وهوه بصحيح يعني . . . ده احنا لسة صغيرين! » .

« مش أنا غلبت الولد « حامد »؟! . . . » .

« وإيه يعني . . . ما أنا بنغلبه! . . . » .

« ده أنا أقدر أغلب ابن الملك كمان! . . . » .

« طب لو انت ابن ملك تعوم من هنا للبر الثاني! . . . » .

« واقدر أشرب سجاير في الشارع . . . واقعد على القهوة! . . . » .

« ولما أبوك يشوفك؟! . . ٥٠» .

« أنا ما يهمنيش . . . ولا الملك كمان! . . . » .

« حد يقول على أبوه كده . . . تبقى ابن حرام! . . . » .

« أنا ما يهمنيش حد . . . ولا حتى أستغفر الله العظيم! . . . . » .

« مش خايف لتروح النار؟! . . . » .

« أنا لسة ما بلغتش! . . . » .

« تخش لي في المية؟ . . . » .

« بس ما فيناش زق! . . . » .

« تسابقني عوم؟! . . . » .

« بعضشى » معاه سيجارة! . . . » .

« سرقها من أبوه؟ . . . » .

« وحانروح المحطة . . . ونشربها في المغربية! . . . » .

« دي الدنيا حا تبقى ليل! . . . » .

« أنا ما خافش من الغول . . . ولا من الجنية حتى! . . . » .

« أمي بتقول الغارات الألماني عاوزة تضرب السكة الحديد . . . والكوبري! . . . » .

« أنا ما خافش من حاجة . . . ولا من الغارات! . . . » .

« تعال نعوم . . . » .

« بقول لك المية غويطة . . . » .

« ولا غويطة ولا حاجة . . . » .

« وإذا غرقت؟! . . . » .

« ما تخافش . . . علي أنا! . . . » .

« مبعرفش أعوم!! » .

« ما أنا حانعلمك يا عبيط! . . . » .

* * * *

الفَصْل السَّابع وَالعِشْرُون

ملمس بطنه الدافىء والرياح تغسله فتملؤه بألف لذة ، يقف عارياً أمام العيال دون خجل . . . لماذا لا يعيش الناس عرايا ؟ . . . ولماذا أصبح محتماً عليهم أن يرتدوا الملابس ؟ . . . يقترب من « أوطة » باسماً . . . فتأخذه من يده إلى السلم . . . ويزيط العيال ويصرخون منادين عليه ، يهبط الدرجات معها في بطء ، وإذا كان يستطيع أن يضرب « حامد » وأن يغلبه . . . فلماذا يخاف العراك ؟ . . . تمزق القميص وتلطخ بالدم فلا مفر ، ولسوف تطق أم حامد بالصوت . . . ولسوف يصل الأمر إلى أبيه أينما كان . . . ذهب « بعضشى » بالدراجة . . . ولسوف يعود حتماً ، تلقى « أوطة » بنفسها في المياه فيتناثر الرذاذ فوق ساقيه بارداً ، ويرتجف سعيداً . . . يمد قدمه إلى سطح المياه الباردة ثم يشهق ، يجلس السلم ويدلي قدميه في وجل ، تحين منه التفاتة إلى أعلى السلم فيدق قلبه بعنف ثم يهدأ . . . يطل عليه عم سعداوي من أعلا . . . ولسوف يحدث ما يحدث . . . كل شيء في اللوح المحفوظ مكتوب . . . فليس هو الملوم إذن . . . يهز الرجل رأسه ويصيح فيه وهو يخلع طربوشه ويمسح رأسه بالمنديل :

« يا ابني اتقي الله وسيبك من اللعب ده ! . . . » .

« وانت مالك ! . . . » .

يصيح فيه صبي من قلب المياه :

« أبوك ده يا ولة؟! . . . » .

يغمره الخجل لثوان . . . لكنه يقول :

« ده عم سعداوي . . . أنا باباي موظف! . . . » .

يدفع الرجل دراجته ويمضي عنه دون كلمة . . . فلا يفارقه الإحساس بالخوف ، مم يخاف . . . وقد قرر الهرب وعدم العودة إلى البيت ؟ . . . صحبته « أوظة » أم رفضت فلسوف يهرب . . . سيفعل كل ما يريد ويستحم في النهر كيفما يشاء . . . وسيضرب كل من يعترض طريقه وكل من له وجه مثل وجه حامد أبو فرخة !

« ما تيجي يا اسمك إيه! . . . » .

« تعالي علميني هنا الأول! . . . » .

ولن يموت طالما كان في عمره بقية ، يخطو في المياه وصدره يمتلىء بالهواء ، تأتيه « أوظة » فيصيح فيها أمام الجميع :

« تيجي نتجوز بعد ما نستحمى!؟ . . . » .

لماذا تحملق فيه غاضبة . . . ولم يكن هذا ليغضبها من قبل؟! . . .

« تعال نروح البر الثاني يا « أوظة »؟! . . . » .

« حاتيجي نعلمك . . . والا مش جاي؟ . . . » .

تمد له يدها صارخة فيه فيزمجر صوته بالغضب ، يفتح فمه بالسباب . . . لكن دفعة تأتيه من الخلف فيهوي على وجهه في المياه ، تلمس يداه القاع الناعم ويتقلب جسده ويحاول الوقوف فينتابه الفزع . . .

« كده الواد يوقعك؟! . . . » .

وتنغرس قدماه في طين النهر . . . وينهض واقفاً . . . وقطرات

المياه تحجب عن عينيه الرؤية ، تقترب منه « أوظة » فيعطيها كفيه كاللامبالي ، تغوص قدماه في الطين أكثر . . . ويبول أمام الجميع بلا حياء ، تجذبه « أوظة » إلى الداخل فلا يتزحزح . . . تترك يديه وتلقي بنفسها في المياه مبتعدة عنه وهي تضرب سطح النهر بذراعيها وساقيها ، يغرف المياه بكفيه ويقذفها بها وهو يصيح في مرح . . . يأتيه صوت « حامد » من قمة السلم وهو لا يزال يشهق :

« وبتستحمى في المية كمان؟! . . . » .

يلتفت إليه ويصرخ فيه :

« وانت ما لك يا ابن الأقرع! . . . » .

ثم يغمس يده في المياه ويغترف حفنة طين يقذفه بها وهو يصعد الدرج إليه . . . يتراجع « حامد » مبتعداً فيدق قلبه بفرحة النصر ، لن يتمزق قميصه ولن يتسخ بنطلونه . . . فلا بد أن يضربه إذن . . . يصل إلى قمة السلم ليرى « حامداً » في الطرف الآخر للميدان ، يصرخ فيه بكل صوته حتى يسمعه كل العيال :

« تخش لي يا خواف . . . يا ابن العبيط؟! . . . » .

وقبل أن يرد عليه « حامد » . . . ينحني إلى الأرض ويختطف قطعة حجر ويعبر الميدان عارياً . . . يفر « حامد » من أمامه فيتوقف ثم يقذف بقطعة الحجر بكل قواه . . . تهب نسمة هواء تدثر جسده العاري وسط الميدان فيجيش صدره بالفرح الطاغي :

« أنا ناجح . . . أنا . . . نا ااا جح! . . . » .

لماذا قدر للناس أن يرتدوا الملابس . . . لماذا كانت هناك عورات يجب أن تختفي ؟ . . . ألا يعلم كل الناس أن كل الناس لهم عورات؟؟ . . .

« أنا نا اا جح . . . يا اولاد الكلب! . . . » .

يستدير نحو السلم وملمس الهواء يدفع الصرخات إلى حلقه . . . يبدو له « بعضشى » وهو آت من طرف الميدان عدواً . . . فيصرخ أكثر :

« مين يخش لي؟! . . . » .

الشعر المبتل . . . والأنف الكبير . . . والعينان الضيقتان . . . والشارب الخفيف فوق الشفة العليا . . . والصوت الغليظ عندما يتشاجر مع « حامد » . . . وما زال الصبي واقفاً عند قمة السلم . . .

« تخش لي يا ولة؟! . . . » .

« تيجي نضربه يا ويكا؟ . . . » .

عندما شاكله حامد كان هذا الصبي يشتمه . . . كان يريد أن ينازله .

« مش انت قلت إنك عاوز تخش لي . . . خش لي . . . دلوقت . . . » .

لن يهمه أن يمزق لحمه ما دام قميصه قد تمزق . . .

« أخش له أنا يا ويكا؟! . . . » .

« ساكت ليه يا خواف . . . يا ابن الغسالة! . . . » .

يدق قلبه . . . يدق . . . يدق . . . يبتعد عنه بلا كلمة ، ولو جاء أبوه الآن فلسوف يرد عليه . . . وإذا شتمه فلسوف يشتمه ، وإذا قالوا عنه إنه ابن حرام . . . فالله أعلم . . . يخطف الصبي ملابسه ثم يجري مبتعداً . . .

« لو كنت راجل من ضهر راجل . . . ترجع تخش لي! . . . » .

يختفي الصبي ويعود « حامد » فاغراً فاه عند الطرف الآخر للميدان فيشتمه . . .

« يا ساقط ، يا ابن الأقرع! . . . » .
« كده برضة تشتمني . . . مش احنا أصحاب؟! . . . » .

يقولها « حامد » وهو يتقدم منه محاذراً ، ويلمح « بعضشى » و « أوظة » في المياه فيهرول نحو السلم عدوا ، ولو قتله أبوه قتلاً فلن يبكي بعد اليوم ، ولن تفر من عينيه دمعة . . . ولسوف يلقي بنفسه في المياه ويعود ويعبر النيل إلى البر الثاني . . . ويلقي « بعضشى » بنفسه في النهر وهو يتصايح مع « أوظة » . . .
« أوظة . . . » .

ينادي عليها فلا ترد عليه ، فهي لم تسمعه أو أنها خاصمته . . . تغطس في المياه ويختفي جسدها تماماً فيهبط السلم مسرعاً . . . يقف عند حافة المياه وهو ينتظرها حتى تظهر رأسها عند قدميه . . .

« مش عاوز تستحمى معايا يا اسمك إيه؟! . . . » .
متى يكبر ويتزوجها . . . ويصبح له بيت مثل عم ألبير؟! . . .
« بس على شرط . . . بلاش نخش جوه يا « أوظة »! . . . » .
« انت بتخاف؟! » .
« الميه جوه غويطة . . . وأنا مش باعرف أعوم لسة! . . . » .
« تعال يا ويكا . . . وأنا أعلمك! . . . » .
« لما أخويا علمني في المالح رماني في وسط الميه لوحدي . . . ولا خفتش! . . . » .
« لازم المالح مش غويط! . . . » .

« هوه إيه يا ابني . . . ده أغوط من بحركم ميت مرة! . . . » .
« يعني عليكي لو غرقت؟ . . . » .
« علي . . . ما تخافش! . . . » .
« طب احلفي . . . » .
« وتربة ستي! . . . » .
ملمس المياه البارد . . . وجسده الدافىء . . . والرجفة تشمله . . .
« انت بتترعش؟! . . .
تجذب قدمه فينزلق إلى المياه . . . ثم يغطس . . .
« أوظة! . . . » .
« تعالي ورايا! . . . » .
« نام على وشك . . . وافرد ذراعيك! . . . » .
لماذا لم يخلق وقد تعلم العوم ونجح؟! . . .
« ما تخافش! . . . » .
يطفو جسده . . . أم أنه واهم! . . .
« اضرب المية بدراعك اليمين . . . » .
يتذكر أباه فيصرخ ضاحكاً : « طظ ! . . . » .
تتوقف « أوظة » وهي تحملق فيه . . . وبجوارها « بعضشى » . . .
« طظ في إيه يا اسمك إيه؟! . . . » .
« لا! . . . » .
« في حامد؟! . . . » .
« لا . . . » .
« طظ فية أنا يا ويكا!؟ . . . » .
« أبداً . . . ودين النبي ما فيك يا « بعضشى »؟! . . . » .
« أمال طظ فى مين؟! . . . » .

تقترب منه . . . ويلتصق لحمها بلحمه . . .

« مش عاوز تتعلم؟! . . . » .

« تيجي نطفش سوا يا « أوظة »؟ . . . » .

« هوه انت سقطت؟ . . . » .

« أبداً ودين النبي! . . . » .

« دول فرقوا شربات يا بنتي . . . الشارع كله شرب شربات دلوقت! » .

« أمال عاوز تطفش ليه؟! . . . » .

يفتح فمه . . . لكنه لا يستطيع الرد ، يجلس في المياه ويغرس أصبعه في الطين . . . وتمتلىء يده بحفنة منه . . . يشتد التصاقه « بأوظة » ويسري دفؤها إلى لحمه ، يرفع رأسه إلى أعلى فيرى « حامد » وقد عاد إلى قمة السلم . . .

« آجي استحمى معاكم؟ . . . » .

ويعانقه صوت « أوظة » هامساً :

« عاوز تطفش ليه؟! . . . » .

يبتسم دون كلمة . . . ولن يخيفه « حامد » بعد اليوم . . . ولن يخاف من أحد . . .

« تيجي تعلميني العوم يا « أوظة »؟ . . . » .

وإذا مات غريقاً . . . سيموت شهيداً . . . وسيدخل الجنة . . . ينادي عليه « حامد » ولا يرد عليه ، لماذا لا يموت الآن فيدخل الجنة بلا حساب ؟ .

« علميني يا « أوظة » . . . علميني! . . . » .

يفرد ذراعيه ويملأ صدره بالهواء صائحاً :

« تيجي نطير يا « أوظة » . . . تيجي يا « بعضشى »؟! . . . » .

« عاوز تطفش ليه . . . يا اسمك إيه ؟ . . . » .

« تيجي نروح البر الثاني؟! . . . » .

« تعال نعلمك العوم . . . قبل الشمس ما تروح! . . . » .

هبطت الشمس حتى لامست سعف النخيل في البر الثاني . . . وفي رمضان تصبح هذه هي علامة اقتراب مدفع الإفطار ، يهز كتفيه ويقذفه « بعضشى » بالمياه ضاحكاً . . . تهب نسمة هواء فيقفز إلى الداخل قفزة وتصل المياه إلى بطنه . . . تغوص قدماه في الطين . . . فيخفق قلبه ، وقبل أن يخطو خطوة أخرى تجذبه يدها فتسقط السماء فوق البيوت ، ويهوي على وجهه وتندفع المياه إلى عينيه وحلقه ، ينتابه الذعر فجأة وتغوص يداه في الطين ، تدوي من حوله الضحكات . . . ويرى العيال من بين قطرات المياه المتساقطة فوق عينيه . . .

« أوظة! . . . » .

تدفعه من الخلف يد أخرى . . . وتأتيه عبر المياه صرخة « بعضشى » فيرتعب . . .

« أوظة! . . . » .

تملأ المياه فمه فتحتبس فيه الكلمات . . . ويصل إليه سباب « أوظة » :

« بتزقه ليه يا ابن الكلب ! . . . أوعي كده يالله! . . . » .

يهب واقفاً ويملأ صدره بالهواء غير أن الأرض تنسحب من تحت قدميه . . .

« هوه فيه حد يتجوز ولد ما يعرفش يعوم؟! . . . » .

وتغوص ساقاه في الطين ويزداد الظلام . . .

« وانت ما لك يا بايخ! . . . » .

يعود رأسه إلى الهواء . . . فيشهق ويصرخ :

« أوظة! . . . » .

يتمايل الكوبري وماذا يقول أبوه لو غرق . . . ذراعاه تتخشبان . . . وقدماه في الهواء . . . ورأسه في الطين ولا بد أنه سيعود الآن . . . فهل تبكي أمه ؟ . . .

« أو. . . . . » .

تملأ المياه فمه من جديد . . . ويشتد الظلام . . . ويدوي في أذنيه سكون غريب ، ثم تدوي وسط السكون صرخة :

« ويكا . . . ويكا! . . . » .

تمتد ذراعه في الهواء . . . وتنتشر في صدره ضربات مطرقة من حديد . . .

« يا اسمك إيه . . . يا اسمك إيه! . . . » .

يشهق شهقة وتنغمس ذراعه في الهواء . . . وتلحق يده بشعر « أوظة » وتأتيه الصرخة من بعيد :

« غريق . . . غريق! . . . » .

« سيب شعري . . . يا. . . . » .

وإذا المياه من كل ناحية ، والظلام يسود الدنيا ، وتنتفض ساقه لتلامس جسد « أوظة » ، في ذراعها ، وجسده يدور حول جسدها . . . وتظهر السماء ثم تختفي . . . وتبدأ الصرخة ثم تختنق . . . ويبلل الهواء قدميه . . . وصرخات العيال المذعورة . . . وتضرب يداه في المياه فإذا

« أوظة » بعيدة . . . وإذا الظلام كثيف . . . كثيف . . . وإذا كان هذا هو الموت فأين ملاكه الذي يرتدي السواد . . . أجراس الدراجة البيضاء . . . وصفير القطار الهادر فوق الكوبري وصياح أمه . . . وزمجرة أبيه . . . و « بعضشى » وسط الظلام يصرخ في رعب :

« غريق . . . غريق! . . . » .

وتصطدم يداه بالحجر ، وتنغرس قدماه في الطين ، ويصعد جسده كله إلى الهواء فجأة ، ويشهق رافعاً رأسه إلى « بعضشى » وسط جميع العيال فوق السلم :

« غريق . . . غريق! . . . » .

وإذا المياه خالية إلا منه ، وكل العيال عرايا . . . « وحامد » عند قمة السلم يبكي ويرتعد :

« غريق . . . غريق! . . . » .

تسوخ روحه وترتعد ركبتاه وهو يتقدم من السلم . . . وكلهم يشيرون نحوه . . .

« غريق . . . غريق! . . . » .

« أنا أهه . . . أنا أهه يا « بعضشى » . . . أنا أهه يا عيال . . . أنا ما غرقتش! . . . » .

« غريق . . . غريق . . . غريق! . . . » .

ورجال يأتون . . . وشباب يتجمعون . . . وامرأة تصرخ . . . وهو يصرخ :

« أنا أهه . . . أنا أهه! . . . » .

ورجل يخلع ملابسه . . . و « بعضشى » يبكي بجواره . . .

« بعضشى . . . أنا أهه! . . . » .

وينشق الهواء بصراخ امرأة انطلقت بالصوت :

« يا بنتي . . . يا ضنايا . . . هيه مين يا بني اللي غرقت؟! . . . » .

« أوظة . . . أوظة! . . . » .

صرخة « بعضشى » . . . وولولة « حامد » . . . ودموع العيال . . . ويزداد اصفرار السماء . . . وسطح المياه المترقرق . . . ويلقي الرجل بنفسه في المياه . . . وترتعد ركبتاه . . . وتشق الدموع عينيه كالإبر الحادة :

« بعضشى . . . أوظة . . . فين يا بعضشى؟ . . . » .

* * * *

الفَصْلُ الثَامِنَ وَالعِشْرُون

تؤذن المغرب من فوق مئذنة الجامع الكبير . . . فيجهش كل الناس على الشاطىء بالبكاء . . . ويبدو له النيل شديد السواد ، ويشهق « بعضشى » باكياً ، وقد ارتدى كل العيال ملابسهم . . . فهل يمكن أن تكون « أوظة » قد ماتت حقاً ؟ . . .

يخرج الرجل الغاطس من المياه عرياناً يستر عورته :

« ما فيش فايدة . . . خدها التيار! . . . » .

إلى أين يذهب؟! . . .

وكيف تموت « أوظة » ؟ . . . كيف تموت ؟! . . .

يبدو له الميدان شديد الظلمة . . . وقد خلا من الناس تماماً . . . المقهى . . . والبار . . . والدكاكين . . . ولا أحد هناك . . . وعند الشاطىء يشتد الزحام ، وعما قليل سيأتي أبوه ، وستعلم أمه بالخبر وتصرخ فزعة ، وسيبكي أخوته . . . ولسوف يقام المأتم في شارعهم . . . فلماذا لم يكن هو الميت ؟! . . .

يصطدم بجدار الجامع فيستند إليه وقد تقطعت أنفاسه ويأتيه من الخلف صوت رجل كان يهرول نحو الشاطىء مفزوعاً :

« قول لي يا شاطر . . . ما شفتش ابني سعيد ؟ . . . سعيد كان معاكم؟! . . . » .

هل يفعلها أبوه . . . ويفزع عليه إذا ما بلغه الخبر ؟ . . . ظهرت النتيجة أم لم تظهر ؟! . . . تحدث عم كامل أم لم يتحدث ؟ . . . ولماذا يموت الناس ؟ . . . وهل كانت « أوظة » ناساً حتى تموت ؟! وإذا كنا جميعاً سنموت يوماً ما . . . فلماذا خلقنا الله من البداية ؟ . . . أيكون الأمر حلماً سنستيقظ منه ذات صباح ؟! . . . لماذا لا يولد من جديد ؟ . . ولماذا ماتت « أوظة » وهي تلعب معه ؟ . . . إن الله قادر على كل شيء . . فهل يخرجها من الماء حية تسعى إليه ؟

ترتجف ركبتاه وتبرد أطرافه ولا تقوى ساقاه على حمله يجلس بجوار جدار الجامع . . . فمتى يكف عن البكاء ؟ . . .

« ما لك يا ابني؟! . . . » .

لا بد أن « أوظة » كانت تضحك عليه ، ولا بد أنها اختفت تحت الماء وسبحت إلى البر الثاني ! . . .

« الواد مخضوض! . . . » .

ولا بد أنها الآن تنادي عليه . . . وهو لا يسمع . . . فلماذا لا يعود؟!

« انت ابن مين يا شاطر؟! . . . » .

غطست وسبحت . . . وابتعدت ولم يرها أحد . . . وإن عادت . . . فلسوف يخاصمها! . . . » .

« بيتكم فين ؟ . . . انت منين يا ولة؟! . . . » .

ولن يلعب معها بعد اليوم . . . ولسوف يطلقها ولن يتزوجها . . .

« انت اسمك إيه ياابني . . . اسمك إيه؟! . . . » .

ولسوف يذهب إلى طنط جانيت . . . ولسوف يبكي على صدرها . . .

« هاتوا شوية مية يا ناس . . . وبلاش اللمة دي . . . الواد مسورق! » .

ولن يكلم أباه . . . لن يكلمه . . .

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . الواد متلج . . . شوية هوا يا خلق! » .

وإذا نجح . . . فلسوف يرسب ! . . .

« ده ابن ثابت أفندي بتاع التليفونات! . . . » .

وإذا كبر فلن يتزوج ! . . .

« أهه أبوه جه! . . . » .

وإذا شاهد محجوب بك . . . فلسوف يبصق على الأرض . . . ولن ينتخبه ! . . .

« أيوه ده ابني . . . عن إذنكم . . . يا ولد . . . انت يا ولد . . . يا سيدنا الأفندي! . . . » .

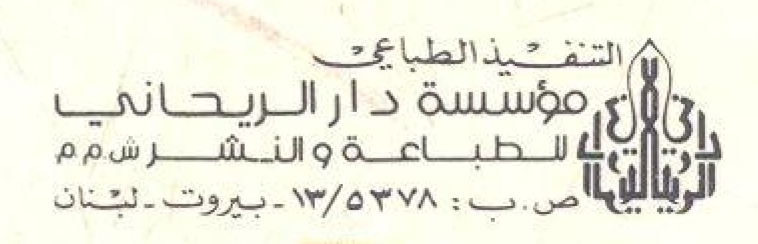
وإذا رأى تشارلي فلن يحدثه . . . أبداً . . . لن يحدثه . . .

* * * *

« تـــمت »

الفهـــرس

الموضوع **الصفحة**





هذا الكتاب

هذه الرواية تمثل انعكاساً لفترة تاريخية حساسة وهامة في حياة الشعب المصري ، حين كانت مصر تمر بمرحلة من مراحل الصراع العالمي خلال الحرب العالمية الثانية ، وقوات الحلفاء تنشر الفقر والمجاعة بطرق مختلفة ، وتصادر الأراضي والممتلكات وتضع يدها على المرافق الحيوية والاقتصادية .

خلال هذه الفترة ،،، وفي بلدة صغيرة على ضفاف النيل ،،، تنشأ قصة حب بين صبي وفتاة ، وينمو هذا الحب في جو من التحولات الاجتماعية العميقة وتتضح الخطوط العريضة لهذه التحولات من خلال مناقشات تتسم بالصراحة والعفوية والوضوح ،،، مناقشات عديدة حول القيم والمعتقدات . .

رواية أبطالها صبية يعيشون ظروفاً في بلدة سكانها مزيج من مختلف الطبقات والجنسيات ، والجميع يدفعون ضريبة الحرب الغالية . . .

الناشر